www.kotobarabia.com

د. كريم زكي حسام الدين

www.kotobarabia.com

العربية تطور وتاريخ

دراسة تاريخية لنشأة العربية والخط وانتشارهما

العربيَّة

تَطوُّر وتارِيخ

دراسة تاريخية لنشأة العربية والخَط وانتشارهما

تأليف

د. كريم زكى حسام الدين

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

بسم الله الرحمن الرحيم

وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم

صدق الله العظيم

[إبراهيم:٤]

الإهـــداء:

إلى من ألف القلوب على حب لِسان العرب

إلى من يدافع عن العربية بقلبه، ويعشقها بعقله

إلى الأستاذ الدكتور / عاطف نصار

حبا وتقديرا.

الفهرس

المقدمة ٧

الباب الأول

العربية: اللغة والخط.................................. ١٥

الفصل الأول: العربية: النشأة والتكوين.................. ١٦

الفصل الثانى: العربية البائدة والنقوش القديمة ٧٠

الفصل الثالث: الخط العربِيّ: النشأة والتكوين ١٠٢

الباب الثانى

العربية: صراعها وانتشارها.........................١٧٠

الفصل الأول: العربية عوامل صراعها ونشأة لهجاتها..١٧١

الفصل الثانى: اللحن: مظاهره ومواجهته................١٩٠

الفصل الثالث: لغة التعامل وطبقات المجتمع اللغوي....٢٠٧

الفصل الرابع: العربية: عوامل انتشارها وتطورها ٢٢٣

الباب الثالث

العربية: تعريب الأمصار الإسلامية..................٢٣٨

الفصل الأول: العربية في العِراقَين.......................٢٤٠

الفصل الثانى: العربية في فارس وبلاد ما وراء النهر..٢٧٠

الفصل الثالث:: العربية في مصر......................٢٩٢

الفصل الرابع: العربية في بلاد المغرب..............٣٤٥
الفصل الخامس: العربية في صقلية ومالطة وجنوب فرنسا
....٣٨٠
الفصل السادس: العربية في الأندلس..................٤٠٥
المصادر والمراجع: ٤٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـ ـة

إن اللغة مثل الكائن الحي، ليست محدودة في مكان لا تغيره، كما أنها ليست ثابتة في زمان لا تتجاوزه، كما أنها تخضع لجميع مظاهر السلوك الإنساني فهي تتحرك من موطنها إلى مواطن أُخرى حيث يطيب لها الاستقرار، وهي تختلط بغيرها من اللغات بالحوار والاحتكاك فتؤثر وتتأثر، وقد تدخل في صراع ينتهي بانتصارها أو هزيمتها أمام اللغات الأخرى، وهي تتغير أو تتطور أو تنتقل من طور إلى طور فلا تبقى على حال واحدة، فتمر بأطوار الطفولة والفتوة والشيخوخة ثم تدنو من الموت والفناء.

نجد بعض هذه الظواهر تصدق على اللغة العربية، فقد خرجت من موطنها الأول في شبه الجزيرة العربية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وانتشرت في الأمصار والأقطار التي فتحها المسلمون، فلم تكد تمضي مائة عام على خروجها من موطنها حتى امتدت إلى أواسط آسيا وحدود الصين شرقًا، وأسبانيا وجنوب فرنسا غربا، ونجد اللِساني الفرنسي رينان يبدي إعجابه ودهشته لهذه الظاهرة

قائلاً: "إن أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت لغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبدت فجأة على غاية الكمال، سلسة آية السلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولا أدري مثل ذلك للغة من لغات الأرض، ويستطرد قائلاً:" .. ما عهدت قط فتوح أعظم من الفتوح العربية ولا أشد سرعة منها، فإن العربية ولا جدال قد عمت أجزاء كبيرة من العالم، ولم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة، أو ِلسان فكر ديني أو سياسي إلا لغتان اللاتينية واليونانية، وأين مجال هاتين اللغتين في السعة من الأقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها" (ص ١٢٧ من الدراسة)، وسيرى قارئ الدراسة اهتمامنا بما أشار ِإلَيهِ رينان من الفتوح الإسلامية التي كانت نموذجا فريدا في التاريخ الإنساني، ومهدت لنشر العربية في الأمصار المفتوحة شرقًا وغربا.

لقد احتكت اللغة العربية في انتشارها بلغات متعددة أثرت فيها وتأثرت بها، ودخلت مع غيرها من اللغات في

صراع فتغلبت عليها، كما أنها انتقلت من طور إلى أطوار أُخرى، فبعد أن كانت لغة شفاهية مرتبطة بفنى القول: الشّعر والخَطابة، أصبحت لغة مدونة مرتبطة بالدين الإسلامي الذي انتقلت به إلى طور ثانٍ، ومن هذا الطور انتقلت إلى طور ثالث لتقوم بدورها لتلبية احتياجات الحضارة الإسلامية فاستطاعت
أن تستوعب إنجازات العلوم والفنون المختلفة التي أبدعتها هذه الحضارة مما هيأ العربية لتكون لغة عالمية في العصور الوسطى تُدرس بها العلوم في الجامعات الأوربية، ويمكن أن تعود لتمارس دورها السابق إذا استرجع أهلها حضارتهم المفقودة.

لقد انفردت العربية بظاهرة الخلود التي لم تتوفر لغيرها من اللغات الإنسانية القديمة والحديثة، فلم تتعرض للشيخوخة والهرم اللذين يقودانها إلى الموت والفناء لقد ضمن لها كتاب الله الخلود وحمل عنا عبء حفظها وضمان بقائها نطقًا وخطا لقوله تعالى: ﴿إِنا نَحن نَزلْنَا الذكْر وإِنا لَه لَحافِظُون﴾. [الحجر:٩] لم تعرف لغة مثل العربية هذا العمر المديد، فاللغات المعاصرة لا يمتد عمرها الزمني أكثر

من قرنين أو ثلاثة قرون، ولم تعرف اللغات القديمة مثل السنسكريتية في آسيا واللاتينية واليونانية القديمة في أوربا كتابا يحفظها ويصونها مثل العربية.

لقد ضمن القرآن الكريم للعربية الثبات والصيرورة بشقيها المنطوق المسموع، والمكتوب المقروء، تمثل هذا الثبات في أصوات العربية التي حافظت على مخارجها وصفاتها الصوتية، وتمثل في أبنية الكلمات الصرفية وقواعد اللغة التي جمعها سيبويه في أول كتاب شامل للعربية في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، كما تمثل هذا الثبات والصيرورة في ألفاظ العربية التي لا تزال نستعملها ونفهمها منذ قرون عديدة، وتمكننا من فهم القرآن الكريم والحديث الشريف، والشعر العربي في عصوره المختلفة، فهل كان يخطر على بال أي شاعر جاهلي أو إسلامي أن شعره سيبقى أكثر من ألف عالم يقرأه جيل بعد جيل من أبناء العربية فيفهم ألفاظه ويتدبر معانيه وهو أمر لا يتوفر في اللغات الأخرى.

يمثل القرآن الكريم أول استخدام واسع جلي للخط العربي، بعد أن كان حبيس استعمالات محدودة، وقد لا نبالغ

إذ قلنا إننا لم نعرف كتابا حظِي بالعناية والاهتمام من هذه الجهة مثل القرآن الكريم، سواء من حيث كتابته أو رسم حروفه إلى جانب تحقيق تلاوته وقراءته وأثره في نشأة علوم اللغة والشريعة؛ فبفضل القرآن ثبتت الكتابة العربية، ورسخ الخَط العربي لأنه لا يقرأ إلا بهذا الخَط، وإذا كانت بعض الشعوب التي أسلمت لم تحافظ على العربية بوصفها لغة تعامل في الحياة اليومية، إلا أنها حافظت على استخدام الخَط العربي لتدوين لغاتها مثل الفارسية والأوردية والماليزية، وتخلى بعضها عن هذا الخَط لأسباب مختلفة، كما نرى في اللغة التركية في آسيا واللغتين السواحلية والهوسا في إفريقية.

لقد كانت العربية لغة العلم والأدب والوحيدة على امتداد العالم الإسلامي مهما كانت أصول أهله فأسهمت الأقاليم والأمصار الإسلامية في تصنيف المؤلفات في مختلف العلوم، فمن بخارى يجمع البخَاري أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هرةَ يجمع الهروي غريب الحديث، ويؤلف الأزهري معجمه تهذيب اللغة، ومن فاراب يؤلف الفارابي معجم ديوان الأدب، ويؤلف ابن أخته الجوهريّ معجم

الصحاح،
ومن فِيروزاباد يؤلف الفِيروزآبادِي معجمه قاموس المحيط، ومن جرجان يظهر البلاغي والنَحوي المشهور عبد القاهر الجرجاني، ومن هؤلاء العلماء أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، والراغب الأصفهاني صاحب معجم مفردات القرآن الكريم، وحمزة الأصفهاني صاحب كتاب الدرة الفاخرة في الأمثال، الذين نشأوا جميعا في أصفهان، ولم تستطع الفواصل والحدود السياسية أن تكون عقبة أمام العلماء والأدباء والشّعراء في التنقل والارتحال، فهذا أبو على القالي ينشأ في أرمينيا، ويتأدب في بغداد، ويعلّم ويؤلف في الأندلس، وينشأ الزمخشري في زمخشرى في بلاد فارس ثم يأتي إلى بغداد ويجاور في بيت الله الحرام، ويقرأ كتاب سيبويه على أحد الأندلسيين بمكة، وينتقل أبو على الفارسي النَحوي بين شيراز وحلب والكوفة والبصرة، كما تشهد على ذلك مؤلفاته، ويتنقل المتنبي الشاعر بين فارس والشام والعراق ومصر، كما نجد غير هؤلاء من ذوي الأصول الأعجمية لم يفكر أحدهم أن يكتب بغير العربية ويتخذ العربية لِسانا له مثل ابن المقفع الأديب، وبشار الشاعر

والبيروني (ت ٤٤٠هـ) العالم الذي يقول: " إلى لِسان العرب نُقِلَت العلوم إلى أقطار العالم فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها إلى الشرايين والأوردة، والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية، ويعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نُقِل إلى الفارسية فسيرى أنه كيف ذهب رونقه وكسف باله وأسود وجهه وزال الانتفاع به (ص ١٦١ من الدراسة).

وما أشبه الليلة بالبارحة! فإذا كان البيروني يعلي من شأن العربية ويعترف بقدرها ، فإننا نجد الزمخشري ت ٥٣٨ يشير في مقدمة كتابه المفصل في النحو إلى من يجحد فضلها، ويذهب عن توقيرها وتعظيمها، ويتبرم منها بالرغم من أنها لغة الدين والعلم والقلم والأدب، وأن التدريس بغيرها يذهب بجمال العالم كما يقول البيروني.

يرى بعض الفقهاء أن تعلم العربية فرض عين على كل مسلم ومسلمة لأن بها يصحح المرء صلاته وما يقرأ أو يحفظ من القرآن، بل يرى بعضهم كراهة التخاطب بين المسلمين بغير العربية.

لقد أردت بهذه الدراسة تعريف المتكلمين بالعربية من شباب الطلاب والطالبات في أقسام اللغة العربية وغيرهم ممن يغارون على لغتهم، كيف نشأت وانتشرت في الأمصار المفتوحة، وسنعود إن شاء الله إلى هذه الدراسة مرة أُخرى لكي نبين ملامح التطور ودور العربية في العلوم التي عرفتها الحضارة الإسلامية ونقلها الأوربيون.

وحسبي بهذا العمل أني بذلت جهدا متواضعا لخدمة القرآن

فَأما الزبد فَيذْهب جفَاء وَأما ما ينْفَع الناس فَيمكُثُ فِي الأَرضِ .

وآخِر دعوانَا أَن الْحمد لِلهِ رب الْعالَمِين .

المقطم في ٢٤ رجب ١٤٢٢

أ.د. كريم حسام الدين
أستاذ الدراسات اللِسانيات
كلية الآداب
جامعة الزقازيق – فرع بنها

الباب الأول

العربية: اللغة والخَط

الفصل الأول

العربية: النشأة والتكوين

إن الحديث عن نشأة اللغة العربية وتكوينها في موطنها الأول شبه الجزيرة العربية من الموضوعات الشائكة، وقد حاول كثير من العلماء بحث هذا الموضوع، وقالوا بافتراضات متنوعة، اتفقت حينًا، واختلفت أحيانًا أُخرى، وقد قصدوا بهذه الافتراضات أن يجيبوا على بعض الأسئلة التي تتعلق بتحديد الفترة التي اكتمل فيها الشكل النهائي للغة العربية، وبيان كيفية تكوين هذا الشكل.

وصلت إلينا اللغة العربية في صورتها المعروفة لدينا من خلال نصوص الشّعر الجاهلي، ونصوص القرآن الكريم، ونصوص الحديث الشريف، وهي صورة تقترب من الكمال والنضج، وتتمثل في نظام الإعراب المحكم، والتنوع الملحوظ في أبنية الأفعال والأسماء وغير ذلك من الظواهر اللغوية مثل التعريف والتنكير، وتنوع أدوات العطف والنفي والاستفهام وغيرها.

وقد لاحظ الباحثون أن هذه اللغة التي وصلتنا من خلال نصوص الشّعر والقرآن الكريم، لم تعكس بصورة واضحة وجلية الواقع اللغوي الذي يتمثل في وجود

المستويات اللغوية، أي الجهات التي كانت موجودة في شبه الجزيرة في تلك الفترة، ونجد بعضهم يقول: إن اللهجات العربية في العصر الجاهلى والمروية في الكتب العربية لا توجد آثارها واضحة جلية فيما وصلنا من الشّعر الجاهلي، وخاصة في شعر القبائل التي رويتْ عنها تلك اللهجات[1].

يؤكد هذا باحث آخر قائلاً: "فشعر الشّعراء من ربيعة لا يعرف ما اشتهر من لهجتها من الكشكشة، وشعر الشّعراء من تميم لا يعرف العنعنة، بل حين نتتبع لهجة هذيل في ديوان الهذليين الذي وصل إلينا لا نكاد نعثر على شيء، اللهم إلا تلك الإشارات السريعة التي نراها في كلام بعض شراح الديوان"[2].

لقد اهتم القُدماء بتسجيل هذه اللهجات، ويمكن أن نعرض لها كما يلي[3].

---

[1] انظر: أستاذنا د. خليل يحيى نامى، دراسات فى اللغة العربية، ص ١٥، ط دار المعارف.

[2] د. إبراهيم أنيس: فى اللهجات العربية، ط الأنجلو المصرية، ١٩٩٠.

[3] تعود هذه المصطلحات إلى اللغويين القدماء لتسمية اللهجات، ولم تعرفها العرب.

الكشكشة[1]: تعني إبدال كاف المخاطبة شيئًا في حالتي الوقف والوصل، تعزى هذه اللهجة إلى أسد وبكر وتميم، ومن أمثلة الإبدال في الوقف:

قول رؤبة[2]

تضحك منى إن رأتْني أحترش
ولو حرشت لكشفت عن حِرِشْ
عن واسعٍ يغرق فيه القَنْفَرِشْ

وقول الراجز[3]

هلْ لَكِ أن تَنْتَفِعي وأَنْفَعِشْ فَتُدخِلِين اللذ معِي في اللذِ معشْ

ومن أمثلة الإبدال في الوصل: قول مجنون ليلى[4]:

فَعنياشَ عينَاها وجِيدشَ جِيدها ولَكِن عظْم الساقِ مِنْشَ دقِيقُ

ومن شواهد الإبدال في الوصل قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفَاكِ وطهركِ﴾ [آل عمران :٤٢]

---

(١) المزهر ١:٢٢١، الخصائص ٢:١٢، سر صناعة الإعراب ١:٢٣٥.
(٢) اللسان: كشش، الإبدال لأبي الطيب ٢:٢٣٠.
(٣) العقد الفريد ٢:٤٧٧.
(٤) اللسان: كشش، الإبدال لأبي الطيب ٢:٢٣٠.

إن الله اصطفاش وطهرش وقوله تعالى: **قد جعل ربك تحتك سريا** [مريم:٢٤] **قد جعل ربش تحتش سريا** .

ولا تزال هذه اللهجة موجودة بعض مناطق من الخليج العربي إلى اليوم، وبعض قرى محافظة الشرقية التي نسمع أهلها يقولون: "تْشَلْب" في : كلب[(١)].

وقريبا من هذه اللهجة الشنشنة، وتعني إبدال الكاف شينًا، وتُعزى هذه اللهجة إلى أهل اليمن في قولهم: عليش، بدلاً من: عليك[(٢)].

الكسكسة: تقابل الكشكشة، وهي زيادة سين على كاف المخاطبة في الوقف، من ذلك قول أصحاب هذه اللهجة: رأيتكس، علكس، بكس، وعزاها اللغويون القُدماء إلى هوازن، ربعية ومضر[(٣)]

---

(١) تتحول الكاف إلى صوت مزدوج (تش) ، كالذي نسمعة فى الإنجليزية Children.

(٢) المزهر ١:٢٢٣.

(٣) المزهر١:٢٢١، الخصائص ٢:١١، سر صناعة الإعراب ١:٢٣٥.

وقريبا من هذه اللهجة الوتم، ويعني قلب السين تاء، وتُعزى هذه اللهجة إلى أهل اليمن في قولهم "النات: بدلاً من الناس[1].

العنعنة: تعني إبدال همزة أن المفتوحة عينًا، ويعزى هذا إلى تميم وبعض أسد وقيس وطيء، فيقولون: عن بدلاً من: أن، من ذلك ما حكاه الأصمعي عن ابن هرمة الذي نشأ في بنى تميم[2]

أعن تَغَنتْ على ساقٍ مطَوقَةٌ

ورقاء تَدعو هِديلاً فَوقَ أعوادِ

لا يقتصر هذا الإبدال على الهمزة المبدوء بها، بل نجده في كل همزة، يقول ابن دريد في الجمهرة: "خَبع الرجل في المكان، إذا دخل فيه، وأحسب أن هذه العين همزة، لأن بنى تميم يحققون الهمزة، فيجعلونها عينًا، فيقولون: هذه خباعنا، يريدون: خباؤنا"[3] إن إبدال الهمزة عينا نوع من المبالغة في تحقيق الهمز، ونرى ذلك لدى بعض أهل الصعيد في قولهم: لع بدلاً من: لأ.

---

(1) المزهر ١:١٢٣.

(2) المزهر ١:٢٢٣.

(3) المحتسب ١:٣٤٣، البحر المحيط ٥:٣٠٧.

الفحفحة: تعني إبدال الحاء عينًا، وتُنسب هذه اللهجة إلى قبيلتي هذَيل وبنى ثَقِيف، ينقل أبو الطيب قول أحدهم: "اصبر حتى آتيك، وعتى آتيك"[1] وقُرِئَ به في القرآن الكريم، يقول ابن جني: "روى عن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: حتى حين يوسف/٣٥:" عتى حين"، فسأله من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إِلَيهِ: "إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجعله عربِيا، وأنزله بلغة قُريش، فأقرئ الناس بلغة قُريش، ولا تُقْرِئْهم بلغه هذَيل، والسلام[2]. كما قرأ قوله تعالى: **وطَلْحٍ منْضودٍ** [الواقعة:٢٩] "وطَلْعٍ منْضودٍ" والطلْع لُغَة في الطلح، ورُوِي عنه عكس ذلك، أي قلب العين جـ ـاء في قوله تعالى: **إِذَا بعثِر ما فِي الْقُبور** [العادِيات:٩]، فقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب: بالبدو الذين يجهرون في كلامهم، كما رأينا في جهر الحاء فأصبحت عينًا، فالبيئات البدوية تُؤْثِر دائما الأصوات المجهورة حرصا على تحقيق الإسماع في أرضها المكشوفة، بعكس البيئات الحضرية التي تتقارب فيها المسافات، وتتدانى فيها الأفواه

---

[1] الإبدال ١:٢٩٥، المزهر ١:٢٢٢.

[2] المحتسب ١:٣٤٣، البحر المحيط ٥:٣٠٧.

والآذان، فتميل إلى الأصوات المهموسة لأنها تحقق قدرا مناسبا وكافيا من الإسماع، كما رأينا في قراءة ابن مسعود وأُبي إبدال الحاء المهموسة عينًا وهي صوت مجهور. ونرى إبدال السين المهموسة زايا وصـادا في قوله تعالى: **فَاصدع بِما تُؤْمرُ** [الحجر:٩٤] "فازدع"، وقريبا من هذا ما نسمعه في اللهجة المصرية، "كسبرة": "كزبرة"، وقوله تعالى: **سلقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِداد ٍ** الأحزاب/١٩: "زلقوكم"[1].

الاستنطاء: يعني إبدال العين الساكنة نونًا **إذا** جاورت الطاء، وتنسب هذه اللهجة إلى هذيل، وقيس، والأزد، وأهل اليمن[2] جاء في الحديث: "اليد المنْطِية خير من اليد السفْلى"[3]، قرأ ابن مسعود وأبي بن كعب قوله تعالى: **وآتَاهم تَقْواهمْ** [محمد:١٧] "وأنطاهم تقواهم"، كما قرأ ابن مسعود قوله تعالى: **إنا أَعطَيناك الْكَوثَرَ** [الكوثر:١]

---

(١) اللسان: صدع، سلق، البحر المحيط، ٧:٢٢٠.

(٢) اللسان: نطا، المزهر ١:٢٢١.

(٣) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ٥:٧٦.

ِإنا أَنْطَيناك الْكَوثَرَ [٤] ونجد أن هذا الإبدال يمثل ظاهرة في لهجة بغداد.

نلاحظ في هذه اللهجة أنها اقتصرت على الفعل "أعطى" ومرادفه "أتى" من جهة، كما أن هذه الظاهرة تخرج على قاعدة الإبدال الصوتي التي تشترط في الإبدال التقارب الصوتي في المخرج والصفة بين الصوتين من جهة أُخرى، ويفسر لنا أحد الباحثين هذه الظاهرة قائلاً: "وملاك الأمر في هذه النون أنها لم تكن مقابلة للعين في "أعطى"، وإنما جاءت من أن الفعل "آتى" بمعنى "أعطى"، ثم ضعف الفعل فصار "أتّى" بتشديد التاء، ومعلوم أن فك الإدغام في العربية وغيرها من اللغات السامية يقتضى إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين، كما تقول في العربية: "جندل" وهي من "جدّل"، بتشديد الدال، وهذا كثير معروف[١]

الطمطمانية: تعني إبدال لام التعريف ميما، وتنسب هذه اللهجة إلى طيء والأزد وأهل اليمن. ينص ابن دريد أنه سمع هذه اللهجة في اليمن، فقال: "وكُبار في وزن فُعال،

---

[٤] البحر المحيط ٨:٥١٩.

[١] د. إبراهيم السامرائى، دراسات فى اللغة ٢١١.

وهي لغة يمانية، وأهل اليمن يسمون الرجل الكبير: كُبارا: رجل منهم، وسمعت رجلاً يقول: أم شيخ أم كبار ضرب رأسه بالعصو، أي بالعصا"[١]

يقول ابن هشام: "حكى لنا بعض طلبة اليمن أنه سمع ببلادهم من يقول: خذ الرمح واركب امفرس"، وأنها في الحديث: "ليس من أمبر امصيام في أمسفَر"، أي : ليس من البر الصيام في السفر.[٢]

يعود هذا الإبدال الصوتي إلى انتماء الصوتين اللام والميم إلى أسرة الأصوات المائعة Liquid أو المتوسطة بالإضافة إلى الراء والنون، وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض، ونلاحظ ذلك في اللهجة المصرية في كلمة البارحة التي تنطق إمبارح.

العجعجة: تعني قلب الياء جيما، ونسبها اللغويون إلى قُضاعة التي تقول: "الراعج خرج معج"، أي: الراعي خرج معي، روى عن أبي عبيدة أنه قال: يقال: لا أفعله جدا

---

(١) المزهر ١:٢٥٥، الخصائص ٢:١١، سر صناعة الإعراب ١:٢٣٥.

(٢) المزهر ١:٢٢٣ ، مغني اللبيب ١:٤٨ .

الدهر، في معنى لا أفعل ذلك يد الدهر [٣] كما روى أبو زيد أن بعض بني تميم يقول: "شيرة للشجرة[٤] ونجد هذه الظاهرة شائعة في بعض بلاد الخليج، فنسمعهم يقولون في يامعة جامعة، ودجاج: دياي، ومسجد: مسيد. ويمكن تفسير هذا الإبدال باتحاد الصوتين في الخارج، وهو سقف الحنك الصلب، والصفة لكونهما مجهورين، ويفترقان في أن الجيم من الأصوات التي يجمع في نطقها بين الشدة والرخاوة، أو بين الانفجار والاحتكاك، أما الياء فهي من الأصوات المتوسطه التي تنطق بشيء من الاحتكاك.

التلتلة: تعني كسر حرف المضارعة، تقول: تعمل ، تعملوا، يعمل، وعزاها اللغويون إلى بهراء من عشائر قبيلة قضاعة، وإلى قبائل أُخرى في نجد مثل: قيس وأسد وتميم وربيعة، أما أهل الحجاز مثل: قُريش وهذيل فتقول: تعملوا، ويعمل بالفتح[١]

ولا تزال هذه التَلْتَلَةُ في كثير من اللهجات العربية، فنسمع إنت بدلاً من أنت، فِهم بدلاً من يقرأ، يسمع، وقريبا

---

[٣] الإبدال لأبي الطيب ١:٤٨.

[٤] المصدر السابق.

[١] المزهر ١:٢٥٥، الخصائص ٢:١١، سر صناعة الإعراب ١:٢٣٥.

من هذه اللهجة الوهم: أي كسر الكاف من ضمير المخاطبين المتصل كُم[2] إذا سبق بكسرة أو بياء فتقول: بِكِم في بكُم، وعليكِم في عليكُم، تنسب هذه اللهجة إلى ربيعة وقوم من كلب، وتفسير هذه الظاهرة يعود إلى قانون التوافق الحركي أو المماثلة بين الأصوات المتجاورة إذا تأثرت ضمة الكاف بما قبلها من كسرة أو ياء، فأبدلت كسرة تنسجم مع ما قبلها.

وقريبا من ذلك أيضا الوهم: أي كسر الهاء من ضمير الغائبين المتصل هم[3] سواء سبق بكسرة أو ياء أم لم يسبق بوحدة منهما، وتنسب هذه اللهجة إلى بنى كلب، فيقولون منهم وعنهم وبينهم في منهم وبينهم ،وعنهم.. واللغة الفصحى تُبقى الحركة الأصلية لهذا الضمير وهي الضم، إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء، فتقول بصاحبهم، عليهم في: بصاحبهم، لتحقيق التوافق الحركي.

القُطْعة: أي قطع اللفظ قبل تمامه، يقول الخليل: "والقُطعة في طيء كالعنعنة في تميم، وهي أن يقول: يا أبا الحكا، وهو يريد: يا أبا الحكم، فيقطع كلامه عن إبانة بقية

---

[2] المزهر ١:٢٢٢، اللسان: وكم.

[3] المزهر ١:٢٢٢، اللسان: وهم.

الكلمة[1] ونلاحظ ذلك في اللهجة المصرية في قولهم: "يا ولا" في: يا ولد، "يا محمو" في : يا محمود، "سلْخِي" في: مساء الخير.

لقد كانت هذه اللهجات كثيرة وموزعة -كما رأينا- بين القبائل[2] وظلت آثارها على ألسنتها بعد خروجها من شبه الجزيرة إلى البلاد المفتوحة، وقد سجلها اللغويون بغرض التنبيه على ما يخالف اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، ولعل السبب في عدم ظهور الصفات اللهجِية التي تتمثل في العادات الصوتية للقبائل المختلفة في شمال ووسط وجنوب الجزيرة العربية – يعود إلى أن هذه اللغة التي وصلت إلينا من خلال نصوص الشّعر الجاهلي والقرآن الكريم والحديث الشريف لم تستخدم على المستوى الجمعي الأدبي الذي يتمثل في الخَطابة والشّعر، لقد كانت هذه اللغة لغة نموذجية standard Language أو لغة موحدة مشتركة Common Language نَظَم بها الشّعراء شِعرهم الذي

(1) العين للخليل، ١:١٥٦.

(2) انظر: هذه اللهجات فى: د. إبراهيم فى اللهجات العربية، د. رمضان عبد التواب. فصول فى فقه اللغة، د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي.

ازدهر في القرن السادس الميلادي في وسط الجزيرة العربية وشمالها وجنوبها[1]، كما كانت هذه اللغة المشتركة للعرب جميعا يتخذونها أداة للتعبير، فلم تكن لغة قُريش أو لغة مكة كما يذهب البعض.

يفسر أحد الباحثين سبب وجود هذه اللغة المشتركة قائلاً: "إن الأمة التي تتعدد فيها اللهجات تعمل على إيجاد صورة جديدة من الاستعمال يتجاوز اختلاف اللهجات، وتكون هذه الصورة المشتركة مبنية على إحدى اللهجات الهامة، (كما نرى في دعوة البعض بالنسبة للهجة قُريش)، وقد تكون هذه المحاولة مقصورة على خلق لغة جديدة تتمثل فيها الخواص المشتركة للهجات، وتعمل على إيجاد معيار كتابي في صورة نظام أبجدي ومعجم يضم مفردات اللغة المشتركة، وقد يحدث ذلك في مجتمع لا يعرف الكتابة، كما نرى في اللغة اليونانية التي كتب بها "هوميروس" ملحمته، فقد كانت هذه اللغة لا تمثل لهجة بعينها، إنما هي كانت نتاجا لمجموعة من اللهجات ، كما كانت قبل اختراع الكتابة اليونانية، ولو نظرنا إلى العربية المشتركة في ضوء هذا

---

[1] نولدكه: اللغات السامية، ص ٧٤، ترجمة د. رمضان عبد التواب.

المثل سهل علينا أن نتصور نشأة العربية، وأنها لم تكن لهجة قُريش كما زعم البعض"[١]

كما يحدد لنا صورة اللغة المشتركة من خلال الاستعمال قائلاً: "... إننا يمكن أن نقيس الغائب من أحوال السابقين على الشاهد من أحوالنا، فنحن نستعمل اللغة الفصحى في السياقات الدينية والسياسية والأدبية نطقًا وكتابةً، ونستعمل اللهجة العامية في حياتنا اليومية بين أفراد الأسرة والأصدقاء، وقد كان العربي القديم يفعل ذلك، مع فارق أنه كان يمتلك سليقة الحديث بالعربية الفصحى اكتسبها مع النشأة، ونحن نأخذها بالتعليم والدراسة، وكما رأينا الظواهر اللهجية لدى القبائل العربية قبل الإسلام، نجد اختلاف الفصحى على ألسنة أبناء البلاد العربية نتيجة لعادتهم اللغوية التي اكتسبوها من لهجاتهم الدراجة، فنجد من ينطق الضاد كالدال المفخمة أو كالطاء، ومن ينطق الجيم معطشة كالتي ننطق بها في القاهرة، وإلى جانب هذا الاختلاف في الأداء الصوتي نجد الاختلاف في الأداء التركيبي، فإذا كان

---

[١] د. تمام حسان، الأصول دراسة أبيستمولوجية الفكر اللغوى عند العرب، ص ٧٨، ط بغداد ١٩٨٨.،

المصريون يقولون: فرح به ، فأهل الشام يقولون: فرح فيه.."[1]

إن العربي الذي كان يعيش في العصر الجاهلي مثل العربي الذي يعيش اليوم، كان يعرف الازدواج اللغوي، فذاك كان له لهجة قبلية، وهذا له لهجة إقليمية إلى جانب اللغة الفصحى، ولكل من اللغتين أدوار في حياته، فمن المواقف ما يستعمل فيها اللهجة القبلية، ومنها ما يتطلب الاستعمال الفصيح، كما نفعل الآن، وتختلف الفصحى في نطقها وتراكيبها واستعمال بعض مفرادتها على ألسنة أبناء الوطن العربي، كما كانت تختلف على ألسنة أبناء القبائل العربية قبل الإسلام.

يرى بعض الباحثين أن شعراء الجاهلية الذين كانوا ينسبون إلى قبائل مختلفة، ويتحدثون لهجات مختلفة قد اتخذوا لغة مصطنعة عامة منذ أن كانت الرواية الشفهية هي السبيل الوحيد لذيوع قصائدهم في الناس، وقد ابتعدت هذه اللغة عما تتصف به بعض اللهجات من غرابة وحوشية وظواهر صوتية اندثر كثير منها، كما أن هذه اللغة المصطنعة قد

---

(١) المصدر السابق.

استعملت لغة مشتركة للاتصال بين القبائل، وهي ذات شأن أرفع من لهجات القبائل العربية[1]

لقد ساعدت عوامل عديدة على وجود هذه اللغات الأدبية منها:

- وجود ظاهرة التحالف التي عملت على إيجاد وحدة لغوية بين لهجات القبائل.
- نشأة المدن مثل مكة والحيرة، والأسواق مثل عكاظ التي كانت ملْتَقًى للقبائل المختلفة، فعلمت على توحيد اللغة من جهة، وصقل خشونة اللهجات من جهة أُخرى.
- دور الشّعراء أنفسهم في ترسيخ هذه اللغة الأدبية ونشرها في أنحاء الجزيرة في المدن والأسواق وبلاط المناذرة والغساسنة في العراق والشام شمال الجزيرة، وتخبرنا كتب الأدب واللغة عن رحلات شعراء مثل الأعشى والنابغة وعبيد بن الأبرص،

---

(1) د. عثمان الفريح، لغة القصيدة الجاهلية ص ٥-٦، مجلة جامعة الملك سعود – بالرياض ١٤١٤- ١٩٩٣.

الذين كانوا ينتمون لقبائل ولهجات مختلفة، وكانت لهم لغتهم الشّعرية الواحدة.[١]

يحدد أستاذنا د.خليل نامي الفترة التي تكونت فيها هذه اللغة المشتركة أو اللغة الأدبيه بالفترة الواقعة بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وهذه الفترة التي شهدت اكتمال ونضوج اللغة العربية، كما ارتبطت بظهور الشخصية العربية التي اتخذت الكتابة النبطية في ذلك الوقت[٢] واتسمت بالطابع العربي الأصيل، وهذا خير دليل على أن تكون الشخصية العربية وتكاملها لا يتأتى إلا بتكامل اللغة العربية وسيرها نحو الكمال والنضج.[١]

يقترب أستاذنا د. شوقي ضيف من هذا التحديد قائلاً: "إن الخَط العربي قد تكامل مع أوائل القرن السادس، كما تكاملت الفصحى وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشّعر الجاهلي التي يرجع أقدامها إلى أواخر القرن الخامس،

---

[١] المصدر السابق، ٦: ١١.

[٢] انظر: الفصل الخاص. بنشأة الخط العربي.

[١] د. خليل نامى، دراسات فى اللغة العربية: ص ١٨، انظر أيضاً دراسته بعنوان "أصل الخط العربي وتطوره" مجلة كلية الآداب العدد الأول – المجلد الثالث، ١٩٣٣

فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل وأصبحت لغة أدبية عامة.."[٢].

يتفق معهما المستشرق الإيطالي ناللينو Nallino قائلاً: ".. إذا فحصنا نهضة الشّعر الجاهلي وبلوغه المقام الأسمى، وجدنا تطابق عهد ملوك كندة الذين جعلوا كلمة القبائل المعدية، وكان آخرهم امرأ القيس الشاعر الواقع مماته فيما بين سنتي ٤٥٠، ٥٤٠"[٣]

وإذا كانت آراء الباحثين قد اتفقت بصورة أو بأُخرى على الفترة التي تكونت فيها اللغة المشتركة، إلا أنها قد اختلفت اختلافًا كثيرا في كيفية تكوينها، ويذهب بعض المستشرقين مثل فيشرFischer وهارتمان Hartmann إلى أن العربية المشتركة تمثل لهجة معينة، ولكنهما لم يحددا نسبتها إلى قبيلة معينة، وأن هذه العربية المشتركة ابتعدت عن أصلها اللهجي بطول استخدام الشّعراء لها[١].

---

(٢) د. شوقي ضيف. العصر الجاهلي، ط دار المعارف: ص ١٢٠.

(٣) نشر ناللينو فى مجلة الهلال المصرية عدد أكتوبر عام ١٩١٧ دراسة بعنوان: "كيف نشأت العربية. انظر: الدراسة، ص ٤١-٤٨.

(١) د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٣١.

يذهب البعض الآخر مثل الألماني، نولدكه Noeldeke والإيطالي جويدي Guidi إلى أن العربية المشتركة ليست لهجة قبيلة معينة، وإنما هي مزيج أو خليط من لهجات كانت مستعملة في نجد والمناطق المحيطة بها.[٢].

ويرى المستشرق الفرنسي بلاشير Blachere أيضا هذا الرأي قائلاً: ".. إن هذا اللِسان الشعري كما نراه في النصوص الشعرية التي نقلها الرواة المسلمون في القرنين الثامن والتاسع هو لغة وسطى لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها[١].

يقترب من هذا الرأي نالليلنو وينسب اللغة المشتركة إلى إحدى اللهجات النجدية قائلاً: "..إن العربية الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية، وتهذبت في مملكة كندة وعصرها، وأصبحت اللغة الأدبية السائدة"[٢]

---

[٢] د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٣١.

[١] تاريخ الأدب العربي، ١:١٠٠، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، ط دار الفكر، دمشق.

[٢] مجلة الهلال، عدد أكتوبر ١٩١٧، ص ٤٧.

يؤكد رابين Rabin الدور الهام لمملكة كندة في نشأة اللغة الأدبية المشتركة قائلاً: "لم يحدث تقدم في السنوات الحاضرة لحل معضلة اللغة الأدبية المشتركة، ليس لدينا من المادة العلمية ما يجعلنا نضعها تماما في أي مكان غير المنطقة العامة الشاملة لنجد واليمامة والجزيرة الفراتية، وإن مكانة الحيرة مركزا قديما للشعر، وإن أقدم مجموعة شِعرية كانت مقرونة بحروب البسوس التي دارت رحاها في منطقة نهر الفرات، كل ذلك يعطي أفضلية لذلك المكان من تلك المنطقة العامة، في مقابل ذلك فإن امرأ القيس – وهو أحد الشّعراء الأوائل – كان من كندة، وكما يبدو فإن مملكة كندة كانت المنطلق الطبيعي لظهور فن عربي قومي.[١]

نجد رأيا ثالثًا يمثله بعض المستشرقين مثل لاندبرج Landberg وفوللرز Vollers ومارسيه Marcais ينص على أن هذه اللغة المشتركة لم تكن لهجة أو لغة الكلام أو

---

[١] نشر حاييم رابين دراسة بعنوان: "نشأة العربية الفصحى The bgining of classical Arbic وقد ترجم هذه الدراسة د. عثمان الفريح الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرياض، ونشرها فى مجلة "العصور" التي تصدر عن دار المريخ، المجلد السادس – الجزء الأول، يناير ١٩٩١، انظر: الدراسة ص ٢٠١.

الحديث اليومي للقبائل، وإنما كانت من صنع الشّعراء، ويقارنها مارسيه باللغة اليونانية الهومرية المصنوعة[٢].

يقترب المستشرق الألماني بروكلمان من هذا الرأي، فقد ذهب إلى أن الفصحى، لم تكن لغة جارية في الاستعمال، بل كانت لغة فنية فوق اللهجات، وإن غذتها جميع اللهجات[٣].

إن هذا الرأي يجعل العربية لغة ميتة لم تستخدم إلا في الشّعر، وتاريخ الشّعر والشّعراء قبل الإسلام ينفي ذلك تماما عن العربية المشتركة التي كانت متداولة ومفهومة بين القبائل العربية المختلفة، وبينما يرى لاندبرج أن القوالب النحوية لهذه اللغة من صنع الشّعراء أنفسهم، يرى فوللرز أن القواعد النحوية والإعراب من صنع النحاة واللغويين، ويفرط في الرأي ويزعم أن القرآن لم يكن معربا، وأنه كان يقرأ وفقًا للهجة قُريش الدراجة غير المعربة، أما قراءته وفق معايير

---

(٢) نشأة العربية الفصحى، ص ٢٠١.

(٣) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١:٤٢، ط دار المعارف.

أو قواعد الفصحى فقد كان عملاً متأخرا من صنع القراء والنحاة، وقد رفض هذا الرأي كثير من المستشرقين[1].

يقترب هذا الرأي الثالث من الواقع اللغوي في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت من جهة، ولكنه يختلف معه أيضا من جهة أُخرى، أما بالنسبة لاتفاق هذا الرأي مع الواقع اللغوي لشبه الجزيرة فمن المعروف أن هذه اللغة المشتركة لم تكن مستخدمة على المستوى الفردي أو التعامل اليومي للقبائل في الجزيرة العربية، وإنما كانت مستخدمة على المستوى الجمعي عند الشّعراء والخَطباء، فهذه اللغة لم تكن لغة تخاطب وتعامل يومي بقدر ما كانت لغة أدبية، ولم تكن لغة سليقة بمعنى أن كل العرب كانوا يتحدثون بها بلا وعي بخصائصها، ودليلنا على هذه الروايات الكثيرة التي تشير إلى اللحن، أي الخَطأ الذي كان يقع فيه كثير من العرب[1]، أما إذا تكلم هؤلاء الشّعراء والخَطباء فيما بينهم داخل قبائلهم، فإنهم كانوا يتوسلون بلهجاتهم الخاصة ويتحدثون وفقًا لعاداتهم الصوتية، ولكن بالرغم من ذلك فإن الشواهد تدلنا

---

(1) رابين، نشأة اللغة العربية الفصحى، ترجمة د. عثمان الفريج، مجلة العصور، ص ١٩٧، م٦ ج١، يناير ١٩٩١.

(1) د. إبراهيم أنيس، فى اللهجات العربية، ص ٨٩.

على أن هذه اللغة كانت مفهومة خاصة وقد أكسبها الإسلام أهمية ومكانة بالغتين عندما أصبحت لغة القرآن، ومن الثابت تاريخيا أن الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة وهو وأصحابه لم يجدوا صعوبة في التواصل اللغوي مع أهلها، كما نجد الأمر نفسه بالنسبة للقبائل المختلفة التي أرسلت وفودها في السنة التاسعة للهجرة، (عام الوفود) لتأكيد إيمانها بالدين الجديد.

كما نجد أن هذا الرأي الثالث يختلف مع الواقع اللغوي للغات السامية التي عرفت الإعراب الذي كان يعتمد على نفس الحركات والعلامات الموجودة في العربية وغيرها من اللغات السامية، مثل: الأكادية والأجرويتية، بل إن الإعراب كان من أهم السمات التي لاحظها اللغويون في هذه اللغة المشتركة لدى بعض القبائل التي أخذوا عنها اللغة، وقد كان الإعراب انعكاسا للواقع اللغوي الحي في الجزيرة العربية، وليس من الممكن أن ينتظم استخدام النهايات الإعرابية في الشّعر الجاهلي والقرآن الكريم على هذا النحو المطرد لو أن هذه اللغة كانت مصنوعة، يقول المستشرق الألماني فك Fuck : " ..إن أشعار عرب البادية – من قبل العهد الإسلامي ومن

بعده – تُرينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان، كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا- حتى القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي على الأقل – يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم، تدل على أن التصرف الإعرابي كان بالغًا أشده لذلك العهد.. أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضا على غاية التصرف الإعرابي، فهذا أمر وارد، وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشّعر، الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته، إلا أن مواقع كلمات القرآن الاختيارية لا تترك أثرا للشك فيه كذلك، أنظر مثلاً قوله تعالى: **﴿إِنما يخْشَى الله مِن عِبادِهِ الْعلماء﴾** [فاطر:٢٨] وقوله تعالى: ﴿إِن الله بريء مِن الْمشْرِكِين ورسولُه﴾ [التوبة:٣]، وقوله تعالى: ﴿وإِذَا ابتَلَى إِبراهِيم ربه﴾ [البقرة:١٢٤] فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيا صحيحا، يضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في قوله تعالى: ﴿وهذا لِسان عربِيّ مبِين﴾ [النحل:١٠٣] وصريح من هذا أنه لم يقم محمد ﷺ ومعشره فرق هام بين لغة القرآن ولغة

العرب، أي قبائل البدو، ولا يمنع ذلك أنه كانت هناك فروق بين لهجة مكة ولهجات البادية. [١]،[٢]

---

[١] العربية، يوهان فك، ص ٤٢٣، ترجمة .د عبد الحليم النجار، الخانجي ١٩٥١.

[٢] ربما من المناسب هنا أن نشير غلى رأى د. إبراهيم أنيس فى الإعراب، أى تغيير أواخر الكلمات Ending case حيث ينص على أن الإعراب ليس عنصراً من عناصر بنية الكلمات، أى ليس مرتبطاً بالمعنى كما قال النحاة، ويتمثل هذا الإعراب كما يقول فى تحريك أواخر الكلمات لوصل بعضها ببعض، وقد دعا إلى ذلك نظام المقاطع وتواليها فى الكلام المتصل، وهناك عاملان يعينان نوع الحركة هما:

الأول: طبيعة الصوت المتحرك أو نوعه.

الثاني: الميل لتحقيق التجانس أو الانسجام الحركي بين الحركات المجاورة.

والإعراب هذا المعنى- كما يقول – صفة من صفات اللغة العربية النموذجية وهو بعيد عن ذلك الشئ الذي وضعه النحاة منذ أواخر القرن الأول واضطرب على أيديهم.

يعتمد د. إبراهيم أنيس فيما ذهب إليه على رأى انفرد به قطرب (ت ٢٠٦) تلميذ سيبويه، فى تفسير الإعراب فى العربية ما يلي: "..وإنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم فى حالة الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً، لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا أمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام، إلا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن، ومتحركين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة، لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون، وفى كثرة الحروف المتحركة يستعجلون، وتذهب المهلة فى كلامهم، فجعلوا الحركة عقب الإسكان".

تقف هذه الآراء الثلاثة للمستشرقين أمام رأي رابع ينسب اللغة المشتركة إلى لهجة قُريش أو أهل مكة، وقد ذهب إلى هذا الرأي بعض القُدماء والمحدثين بتأثير الشعور الديني، والأخذ بظاهر الآية القرآنية

وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه

[إبراهيم:٤] فاللِسان أو اللغة التي نزل بها القرآن الكريم هي لغة قبيلة قُريش، التي ينتمي إليها الرسول، وما روي عنه ﷺ ونقله ابن فارس وغيره: "أنا أفصح العرب بيد أني من قُريش"(١)

انظر: د. إبراهيم أنيس، أسرار اللغة، الفصل الخاص بقصة الإعراب، ط ٣، الأنجلو المصرية، ص ١٨٣: ٢٥٨، ورأي قطرب في الإيضاح في علل النحو ٧٠، تحقيق د. مازن المبارك، ص ٧٠.

(١) انظر: الصاحبي أحمد بن فارس، ص ٢٨،

وانظر: ما ذكره المحدث إسماعيل بن محمد العلجوني (ت ١١٦٢هـ) قائلاً: الحديث معناه صحيح لا يعرف له إسناد، رواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً بلفظ "أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان سعد بن بكر"، ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بلفظ: "أنا أعرب العرب، ولدت في بني سعد، فإنى يأتيني اللحن"، ومثله "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش "(كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تصحيح أحمد القلاش، ص ٢٣٢، نشر: دار التراث بالقاهرة).

يستند أصحاب هذا الرأي إلى ما روي عن عثمان – رضي الله عنه – أنه أمر اللجنة التي قامت بتدوين المصحف قائلاً: "إذ اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بِلسان قُريش؛ فإنه نزل بِلسانهم"، ففعلوا [٢]، ويبدو أن هذا الاختلاف لم يكن اختلافًا لهجيا في النطق وإنما اختلاف إملائي في الكتابة، ومن أمثلة هذا الاختلاف كتابة كلمة التابوت بالتاء المبسوطة أو المربوطة (تابوه) فأهل المدينة يكتبونها مربوطة، وقُريش تكتبها مبسوطة[١].

يعتبر الفراء (ت ٢٠٧هـ)، من أوائل من ذهب إلى هذا الرأي قائلاً: كانت العرب تحضر الموسم كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقُريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، وصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ"[٢].

---

[٢] انظر: البخاري ٣:٢٢٤- ٢٢٥، السيوطي، الإتقان فى علوم القرآن ١:٧٩.

[١] من المعروف أن قرار عثمان – رضي الله – عنه بتدوين القرآن يرجع إلى زيادة وجوه الاختلاف فى قراءة القرآن فى الأمصار التي ذهب إليها المسلمون من الصحابة، فعمل على القضاء على هذا الاختلاف الذي كان يهدد وحدة الأمة الإسلامية، فأمر بتدوين النص القرآني بالاعتماد على لسان قريش.

[٢] السيوطي، المزهر ١:٢٢١.

بشير أحمد بن فارس (ت ٣٩٥) في نص طويل إلى رأي القُدماء في تفوق لغة قُريش قائلاً: "أجمع علماؤنا بكلام العرب وبالرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم ومحالهم أن قُريشًا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة ﷺ فجعل قُريشًا قطان حرمه، وجيران بيته الحرام وولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قُريش في أمورهم، وكانت قُريش تعلمهم مناسكهم، وتحكم بينهم، ولم تزل العرب تعرف لقُريش فضلها عليهم وتسميهم "أهل الله" وتحكم بينهم؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام، وكانت قُريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نَحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، وكسكسة ربيعة، ولا

الكسر الذي تسمعه من أسد مثل: تِعلمون ونِعلم، ومثل شعير وبعير.."[1].

من القُدماء الذين ذهبوا إلى هذا الرأي أبو نصر الفارابي (ت ٣٥٠) الذي قال: "كانت قُريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللِسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس"[1]، وابن خلدون (ت٧٨٤) الذي يقول: "كانت لغة قُريش أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قُريش كان الاجتماع بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية.."[2]، [3].

ونجد من الباحثين المحدثين من يوافق القُدماء فيما ذهبوا إِلَيهِ. ومن هؤلاء د. طه حسين الذي يقول: "..فقد

---

[1] الصاحبي، ص ٢٣، وانظر النص فى: المزهر ١:١٢٦.

[1] الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق د. محسن مهدي، ص ١٤٧، والنص بالمزهر ١:٢١١.

[2] المقدمة، الفصل الثاني والثلاثون، ص ٤٠٩، القسم السادس.

[3] تعني الفصاحة فى هذه النصوص: الإبانة والوضوح، وهى صفة يوصف بها المتكلم أو الكلام، ولقد اشتهرت قريش بحسن الإبانة عما فى نفوسهم وجودة انتقائهم لكلماتهم.

أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام، واتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن القرآن نزل بلغة قُريش.."، ويستطرد قائلاً: "..وقد يكون من التكلف أن يجمع العرب كافة على أن لغة القرآن هي لغة قُريش، وألا يظهر في العصر الإسلامي الأول ولا في أيام بنى أمية ولا في أيام بنى العباس من ينكر هذا أو يجادل فيه، برغم ما كان من الشعوبية الأعجبية زمن الشعوبية الحِميرية ومن الخصومات السياسية بين قُريش وغيرها من قبائل مصر، ثم يزعم زاعم أن هذه اللغة ليست لغة قُريش، وإنما هي لغة قبيلة أُخرى مهما تكن هذه القبيلة[١].

يرى عباس محمود العقاد أن لغة قُريش كانت لغة العرب لأسباب دينية، فيقول: "إن وحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب كرامة لقُريش أو لأرض الحجاز، ولكنها خليقة أن تسري إلى نفوس العرب من يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من العجم على الخصوص، والكعبة هي الجوار الوحيد الذي يشعر العربي عنده هذا الشعور، فهم في الشام

---

[١] فى الأدب الجاهلي، ص ١٠٥.

رعايا لدولة الروم، وهم في الحيرة رعايا لدولة الفرس، وهم في اليمن أتباع للحبشة أو لفارس[٢].

نجد باحثًا ثالثًا يرى هذا الرأي أيضا، فيقول: "..لا يذكر التاريخ أن قُريشًا أنجبت شعراء كبارا بصفتها القبيلة التي عنها انبثقت اللغة الفصحى، ذلك أن التاريخ أثبت أن تفوق لهجة على اللهجات الأُخرى يرتبط بعضها فعلاً بوجود شُعراء وكُتاب عظام بين أفرادها، إلا أن السلطة الدينية التي تحملها قُريش بصفتها سادنة الكعبة قبل الإسلام، وما كان لها من عظمة اقتصادية وسياسية، وما أفادته لغويا من زادٍ، أتاها من اللهجات الأُخرى عوض عليها النقص في الإنتاج الشّعري وجعلها سيدة المصير الجديد الذي كان يترقب بلاد العرب، والذي تمثل خاصة في أن الرسول ﷺ من قُريش" ويختم الباحث كلامه قائلاً: إن العربية قد اختصت بأعظم لهجة لأقوى قبيلة، وهي قبيلة قُريش، وأن ثمة تطابقًا بينها وبين لغة القرآن.."[١]

---

[٢] عباس محمد العقاد. مطلع النور ، ص ٤٦.

[١] د. محمد المنجي الصياد التعريب وتطبيقه فى الوطن العربي، ص ٤٠٠١. ط مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٩٨٤.

وكما سنرى، ليس صحيحا أن كل القُدماء قد رأوا في لغة قُريش أنها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، مثل القرطبي المفسر الذي لا يرى دليلاً على أنه نزل بلهجة قُريش لأن ثمة قراءات مختلفة في القرآن، وكلمات ليست من لهجة قُريش، إلى جانب بعض الظواهر اللغوية التي سنشير إليها بعد قليل مثل الهمز والإدغام، فقد كانت قُريش تسهل الهمز وتفك الإدغام، ورأي القرطبي أن كلمة "عرب" التي جاءت في أكثر من آية قرآنية يجب أن تُفَسر على أنها اسم لجميع القبائل العربية في مقابل لفظ "أعجمي" في مثل قوله تعالى: إنا جعلناه قُرآنًا عربِيا لَعلكُم تَعقِلُون [الزخرف:٣] وقوله تعالى: ولقد نَعلَم أنما يعلِّمه بشَر ِلسان الِذين يلْحِدون ِإلَيهِ َأعجمِي وهذا ِلسان عربِي مبِين [النحل:١٠٣][1].

ومن هذا القبيل ما يرويه الجاحظ عن بعض أهل مكة مع أحد الشّعراء المعاصرين له قائلاً: ".. قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة، فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة، فضعوا

[1] القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن ١:٢٣

القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون القدر: برمة، وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول: قِدر، ونجمعها على قُدور، وقال الله عز وجل

وجِفَانٍ كَالْجوابِ وقُدورٍ راسِياتٍ [سبأ:١٨]

ويستطرد الجاحظ قائلاً: "فعدد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا.."[١]

وإذا كان بعض القُدماء مثل الفارابي قد رأي قُريشًا كانت أفصح العرب كما سبق أن أشرنا، فإن ما يقوله هنا يناقض ما ذهب إِلَيهِ آنفًا، يقول الفارابي: "..إن الذين نُقِلَت عنهم العربية وبهم اقتُدِيّ وعنهم أخذ اللِسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا ومعظمه، وعليهم اتُكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .." ويستطرد قائلاً: "وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قطَ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا جذام،

---

[١] الجاحظ، البيان والتبيين ١:١٧.

لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد، لمجاورتهم أهل الشام، ولا من تغلب، ولا من بكر، لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن، لمخالطتهم للهند والحبشة.."[1].

لقد كانت قُريش - التي تسكن مكة تشتغل بالتجارة - من أهل الحضر لا من أهل المدر، كما كان يسكنها ويفد عليها الأعاجم من الفرس والروم والأحباش وغيرهم[2]، وهذا من شأنه أن يفسد اللغة طبقًا للقاعدة التي قررها الفارابي وغيره من اللغويين، فقُريش وأهل مكة لا يؤخذ عنهم اللغة بهذا المفهوم.

إن الحديث المشهور: "أُنزلَ القُرآن على سبعةِ أَحرفٍ"[3]

[1] الفارابي، الحروف، ص ١٤٧، والنص بالمزهر ١:١٢٨.

[2] عرفت مكة من هؤلاء الذين أسلموا: سلمان الفارسي، صهيب الرومي، بلال الحبشي.

[3] جاء الحديث بروايات مختلفة فى كتب الحديث الستة، وبلغت خمسا وعشرين رواية أورد معظمها الطبري في تفسيره ١:٢١، ولا يعنى عدد سبعة مفهوم العدد، ولكنه يعنى الكثرة والتعدد فى اللغات السامية، فى مثل قوله تعالى: "كمثل حبة أنبتت سبع سنابل" [البقرة:٢٦١] وقوله تعالى: "إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر

دليل على أن القرآن لم ينزل بلهجة قُريش يرى ابن قتيبة (ت ٢٧٦) أن مصطلح سبعة أحرف يعني سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن، فالمراد بالحرف هنا: اللغة، وأن عدد اللغات سبعة لا تتوارد على الكلمة، ويأتي ابن قتيبة بوجوه الخلاف في القراءات ويلخصها في سبعة وجوه، ويستطرد قائلاً: "كل هذه الحروف كلام الله تعالى، نزل به

الله لهم" [التوبة :٨٠] وإلى هذا أشار ابن الجزري (ت ٨٣٣) بقوله: "وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل المراد بالسبعة التيسير، وأن لا حرج عليهم فى قراءته بما هو من لغات العرب، من حيث إن الله تعالى أذن لهم فى ذلك.. (النشر فى القراءات العشر ١:٢٥).

أما معنى الحرف فى الحديث فقد حدد له الطبري ثلاث دلالات:

الأولى: اللغة، يقول: الأحرف السبعة هو ما قلناه من أنه الألسن السبعة أو اللغات السبعة.

الثانية: القراءة يقول: ومن قرأ بحرف أُبي أو بحرف زيد، أو بحرف بعض من قرأ من أصحاب رسول الله ﷺ بعض الأحرف السبعة، فلا يتحولن عنه إلى غيره رغبة عنه.

الثالثة: الوجه: يقول: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا جرير عن غيره عن إبراهيم، عن عبد الله قال: "من كفر بحرف من القرآن أو بآية منه فقد كفر به كله ". الطبري ١:٤٧، ٥٢، ٥٥.

فإذا كان معنى الحرف كما بين ابن جرب هو اللهجة والقراءة والوجه، فالفرق بينها جميعا هو التباين فى العناصر الصوتية أو الدلالية، فاللهجة: تختلف بما تضمن من خصائص صوتية، والقراءة تتميز عن غيرها بمجموعة من الاختلافات الناشئة عن اختلاف الوجوه، والوجه فى القراءة المباين لآخر صوتًا ودلالة.

الروح الأمين على رسول الله ﷺ، فالهذلي يقرأ: (عتى حِين) يريد: حتى حِين، لأنه هكذا كان يلفظ بها ويستعملها، والأسدي يقرأ (تعلمون، وتعلم) والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز، والآخر يقرأ: (وإِذَا قِيلَ لَهم وغِيض الماء) بإشمام الكسر مع الضم، و(مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام، وهذا ما لايطوع به كل لِسان".

ثم يعلل هذه الرخصة في القراءة قائلاً": ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً ونشئًا وكهلاً لاشتد عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل لِلسان وقطع للعادة.."[1]

يرى ابن جرير الطبري (ت ٣١٠) أن الأحرف السبعة سبع لغات أو سبعة ألسن من بين ألسن العرب التي يعجز عن إحصائها[2]، وأن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي سبع لغات في حرف واحد، وكلمة واحدة باختلاف واتفاق المعاني، كقول القائل: هلُم وأقبل، وتعالَ وإلي

---

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص ٢٦ – ٢٨، تحقيق السيد أحمد صقر.

[2] تفسير الطبري، ١:٤٦: ٤٧.

وقصدي ونحوي وقربي، ونحو ذلك، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق، وتتفق فيه المعاني وإن اختلفت بالبيان به الألسن.[٣] ونلاحظ هنا أن الطبري يخالف ابن قتيبة في أن الأحرف السبعة لغات (لهجات) تكون في الكلمة الواحدة، ونجده يتساءل في موضع آخر: "فإن قال قائلٌ: فهل لك عِلْم بالألسنة السبعة التي نزل بها القُرآن؟ وأي الألسن هي من ألسن العرب؟" ويجيب قائلاً:".. وقد قيل إن خمسة منها لعجز هوازن واثنتين منها لقُريش وخزاعة..[١].

ويروي ابن فارس (ت٣٩٥) بإسناد يرتفع لابن عباس فيقول: "نزل القرآن على سبعة أحرف". أو قال: "بسبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن، وخمس قبائل أو أربع منها: سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف"[٢]

جاء في لِسان العرب لابن منظور (ت ٧١١): "قال أبو عبيد وأبو العباس: نزل القرآن على سبع لغات من لغات العرب، قال: وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة

---

[٣] المصدر نفسه ١:٥٧ : ٥٨.

[١] المصدر نفسه، ١:٢٣.

[٢] الصاحبي، ص٨.

أوجه، هذا لم يسمع به، قال: ولكن يقول: هذه اللغات متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قُريش، وبعضه بلغة سائر أهل اليمن، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة هذيل، وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحد..[٣]،[٤]

نستنتج من هذا الحديث والنصوص السابقة أن ثمة رخصة كانت من باب التوسعة والتيسير في ظروف معينة، ولهؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من القبائل المختلفة التي كانت لهجاتها تختلف عن لهجة قُريش.

١. **يرى الدكتور عبد الصبور شاهين – من خلال الروايات المختلفة للحديث – أن هذه الرخصة كانت بعد أن هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وبالتحديد كان ذلك خلال السنة التاسعة للهجرة، وهي السنة التي شهدت اندفاع العرب من كل أنحاء الجزيرة، نحو المدينة يعلنون إسلامهم كما يصوره قوله تعالى: ﴿إِذَا**

---

[٣] اللسان: حرف.

[٤] اصطلح اللغويون القدماء على الحرف بدلاَلة الصوت الهجائي، لأنه كل صوت هو جانب من جوانب الكلمة، فالحرف هو الطرف أو جانب الشيء، فحرفا الرأس جانباه، والحرف: الأداة التي تسمى الرابطة لأنها الحد الذي يربط بين الاسم والفعل ويلتقي عنده جانبا الكلام، والحرف: الوجه الذي تقرأ به الكلمة فى القرآن ، والحرف: اللغة – أى اللهجة – التي تتكلم بها قبيلة من القبائل كما يظهر لنا من هذه النصوص.

جاءَ نصر اللهِ والفَتح ورأيت الناس يدخلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفْواجا [النصر: ١، ٢] هذا يعني أن الرخصة كانت لأقل من عامين في حياة الرسول ﷺ الذي أُلْحِق بالرفيق الأعلى في ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة[١].

كما يرى الدكتور عبد الصبور شاهين استنادا، لما جاء لدى الطبري، أن هذه الرخصة قد انتهت عندما جمع عثمان – رضي الله عنه – القرآن، وكتب المصحف، فجمع الناس على حرف واحد دون ما عداه من هذه الحروف الستة الباقية، فقراءة القرآن بالحروف كانت رخصة موقوتة على عهد الرسول ﷺ لظروف انتهت بعمل عثمان الذي كان يهدف إلى تقريب وجوه القراءات التي كانت تُتْلى في الأمصار المختلفة وكادت تعصف بوحدة الجماعة، كما كان عمل عثمان يهدف إلى نشر النص القرآني بلسان قُريش[٢]، فزالت الرخصة بزوال الظروف حين ألف الناس القرآن،

---

(١) د. عبد الصبور شاهين، تاريخ القرآن، ص ٩٠، ط دار الاعتصام، ١٩٩٨.

(٢) المصدر نفسه. ص ١٧٣، الطبري ١: ٦٤.

وجرت ألسنتهم به على نحو ما جاء في مصحف عثمان.[٣] [٤].

وإذا كنا قد رأينا أستنادا إلى هذا الحديث المشهور أن القرآن الكريم لم يترك بلغة قُريش، فإن بعض المحدثين يرى أن اللغة المشتركة التي نزل بها القرآن لم تكن لغة قُريش، ويستند إلى أدلة أوردها، من هؤلاء المستشرق الإيطالي نالينو في دراسته التي سبق أن أشرنا إليها[١]، ويقول فيها: ".. أننا إذا أمعنا النظر في دلائل القائلين بأن العربية (التي نحن بصددها) لغة قُريش وعرضناها لمحك المنتقد، وجدنا فيها ضعفًا ظاهرا، فإنهم استدلوا بوفود الشّعراء والخَطباء من كل فج إلى سوق عكاظ، وما انتبهوا إلى ما هو مشهور مجمع عليه من أن عكاظ إنما اتخذت سوقًا إلى عهد قريب

---

[٣] د. عبد الصبور شاهين: ص ٩٩، تاريخ القرآن.

[٤] لقد زالت آثار هذه الرخصة من لسان المجتمع المسلم، وبقيت حبيسة فى كتب القراءات التي أثبتت القراءات الصحيحة والشاذة، فكانت القراءات السبع التي جمعها وأصلها ابن مجاهد (ت: ٣٢٤) فى كتاب السبعة فى القراءات، انظر أيضاً: = = التيسير فى القراءات السبع، لأبي عمرو الدانى (ت: ٤٤٤)، وأضيف إليها ثلاث قراءات لتكتمل عشرا، ثم اختيرت أربع زائدة من الشواذ منسوبة إلى أئمة القراءة فى الأمصار الإسلامية، انظر: ابن الجزري، النشر فى القراءات العشر.

[١] انظر. ص ١٢، ١٣ من الدراسة.

من الإسلام، وكان امرؤ القيس قد ظفر من مدة بقصب السبق في ميدان الشّعر بالعربية الفصحى، واستدلوا بانتقاء قُريش ما حلا في الذوق وخف على السمع من لغات العرب ولا سيما من قوم قَلت الآداب فيهم، وهو من الأمور المخالفة لنواميس تَكَون اللغات ونموها، واستدلوا بأن قُريشًا كانت أفصح العرب، وما رأوا أنه قول لا أصل تاريخي له، وتناقضه روايات أُخرى متعددة منقولة في كتب اللغة والحديث، فإن كانت قُريش أفصح العرب، فلماذا نُقِلَت اللغة عن غيرها؟ فبدل أن يستشهد النحاة واللغويون بقُريش اقتبسوا العلم من أشعار الجاهلية أو عربان البادية؟ لماذا لم يسأل المفسرون أهل مكة عن غريب القرآن، لو كان الترتيل بلغة قُريش؟ وإنما استفادوا من قديم الشّعر غير القرشي، كما يتضح من كتب اللغة وتفسير الطبري، ومما جاء معزوا إلى ابن عباس في النوع السادس والثلاثين من كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ثم أليس من المستبعد بل من المحال ارتقاء العربية إلى أوج كمالها في قبيلة كاد لا ينبغ فيها شاعر مشهور ولا خطيب مذكور، دون القبائل المتفق على فوزها بالقدم المعلى من البلاغة والشّعر؟ فلا شك للمتَروي في هذه

المسألة ترويا منصفًا خاليا عن الأغراض أن الناس ما ذهبوا إلى القول بفضل لغة قُريش على غيرها من لغات العرب إلا حبا، وإكراما لقبيلة النبي ﷺ ، وأنهم أنفسهم لم يعملوا به في مباحثهم اللغوية.. "[١].

يذهب المستشرق الفرنسي بلاشير إلى ما ذهب إِلَيهِ نالينو قائلاً: "..إنه غير معقول أن تظل لغة مدينة تجارية كمكة التي هي أيضا مركز للحج السنوي في معزل عن التأثيرات الخارجية، فقد كانت العناصر التي شكلت قوام سكان مكة على غاية من المزج والاختلاط" ثم يتساءل قائلاً: "ثم ما هو البرهان الذي نملكه على تفوق اللغة القُرشية في شبه الجزيرة قبل ظهور القرآن؟ "[١]

يرى الدكتور تمام حسان ما ذهب إِلَيهِ نالينو وبلاشير ويرفض ما ذهب إِلَيهِ كثير من القُدماء والمحدثين من اللغة

---

[١] مجلة الهلال، عدد أكتوبر ١٩١٧، ص ٤٤: ٤٥.

[١] تاريخ الأدب العرب، ١:٩٨ : ٩٩، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، ط دار الفكر دمشق ١٩٧٢.

المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم كانت لغة قُريش، وما استندوا إليهِ من حجج تفندها حقائق منها:[٢]

١- أن الذين زعموا أن لهجة قُريش غلبت على لهجات القبائل الأُخرى، وأصبحت لغة مشتركة، لا يقدمون دليلاً تاريخيا واحدا، إنما يعتمدون على عاطفة دينية.

٢- إن القرآن الكريم نزل بِلسانٍ عربي مبِين الشّعراء/ ٩٥، واللِسان المبِين لم يكن لِسان قُريش، وإنما لِسان العرب جميعا، أي لغتهم، ولو كانت اللغة المشتركة التي وصلتنا من خلال الشّعر والنص القرآني في أصلها لهجة قُريش، وكانت أصفي لِسانًا لأشاد القرآن بها، فاللِسان عربي وليس قرشيا بنص الآية.

٣- لم يكن الرسول ﷺ يرى في لهجة قُريش أنها لهجة العرب جميعا، ومن ثم فقد كان يخاطب أبناء القبائل بلهجات قبائلهم، مشيرا بذلك إلى أن هذه اللهجات لها من الفصاحة ما للهجة قُريش.

---

[٢] د. تمام حسان، الأصول – دراسة أيستمولوجية للفكر اللغوى عند العرب، ص ٧٤ : ٧٦، ط بغداد ١٩٨٨، وقد تصرفنا فيما ذكر الدكتور تمام من هذه الحقائق وأضفنا إليها.

٤- لم تدخل قُريش ضمن القبائل التي حددها النحاة واللغويون للأخذ عنها، بل لم يقبلوا الأخذ من قُريش لاختلاطهم بالأجانب.

٥- لم يسجل لقُريش نتاج شعري، ولم يظهر فيها شاعر جاهلي فحلٌ كما رأينا لدى القبائل العربية الأُخرى.

٦- نشأة الرسول ﷺ في بنى سعد بن بكر وهي من عليا قبيلة هوازن، فقد كانت قُريش ترسل أبناءها لبنى سعد لما تمتعت به من سلامة اللغة، فالفصاحة هنا أولى بها بنو سعد من قُريش، وتأتى هذه الآية الكريمة:

وما أرسلنَا مِن رسولٍ إلا بِلسان قَومِهِ لِيبين لَهم

[إبراهيم:٤] لتفسر الآية السابقة (أنظر:٢)، فإن قومه هنا هم العرب جميعا لا قُريش فقط، فقد أخبر النبي ﷺ عن فصاحته وعزاها إلى نشأته في قبيلة بنى سعد، فقال: "أنا أفصح العرب، بيد أني من قُريش ونشأت في بني سعد.. "[1]، [2]

---

[1] الحديث صحيح فى معناه، ولكن لا يعرف له إسناد، وجاء بروايات مختلفة لم تثبته كتب الحديث الستة، رواه الطبراني، عن أبى سعيد الخدري.

٧- أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وتعددت قراءاته، وكلها مروي بالسند الصحيح عن النبي ﷺ ، وفي أكثر هذه القراءات ظواهر لغوية لم تشتمل عليها لهجة قُريش.

٨- تميزت لهجة قُريش بخصائص لم تشع في اللغة التي وصلتنا من خلال الشّعر والقرآن، فعلى سبيل المثال: تحقيق الهمزة في الفصحى أشيع من تسهيلها، وقد تحقق هذا في القرآن، فإذا عرفنا أن قُريشًا كانت تسهل الهمز تبين لنا أن اللغة الفصحى المشتركة ليست لهجة قُريش فقط، بل هي لغة العرب جميعا.

انظر: كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني الجراحي ١:٢٣، الحِلي علي بن برهان الدين: إنسان العيون فى سيرة الأمين، المأمون، المعروف بالسيرة الحلبية، ١:٩٩. المزهر للسيوطي ٢:٢٤٦.

(٢) كان من عادة العرب فى البيئات المتحضرة فى الجزيرة استرضاع أبنائهم فى البوادي حرصاً على سلامة ألسنتهم، أى يرتضعون لبان الفصاحة مع غذاء المراضع الإعرابيات، فقد استرضع الرسول ﷺ فى بنى سعد، وقد استمر هذا التقليد وحرص عليه الخلفاء الأمويون، روى عن عبد الملك بن مروان قوله: أضر بنا حب الوليد. يعنى ولده لأنه لمحبته له أبقاه مع أمه ولم يسترضعه في البادية مع الإعراب، فنشأ لحانًا لا عربية له، أما أخوه سليمان فقد استرضع في البادية مع الإعراب فصار عربيا غير لحان. انظر : السيرة الحلبية، ١:٩٩.

لقد خالفت لهجة قُريش هذه اللغة المشتركة في بعض الظواهر اللهجية، بينما اتفقت مع بعض اللهجات الأخرى التي ذكرها القُدماء، ومن هذه الظواهر التي خالفت فيها لهجة قُريش اللغة المشتركة – كما ذكرنا – تسهيل الهمز، فبينما كانت قبائل تميم وأسد وطيء وغيرها تحقق الهمز كانت قُريش تترك الهمز في مثل هذه الكلمات: قرأت، بئر فأس، رأس، فتقول: قريت، بير، فاس، راس، وكما يقول بعض اللغويين: أنهم إذا اضطروا همزوا أو نبروا، وليس هذا الاضطرار إلا اتباع قواعد اللغة المشتركة.

ومن هذه الظواهر أيضا التوافق الحركي أو ما سماه سيبويه بالإتباع، فلم تلتزم قُريش وأهل الحجاز ظاهر موافقة حركة لحركة أُخرى في مثل قولك: به، عليه، فيه، بالكسر، وإنما كانت تنطق الهاء بضم مطلق[1] كما في قوله تعالى:

---

[1] يرى بعض الباحثين أن طريقة البدو فى نطقهم كانت محببة إلى أهل الحاضرة الذين كانوا يحاولون نقل تقاليدهم إلى لسانهم، من ذلك نقل ظاهرة الهمز البدوية إلى ألسنة الفصحاء حتى صار الهمز تقليداً عاما يحرص عليه أصحاب اللغة فى المناسبات الأدبية بعد أن كان ذلك تقليداً لهجياً بدويا، كما كان البدو يميلون إلى الضم حيث يميل الحضر إلى الكسر، وكانت تميم التي سكنت وسط وشرق الجزيرة تمثل البداوة فى هذا الجزء من الجزيرة، والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان لأنهما من أصوات اللين اللضيقة، فيمكن أن يحل إحدهما محل الآخر،

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ [القصص: ٨١] هكذا: "فخسفنا بهو وبدارهو الأرض"، ويبدو أن هذا الأمر اختص بالضمير الغائب لأن اللغة المشتركة أخذت بنطق قُريش في صيغتي فَعل ويفعل في كلمات مثل: لَعِب، فَرِح، ضحِك، كريم، صغير، بفتح الفاء، بينما كسرت الفاء بقية القبائل، ونجد الشيء نفسه بالنسبة لنطق أوائل أفعال المضارعة الثلاثية التي نطقتها قُريش بالفتح بقية القبائل بالكسر في مثل: اِكْتِب، نِكْتِب، يِكْتِب، وكلمات مثل: كِبير، شِريف، زِميل، ونجد هذا النطق في عامية القاهرة.

ومن الظواهر اللهجية التي خالفت بها لهجة قُريش اللغة المشتركة: ظاهرة إدغام المثلين، فقد كانت قُريش تنطق

والكسر دليل التحضر والرقة فى معظم البيئات، فهى حركة المؤنث فى اللغة والياء التي من جنس الكسرة، تعد العلامة الأساسية للتصغير فى العربية، فقد قرأ على القرشي رضي الله عنه بضم الراء " ربيون"، البحر المحيط ٧:٧٤٣، و"صنوان" البحر المحيط ٤:٢٨٩، ونعبد ونستعين بإشباع الضم حتى تتولد منه الواو، فحيث يكون الكسر، وهى القراءة القرشية يكون الضم فى القراءة المنسوبة للإمام على بن أبى طالب، وليس غريبا أن يتمثل فى قراءته بعض الظواهر اليدوية كما هو الشأن عند الفقهاء. انظر: د. إبراهيم أنيس: فى اللهجات العربية، ص ٢٥٠، د. عبد الصبور شاهين، تاريخ القرآن، ص ٢٣٤.

المثلين بالإظهار[1] في مثل قوله تعالى: **وإن تَصبِروا وتَتقُوا لاَ يضرركُم كَيدهم شيَئًا** [آل عمران:١٢٠] وقوله تعالى: **كأَنما يتصعد فِي السماءِ** . [الأنعام:١٢٥] وقوله تعالى واغْضض مِن صوتِك [لقمان:١٩] وقوله تعالى يا أيها المتَزملْ المزمل/١، بينما القبائل الأُخرى مثل تميم وأسد كانت تأخذ بالإدغام، في مثل بيت جرير الشهير:

فغُضّ الطرفَ إنك مِن نُميرٍ فَلا كَعبا بلَغْتَ ولاَ كِلابا

تتفق لهجة قُريش مع اللغة المشتركة في إعمال ما النافية عمل ليس، فبينما تقول قُريش: ما المهمل ناجحا، تقول تميم: ما المهمل ناجح، من ذلك قوله تعالى: وما هذَا بشَرا [يوسف:٣١] فقُريش وأهل الحجاز يجعلون خبر "ما" منصوبا، وتميم وغيرها من القبائل يرفعون خبرها، ونجد قُريش وأهل الحجاز يقرأون قوله تعالى: **الَّذِين يظَاهِرون مِنكُم من نسائِهم ما هن أُمهاتِهم** [المجادلة:٢] بكسر تاء (أمهاتِهم) باعتبارها خبر ما منصوبا بالكسرة نيابة عن

---

[1] بدلاً من يضركم، يصعد، المزمل، انظر: البحر المحيط ٦:١٢٥، ٤:٢١٩، ٨:٣٦٠، ٣:١٢، ٤:٤٣.

الفتحة، وتميم وغيرها من القبائل تقرأ الآية بالضم على إهمال ما. ومن هذا القبيل قوله تعالى: إن الذِين آمنُوا والذِين هادوا والصابِئُون والنصارى [المائدة:٦٣] وهذا يخالف لهجة قُريش في الالتزام بالواو في حالة الرفع والياء في حالتي النصب والجر.

لقد اشتمل القرآن الكريم على لهجات القبائل، وفي هذا دليل على أنه لم يكن بلهجة قُريش فقط، ومن هذه الظواهر اللهجية الوقف، فبينما كانت قُريش تلتزم السكون في أواخر الكلمات ما عدا المنصوب منها بالألف التي تقف عليه بها، وربما يكون هذا هو السبب في وجود الألف مع التنوين في الكتابة، فتقول: جاء محمد، ومررتُ بمحمدٍ ورأيتُ محمدا، ومثال الوقف في هذه الآيات: الرحمن. علم القُرآن. خَلَقَ الإنْسان. علمه البيان [الرحمن: ١-٤] ونجد من يقرأ هذه الآيات بالتحريك.

١. ونجد من لا يتم الكلمة عند الوقف ويقطع آخرها مثل: قبيلة ربيعة، التي تقف بالهاء في مثل هذه الكلمات، عصاة، بناة، مرجانة، حمصانة، ومن ذلك قوله تعالى: **كَلا لَينبذَن فِي الْحطَمةِ وما أدراك مالْحطَمةُ، نار اللهِ الْموقَدةُ، الِتي تطِلع علَى الأفْئِدةِ [الهمزة:٤-٧]** وهناك من يطيل الحركة الأخيرة في الوقف مثل: الأزد فيقولون

محمدو، محمدي، كما أنهم يضعفون أيضا الحرف الموقوف عليه، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في سورة القمر، في هذه الآيات:

وإن يروا آيةً يعرضوا ويقُولُوا سِحر مستمِر ، فِي يومِ نحسٍ مستمِر ، والساعةُ أدهي وأمر ، وكُل أمرٍ مستقِر ،

ومن ذلك أيضا التزام لهجة تميم وغيرها من القبائل إلحاق الواو في الجمع، رفعا ونصبا وجرا، كما سبق أن ذكرنا، في قوله تعالى: **إن الذِين آمنوا والذِين هادوا والصابِئُونَ والنصارى [المائدة:٦٩]**

وهذا يخالف لهجة قُريش، التي تلتزم الواو في حالة الرفع، والياء في حالتي النصب والجر.

إننا يمكن أن نستنتج من هذا، أن القرآن الكريم بالدليل النقْلي والعملي يشتمل على لهجة قُريش ولهجات القبائل الأُخرى، كما أن القرآن لم يعمل على خلق اللغة المشتركة، كما ذهب بعض المستشرقين، لأن القرآن نزل بهذه اللغة التي اكتملت وقت نزوله، وقد رخص الرسول ﷺ للقبائل في الخروج على هذه اللغة، كما رأينا فيما روي عنه ﷺ: "أُنزل القرآن على سبعة أحرف" ، ولقد ارتضى اللغويون والنحاة هذه اللغة المشتركة لغة الشّعر الجاهلي والقرآن الكريم، وحددوا مصادر أخذها من هذه القبائل التي ذكرناها وأثبتوها في كتبهم ومعاجمهم.

لقد وصل إلينا الشّعر الجاهلي من خلال هذه اللغة المشتركة الموحدة التي تكلم بها شعراء ينتمون إلى قبائل شمالية مثل تَمِيم وقَيس وهذِيلْ وطَيئ، وشعراء ينتمون إلى قبائل جنوبية هاجرت إلى الشمال وتعربت بعربية الشمال قبل الإسلام، وأشهر هؤلاء أمرؤ القيس الذي ينتمي إلى قبيلة كندة، وتعرب هؤلاء الشّعراء ينفي الشك في شعرهم الذي نظموه بلغة الشمال، ولم يكن تحول القبائل الجنوبية إلى العربية الشمالية شيئًا صعبا، لأن اللغتين تنتميان إلى الفرع الجنوبي من اللغات السامية.

يتساءل المستشرق الفرنسي بلاشير عن هذه اللغة التي امتدت على مساحة جغرافية واسعة شملت الجزيرة العربية شمالاً وجنوبا قائلاً: هل عمد الشّعراء قبل القرن السادس حبا برواج آثارهم إلى لغة دراجة مركبة تولدت باتحاد اللهجات، مكتفين برفع شأنها؟ أم يجب الاعتقاد بأن ثمة لهجة قبيلة خاصة قد أصبحت في عصور ما قبل التاريخ بتأثير ظروف سياسية لغة الشّعر عامة؟ إن وجود لهجة محلية ترتفع إلى منزلة لغة أدبية مؤيدة بوقائع مماثلة في النعتين الفرنسية والأيطالية، ويرى بلاشير استنادا إلى هذا الرأي أن

اللغة المشتركة تعود إلى مجموعة لهجات في وسط شبه الجزيرة وشرقيها، وهي لغة وسطى لها خصائص هذه اللهجات[١]. ويقترب دكتور عبده الراجحي إلى ما ذهب إِلَيهِ بلاشير قائلاً: "ما نحسبه موافقًا لطبيعة التطور اللغوي هو أن شبه الجزيرة العربية كان بها لهجات كثيرة مختلفة تنسب كل منها إلى أصحابها، وإلى جانب هذه اللهجات كانت هناك لغة عربية مشتركة تكونت على مر الزمن بطريقة لا سبيل لنا الآن إلى تبينها، وهذه اللغة المشتركة لا تنسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تنسب إلى العرب جميعا ما دامت النصوص الشّعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها، وهذه النصوص كما نعلم ليست قرشية ولا تميمية ولا هذلية فقط، بل هي من قبائل مختلفة، مما يدل على أن هذه اللغة المشتركة هي لغة كان الأدباء يصطنعوها في فنهم القولي"[١].

ولعلنا نختم هذه الدراسة بعبارة المستشرق الأمريكي ستكيفتش: "إن اللغة العربية لغة متميزة، إنها كفينوس ولدت

---

(١) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ٩٩:١٠٠.

(١) د. عبده الراجحي: فقة اللغة فى الكتب العربية، ص ١٢٠.

كاملة الجمال، وإنها احتفظت بهذا الجمال على الرغم مما أصابها بمرور الأيام"[2]،[3]

---

[2] ستكيفتش: العربية الفصحى الحديثة، ص ٢٣، ترجمة د. محمد حسن عبد العزيز، ط ٢ – القاهرة ١٩٨٥.

[3] فينوس: تمثال يوناني يعرف أحيانًا باسم أفروديت، وهى رمز أو نموذج لجمال المرآة.

الفصل الثاني

العربية البائدة والنقوش القديمة

الفصل الثاني
العربية البائدة والنقوش القديمة

اصطلح اللغويون على تسمية اللغة التي وصلتنا من خلال النقوش العربية القديمة التي تمثل نصوصا عربية قريبة من العربية الفصحى وتعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، أو قبل ذلك، بالعربية البائدة[1] في مقابل العربية الباقية التي وصلتنا من خلال الشّعر الجاهلي والقرآن الكريم.

تمثل العربية البائدة لهجات كانت تتكلم بها جماعات عربية سكنت شمال الجزيرة، وقد بادت هذه اللهجات قبل

---

(١) ينسب اللغويون القدماء اللغة البائدة إلى الشعوب العربية البائدة عادة وثمود وطسم وجدس، واللغة الباقية إلى الشعوب العربية الباقية من القحطانيين والعدنانيين، والقحطانيون موطنهم الأصلى جنوب الجزيرة، ومنهم قبيلتى سبأ وحمير منهم ملوك اليمن، وخرجت منهم جماعات استقرت فى شمال الجزيرة، فنزل الحيرة اللخميون ومنهم ملوك الغساسنة وملوك كندة، والأزد الذين تفرع منهم الأوس والخزرج، وهؤلاء هم العرب العاربة. أما العدنانيون وهم عرب الشمال الذين دخلهم دم ليس عربيا، وتم الاندماج بين هذا الدم الدخيل والعرب، وأصبحت العربية لسانهم وهؤلاء هم الذين نزل فيهم نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل على نبينا وعليهما السلام، ويسمون بالعرب المستعربة، كما يذكر ذلك النسابون العرب، فمن نسل إسماعيل عدنان فسعد ثم نزار الذي ولد بمضر، ومن أبناء مضر انحدرت قريش وتميم وهوازن ومن ابناء ربيعة انحدرت ثعلب وحنيفة

الإسلام، فلم يصلنا منها إلا النقوش التي عثر عليها في مناطق مختلفة، ولهذا سميت أيضا عربية النقوش، وقد توصل المتخصصون من خلال قراءة هذه النقوش إلى أن المتكلمين هذه اللغات كانوا في عزلة عن عرب نجد والحجاز، كما أن لهجاتهم كانت متأثرة بالآرمية، وفقدت بعض خصائص العربية لبعدها عن موطنها الأصلي شبة الجزيرة، ومن مظاهر هذا التأثير استعمال أداة التعريف الهاء بدلاً من الألف واللام في العربية.

وقد لاحظ المستشرقون المتخصصون في اللغات السامية أن هذه العربية البائدة تتفق مع العربية الباقية في جوانب منها:

الجانب الصوتي: يشتمل على الأصوات التي تميز العربية عن غيرها من اللغات السامية مثل الأصوات الأسنانية: الثاء والذال والظاء، وصوت الضاد كما أنها تفرق مثل العربية بين صوتي العين والغين، والحاء والخاء.

الجانب النحوي: يظهر فيه الإعراب في صورة أصوات مد قصيرة تظهر في أخر الكلمات لبيان وظيفتها وعلاقتها بغيرها من الكلمات، وهي ظاهرة لم تعرفها من اللغات

السامية إلا اللغة الأكادية، كما تشتمل على حروف الجر المعروفة.

الجانب الصرفي: لقد اشتملت هذه النقوش على صيغة أفعل التفضيل التي هي من خصائص العربية، أما غيرها من اللغات السامية فيستخدم الوصف الأصلي مع زيادة كلمة "من" في مثل قولنا: أحسن منه.

الجانب الدلالي: تشترك العربية البائدة مع العربية الباقية في معجم المفردات وأسماء الأعلام[١]

كما لاحظ هؤلاء المتخصصون في اللغات السامية بعض الظواهر اللغوية الأخرى التي تتفق فيها عربية النقوش والعربية الفصحى مثل استعمال الذال كاسم موصول، كما نرى في "ذو" الطائية التي تستخدم اسما موصولاً في مثل الشاهد النحوي المشهور:

بئري ذو حفرت وذو طويت

واستعمال الهاء أداة للتعريف في مثل هأبل، هبقر، أي: الإبل والبقر، كما لاحظوا أن للهاء دلالة إشارية، وهي بذلك تتفق وبعض اللهجات العربية المعاصرة في مثل قولنا:

---

[١] د. رمضان عبد التواب: فصول من فقه اللغة، ص ٦٠ : ٦١.

هلولد، أي: هذا الولد، وتمثل بذلك هذه النقوش طورا من أطوار العربية الفصحى:

وقد استطاع علماء الساميات العثور على هذه النقوش منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين[1] وقد

---

[1] نولدكه: اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، ص ٧١، بدأ اكتشاف هذه النقوش الفرنسي دوتي Doughty فى الفترة من ١٨٦٧ : ١٨٧٧، ونشرها بعد ذلك من شرح لها فى كتاب بعنوان:

Documents Epigraphiques recueillis dans le nord de L'Arabie. Paris. ١٨٨٤.

أي: الوثائق الأثرية الموجودة فى شمال بلاد العرب.

كما يرجع الفضل إلى عالم الساميات هالفي Halevy الذي يعد أول من حل رموز هذه النقوش.

انظر كتابه بعنوان:

Nouvel essai sur les inscriptions proto Arabes, paris, ١٩٠٣.

ثم أكمل المستشرق الألمانى مولار Muller حل رموز هذه النقوش، وتوالت بعد ذلك المزيد من الاكتشافات على يد العلماء الألمان بصفة خاصة فى أوائل القرن العشرين، وقد لاحظ هؤلاء العلماء أن بعض هذه النقوش قد كتبت بعناية ودقة واصطلحوا على تسميتها باسم النقوش Inscrpstions وهى كلمة مشتقة من اللاتينية Inscripto وتعني الكتابة الغائرة، كما لاحظوا أن بعض هذه النقوش قد كتبت بلا عناية ولم ترسم حروفه بدقة وقد اصطلحوا على تسميتها باسم المخربشات Graffiti وهى كلمة إيطالية مفردها Graffito ومعظم هذه النقوش نقوش تذكارية كتبت على القبور وحملت أسماء الأشخاص والآلهة، ولذا كانت محدودة القيمة فى التعرف على طفولة اللغة العربية، إذا قورنت هذه النقوش بالنقوش الأكادية والنصوص العبرية القديمة.

لاحظوا – كما سبق أن أشرنا – أن بعضها شديد التأثر باللغة الآرامية، ومدون بالخَط العربي القديم المعروف بالخَط المسند[١]، وهو الخَط المستخدم في كتابة اللغات السبئية والمعينية والحبشية، وقسم أقل تأثرا بها ومدون بالخَط النبطي أو بخط مشتق منه[٣].

تشتمل نقوش القسم الأول: على عبارات قصيرة تضمنت أسماء بعض الأعلام، وقد قسمها علماء الساميات طبقًا للمناطق التي اكتشفت بها إلى ثلاث مجموعات هي: النقوش الثموية والصفوية واللحيانية[١].

انظر: هذه النقوش، إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ط القاهرة ١٩٢٩، بروكلمان: اللغات السامية، نولدكه: اللغات السامية.

(١) استطاع المعينيون أن يصلوا إلى شمال الجزيرة العربية ويكونوا مركزا هاما لهم لحماية تجارتهم، وكانوا من أوائل من حمل حضارة الجنوب إلى الشمال، ومن هنا كان تأثيرهم الحضارى فى استعمال الخط المسند فى هذه المنطقة.

(٣) انظر: ص ٥٥ من الدراسة.

(١) من الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن الدراسات اللغوية لهذه النقوش قد أزدادت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، ومن هذه الدراسات دراسة وينت Winnet

Ancient Records from North Arabia, Tronto university press, ١٩٧٠

تتفق هذه النقوش مع العربية الفصحى في نظام تدوين الصوامت، وتختلف معها في تدوين الحركات القصيرة والطويلة، كما نجد أن الحركات الطويلة تأتى بدلالة الأصوات الصامتة، كما نرى في كلمتي موت وزيد، وكذلك الألف أيضا(٢)

النقوش اللحيانية: تنسب هذه النقوش إلى بني لحيان، وهم قوم من العرب سكنوا شمال الجزيرة في منطقة العلا قريبا من الثموديين، اختلف المؤرخون في تاريخهم، فمنهم من يرجعهم إلى القرون الأولى قبل الميلاد، ومنهم من يتأخر

انظر: د. خليل يحيى نامى: العرب قبل الإسلام تاريخهم لغتهم آلهتهم، ط دار المعارف ١٩٨٦.

انظر: د. محمد الروسان: القبائل الثمودية والصفوية، ط جامعة الملك سعود بالرياض ١٩٨٧.

(٢) فطن بعض القدماء إلى هذا الفرق فى التدوين، فنرى الهمداني ت ٣٣٤ يقول فى كتابه الإكليل معلقًا على لوحة كتبت بالخط المسند، وجاءت فيها الكلمتان علهان ونهفان من أسماء الملوك، وكذلك يكتبون بحذف الألف إذا وقعت فى وسط الحروف، وقفاهم المسلمون فى كتابة المصاحف فطرحوا ألف الرحمان، وألف الانسان، وألف السماوات، وكذلك علين منقوص من عليان، ونهفن منقوص من نهفان، وهمدن من همدان، وهذا ما تؤديه أحرف الكتاب، وكذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف مثل: مبعوث، والياء الساكنة مثل: شمليل، والألف الساكنة مثل: هلال وبلال وأميال، انظر: الأكليل ١:١٦.

بهم إلى ما بعد الميلاد، عدهم الهمداني من بقايا جرهم، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنين، ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء، وكما أشرنا قبل قليل، فإن المعينيين من عرب الجنوب قد امتد نفوذهم شمال الجزيرة، وأن هذه النقوش قد كتبت بخطهم المسند، ومما يدل على أثر عرب الجنوب فيهم استعمالهم الهاء أداة التعريف بدلاً من الألف واللام[١]

النقوش الثمودية: تنسب هذه النقوش إلى قوم ثمود الذين كانت منازلهم في شمال غرب الجزيرة في مناطق تيماء مدائن صالح (الحجر) والعلا (دادان القديمة Dedan)[١]، وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم في أكثر من آية تشير إلى أن صالحا عليه السلام، كان النبي المرسل لأهل الحجر، وقد

---

[١] انظر: أستاذنا الدكتور خليل يحيى نامى: العرب قبل الإسلام، ٤٣ – ٥٢ ط، دار المعارف ١٩٨٦، وأستاذنا الدكتور شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص ٣٣، ط دار المعارف.

[١] يرى د. عبد الرحمن الأنصاري أن النقوش المسماة الثمودية والصفوية من الأفضل أن تسمى نقوش البادية ، وأن يسمى الخط الذي كتبت به "خط البادية وحداة القوافل"، انظر: عبد الرحمن الأنصارى: قرية الفاو وصورة للحضارة العربية قبل الإسلام فى المملكة العربية السعودية، ط١ جامعة الملك سعود ١٩٨٢، ص ٢٢، وانظر: الكتابات الثمودية لأستاذنا الدكتور خليل نامى: العرب قبل الإسلام ص ٢٥: ٣١.

سموا بذلك لأنهم كانوا ينحتون ديارهم في الجبال[1] كما تشير الآيات الكريمة إلى أصابتهم بزلازل عظيمة، أتت عليهم، مصداقًا لقوله تعالى:

ولقد كذب أصحاب الحِجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين، وكانوا ينحِتونَ مِن الجِبال بيوتا آمِنين، فَأخذَتهم الصيحةُ مصبِحين، فَما أغْنى عنهم ما كانوا، فَما أغْنى عنهم ما كانوا يكْسِبونَ الحجر/٨٤: ٨٠.

كان أول من اكتشف النقوش الثمودية المستشرق الفرنسي دوتي Doughty ١٨٨٤، ثم المستشرق الفرنسى

---

[1] انظر قوله تعال: كذبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون. إني لكم رسول أمين أتتركون فى ما هاهنا آمنين. فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين. قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين الشعراء: ١٤١: ٥٨) وقوله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسؤء فيأخذكم عذاب قريب. فعقروها فقال شعراً فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكتوب. فلماء جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغْنَوا فِيها ألاَ إِن ثمود كفَروا ربهم ألاَ بعدا لثَمود هود: ٦١: ٦٨، وقوله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم من الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً الأعراف: ٧٣: ٧٤.

هالفي Halvey اكتشفت هذه النقوش إلى جانب المناطق التي عاشوا فيها، في نجد وبلاد مدين ومناطق أُخرى على ساحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وقد لاحظ هذان المستشرقان أن خط الكتابات الثمودية قريب من الخَط السامي الجنوبي ومكون من ٢٨ حرفًا كالحروف العربية الجنوبية والعربية الشمالية، وقد وجدت مكتوبة على الجبال أو على حجارة كبيرة[١]، وقد ذهب المستشرق الفرنسي برندان Branden إلى أن الخَط الثمودي قد اشتق من الخَط الداداني – نسبة إلى دادان – الذي انتشر في العلا واشتق بدوره من الخَط المسند اليمني[٢]

من هذه النقوش التي اكتشفها المستشرقون كتابة ثمودية مكتوبة بجوار نقش بنطى في الحجر (مدائن صالح) وهو مؤرخ في سنة ١٦٢ من التاريخ النبطي أي في سنة ٢٦٧ م، ويدل هذا النقش على أن أهل الحجر كانوا لا

---

(١) انظر: د. خليل نامى: العرب قبل الإسلام، ص ٢٦.

(٢) د. عبد المنعم عبد الحليم: الهوية الثمودية فى النقوش النبطية، مجلة المؤرخ العربي، ص ١١ العدد ٩ المجلد الأول مارس ٢٠٠١.

Charles Berger Nouvelles inscriptions median saleh, paris. ١٨٨٤

يزالون في تلك السنة يعرفون الكتابة الثمودية ويبدو أن ذلك كان مقصورا على قلة من الناس لأن المتن المهم مكتوب بالخَط النبطي، وهذه الكتابات- وإن كانت قصيرة – إلا أنها تدل على أن العرب الشماليين كانت لهم قبل الإسلام كتابة فيها أسماؤهم وآلهتم وبعض عوائدهم.

وتوضح هذه النقوش أن الثموديين قد كتبوا بعض شئنهم بخط آخر هو الخَط النبطي وتكلموا اللغة النبطية حتى بعد زوال دولة الأنباط بوقت طويل يفسر هذا الارتباط بسبب إطلاق القرآن الكريم اسم ثمود على أصحاب أضرحة مدائن صالح رغم الكتابات النبطية التي عليها، فمن الواضح أن القرآن الكريم خاطب الشعب الأصلي وهو الشعب الثمودي الذي تنتمي إِلَيهِ القبيلة أو القبائل النبطية ولم يخاطب الأنباط، الذين انسلخوا منه وغيروا لغتهم العربية وخطهم العربِيّ، واستبدلوا بهما خطًا ولغة غريبة[1] على العرب، ولعل هذا يفسر اعتبارهم أعاجم في نظر المؤرخين العرب.

---

[1] د. عبد المنعم عبد الحليم، الهوية الثمودية فى النقوش النبطية ، مجلة المؤرخ العربي، ص ١٥.

ويمكن أن نعطي أمثلة لهذه النقوش التي عثر عليها المستشرقون وترجمتها كما يلي:

ل ت م ى غ ث ب ن ج ش م هـ و ع ل

ويمكن أن نعيد كتابة النص بعد إثبات الحركات الطويلة كما يلي:[2]

لتيم يغوث بن جشم هوعل

ويعني: (الوعل ليتم يغوث بن جشم)

و(الهاء) في كلمة (وعل) أداة تعريف كما سبق أن أشرنا.

ته قبر وضعه كمبو بر

أي: (هذا القبر وضعه نحته كمب بن) حرثت

لرقوش برت

أي: (حارثة لرقوش بنت)

عبد منو تو أمه وهي

أي: (عبد مناة أمة "والدته" وهي)

هلكت في الحجر

أي: (هلكت"ماتت" في الحجر)

سنت ماه وستين[1]

---

[2] إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية ص ١٧٨.

أي: (سنة مائة وستين)

النقوش الصفوية: لا تنسب هذه النقوش إلى جماعة أو قبيلة، وإنما تنسب إلى مكان اكتشافها بالقرب من جبل الصفا جنوب دمشق[٢]، وهي مكتوبة بالخَط العين المسند[٣] الذي كتبت به هذه اللهجة مثل الثمودية واللحيانية وكثير من هذه النقوش يعود إلى القرون الأولى للميلاد، ويبدو أن من كتبها كان على درجة من التبدي. لاحظ بعض المستشرقين منهم الألماني ليتمان Litman أن الأبجدية الصفوية تتكون من ثمانية وعشرين حرفًا مثل العربية، إلى جانب بعض الظواهر اللغوية التي تقربها من العربية الجاهلية[٤]، ويظهر هذا في استخدام الضمائر وصيغ الفعل وأدوات الجر والعطف، كما نجد بها بعض الظواهر الأخرى مثل تسهيل الهمز، وخاصة

---

[١] الهوية الثمودية فى النقوش النبطية، مجلة المؤرخ العربي، ص ١٨.

[٢] انظر: الخط المسند، ص ٥٥ من الدراسة.

[٣] يعتبر عالم الساميات هالفي أول من تمكن من تشخيص هذه النقوش وأول من سماها بهذه التنمية، وإن لم يرفق إلا لمعرفة ١٦ حرفاً من الحروف الثمانية والعشرين، جواد على المفصل فى تاريخ العرب ص ٢٣٦.

[٤] انظر: Litmann: safaitic inscription Leyden. ١٩٤٣.

أول الكلمات في مثل أَنَس وأَدم التي تتحول إلى: ونَس، ودم، وهي ظاهرة نجدها عند الهذليين الذين يقولون وشاح بدلاً من أشاح، وواكل بدلاً من آكل، إلا أن هذه الهمزة تبقى عندما تكتب معها واوا أو ياء خاصة إذ جاورت كسرة في مثل: هنيت – هنيئت. وإلى جانب هذا نجد ظواهر أُخرى مثل: عدم إدغال المثلين في كلمات مثل: ظن ومد، فيقولان ظننت ومدد، نجد النون تدغم في الصوت الذي يليها في مثل: بِنت فتنطق بِت، أو كُنت فتنطق كُت، ونلاحظ ذلك في العامية المصرية.

ولاحظ المستشرقون أن الفتحة الطويلة لم تكتب في هذه النقوش في مثل هذه الأدوات: ذا – ذ، إلى – إل، على – عل، واسم الموصول: ذو – ذ، وأن أداة التعريف الهاء تدل على الإشارة في بعض الأحيان في مثل: هدار – هذه الدار، هجمل – هذا الجمل[1].

يمكن أن ننقل نصا من هذه النقوش التي أوردها بعض علماء الساميات، كما يلي:

ل ب رد   ب ن   اص ل ح   ب ن   اب ج ر   و ش ت ى

---

[1] د. خليل نامى: العرب قبل الإسلام، ص ٣٢.

هـ د ر   و ذ ب ح   ف هـ ل   ت س ل م.

يمكن أن نترجم النص إلى العربية كما يلي: (لبرد بن أصلح من أبحر وشتى) أي: أقام في الشتاء، (في هذه الدار) ،(الهاء للتعريف والنقوش لا تشير إلى الصوت الطويل) وذبح (للات) سلام[1]

النقوش النبطية

تمثل النقوش النبطية القسم الثاني من النقوش التي عثر عليها المستشرقون، فهي أغزر مادة من نقوش القسم الأول[2] وأقل تأثرا باللغة الآرامية، وأقرب إلى العربية الباقية في المفردات والتراكيب، تمثل نقوش هذا القسم الثاني خمسة نقوش تعد أقرب للعربية من نقوش القسم الأول، فهي لم تكتب الخَط المعيني المسند الذي كتبت به النقوش السابقة، وإنما كتبت بالخَط النبطي المتأخر الذي عده الباحثون حلقة

---

(١) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية.

(٢) انظر: ص ٣٨ من الدراسة.

وسطى بين الخَط النبطي القديم والخَط العربي الذي استخدم في تدوين القرآن الكريم[٣]

يعتبر المؤرخون الأنباط عربا عدنانيين سكنوا الحجاز ونزحوا إلى باديتي الشام والعراق، وظلوا يعيشون عيشة بدوية[١]، أغاروا على الآراميين الذين تحضروا بحضارتهم واستخدموا الكتابة الآرامية في النقوش ولكنهم ظلوا يتكلمون العربية، استطاع هؤلاء أن يؤسسوا إمارة لهم عاصمتها البتراء في شمال الحجاز التي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم، وسماها اليونانيون والروماييون بتر Petera، واسمها القديم

---

[٣] انظر: الخط النبطي، ص ٥٩ من الدراسة.

[١] يرى معظم الدارسين أن الأنباط كانو فى الأصل قبيلة من قبائل الثمودية أجتذبت أفرادها ثروة التجارة المتدفقة غير الطريق التجارى العظيم (أو طريق الذهب والبخور) القادم من اليمن المتجه إلى الشام فانسلخت هذه القبيلة من الشعب الثمودي، واستقرت فى منطقة البتراء الغنية بالمياه الجوفية والواقعة على هذا الطريق حيث استنبطت هذه القبيلة المياه بحفر الآبار، وأطلق رجالها على قبيلتهم أسما يشير إلى هذا الاستباط، وهو: نبطو، وقد وردت هذه الكلمة العربية القديمة فى النصوص العربية الجنوبية، فالصيغة (ن ب ط) وأحياناً (هـ ن ب ط) بنفس المعنى، أى مما يدل على استنباط الماء. وقد أضاف إليها الأنباط حرف الواو النهائي الذي هو من خصائص أسماء الأعلام النبطية.

انظر: د. عبد المنعم عبد الحليم، الهوية الثمودية فى النقوش النبطية، ص ١٥، مجلة المؤرخ العربي.

هسيلغ Hasele أي، الصخرة كما ورد في التوراة في بلاد أدونيم جنوب القدس، وكانت عاصمتهم الجنوبية الحجر، التي تعرف باسم مدائن صالح اليوم، وبصرى حاضرتهم في الشمال[1]، أسس هؤلاء دولتهم في الفترة من القرن الثالث ق.م واستمرت حتى القرن الثالث، إلى أن قضى عليهم الرومان عام ١٠٦م. ثم عادوا مرة أُخرى للظهور في إمارة تدمر تحت إمرة ملكها أذينة عام ٢٠٥م الذي منحه امبراطور الرومان لقب امبراطور الشرق، ثم تولت زوجته "زنوبيا" أو الزباء الوصاية على ابنها القاصر بعد موت زوجها، وتحدت الرومان وحاربوها، ودمروا هذه الإمارة وحملوها أسيرة إلى روما عام ٢٧٣م، وظلت سيرتها أسطورة في ذاكرة العرب.

وكما سبق أن ذكرنا أن الأنباط هجروا الخَط الجنوبي المسند ثم اتخذوا الخَط الآرامي وطوروه حتى اتخذ شكله النهائي على أيديهم وحملوه معهم في رحلاتهم التجارية داخل الجزيرة العربية.

عثر علماء الساميات على نقوش نبطية كثيرة في المناطق التي سيطر عليها الأنباط في سيناء والأردن ودمشق

---

(١) د. خليل نامى: العرب قبل الإسلام، ص ٢٦ وما بعدها.

وصيدا، وقد ظهرت في هذه النقوش أسماء ملوكهم وآلهتهم وأسماء الأشخاص روميين ومصريين وعبريين، وقد استخرج المستشرق الألماني ليتمان Litmann ثلاثمائة اسم تتفق والأسماء العربية، واستطاع هيتمان وغيره من علماء الساميات أن يرصدوا من خلال دراستهم لهذه النقوش بعض الظواهر اللغوية التي تتفق مع اللغة العربية كما يلى[1] :

١- معرفة الأنباط للإعراب واستخدامهم حركات الإعراب الثلاثة، وتمثل الإعراب عندهم في حالتين:

الحالة الأولى: إطالة حركات الإعراب في الأسماء المجردة من الإضافة، فتنتهي الأسماء والأعلام المنصرفة، بالواو في حالة الرفع، والألف في حالة النصب، والياء في حال الجر.

الحالة الثانية: تكون فيها حركات الإعراب قصيرة، وكانت لهم في هذه الحالة حركتان فقط، هما: الضمة الفتحة، أما الأسماء المضافة فتأخذ الضمة في حالة الرفع،

---

[1] نقلاً عن أستاذنا د. خليل نامى: العرب قبل الإسلام ص ٢١.
Littman: Nabataem inscription southem Hauran

والفتحة في حالة النصب، والكسرة في حالة الجر، ويمكن أن نمثل لهاتين الحالتين وحالة الإضافة في

حركات الإعراب الثلاثة كما يلي:

حالة الإعراب	أعلام منصرفة	أعلام منصرفة معرفة	أعلام مضافة	أعلام ممنوعة من الصرف
في حالة الرفع	عبدو	العبدو	عبد	أنعم
في حالة النصب	عبدا	العبدا	عبد	أنعم
في حالة الجر	عبدا	العبدي	عبدِ	انعم

يذهب المستشرق الألماني لتيمان إلى أن النبط كانوا كالعرب الآخرين يعرفون علامات الإعراب الثلاثة، وأنهم كانوا يطيلونها عندما تجرد الأسماء من الإضافة، وضاعت هذه الحركات عندما نسى النبط استخدام هذه الحركات استخداما صحيحا.

كما رأي المستشرق نولد كه أستاذ لتيمان أن هذه الواو الملحقة بالأسماء والأعلام النبطية هي علامة التنوين التي تدل على الأسماء والأعلام المنصرفة، مما بقيت آثارها في الخَط العربِيّ، مثل: عمرو وعمر[1].

يرى أستاذنا د. خليل نامى أن الواو والياء الموجودتين في نهاية الأعلام والأسماء النبطية، هي من بقايا إطالة حركات الإعراب، نجد نظيره في بعض لهجات القبائل العربية، كما ذكر سيبويه لدى قبيلة الأزد التي تقول: هذا زيدوا وهذا عمرو، ومررت بزيدي وبعمري، فأثبتوا الواو والياء، كما أثبتوا الألف، كما يقول أنه نتيجة اختلاط الأنباط بالأراميين عجمت ألسنتهم ونسوا الإعراب[1].

٢- وجود كلمات عربية في هذه النقوش مستعملة عوضا عن الكلمات الآرامية مثل:

كلمة ولد بدلاً من الآرامية يلدا

كلمة ضريح بدلاً من الآرامية قبرا

كلمة شلو بدلاً من الآرامية هداما

---

[1] انظر: أستاذنا الدكتور خليل نامى: العرب قبل الإسلام، ص ٢٣.

[1] المصدر نفسه: ص ٢٤.

استخدامهم كلمة غير التي لا توجد إلا في العربية(٢)

٣- وجود بعض الظواهر الثمودية في هذه النقوش مثل استعمال من بدلاً من اسم الموصول دى، واستعمال الفاء للترتيب وهي غير موجودة في الآرامية، واستعمال اللي أداة للتعريف مثل العربية إلى جانب إضافة الألف في نهاية الكلمات المعرفة مجارة للأراميين في أبجديتهم.(١)

قسم علماء الساميات هذه النقوش النبطية إلى خمسة أقساط طبقًا لأماكن اكتشافها كما يلي:

١- نقش النمارة: هو أقدم هذه النقوش الأربعة، يرجع تاريخة إلى ٣٢٨م، اكتشفه المستشرقان الفرنسيان دوسو Daussaud وماكلر Macler سنة ١٩٠١(٢) على بعد ميل من النمارة على

---

(٢) المصدر نفسه: ص ٢

(١) المصدر نفسه: ص٣.

(٢) انظر أستاذنا د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب ص ١٩، م ٣ د١ مايو ١٩٣٥.

نشر دوسو وماكلر هذه النقوش فى كتاب لهما بعنوان:

Voyage Archeologiaue au safa at dans le Djebeled-Druz.

أطلال معبد روماني شرقي جبل الدروز، وهو قصر قديم للروم في المنطقة التي عثر فيها على الكتابات الصفوية.

يعتبر هذا النقش شاهدا لقبر ملك من ملوك اللخميين، وهو ثانى ملوك الحيرة، امتد نفوذه في منطقة الشام، واسمه امرؤ القيس بن عمرو، وهو غير امرئ القيس الشاعر الجاهلي المعروف، ويؤرخ لهذا النقش بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بصرى، وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨م، ويشتمل على خمسة أسطر كما يلي:[١]

---

[١] نلاحظ أن النقش بدأ فى السطر الأول بكلمة تى الإشارية التي للمؤنث لأنها داخلة على نفس، ولعلها هنا بمعنى جسد، ونجد (ذو) بمعنى الذي، وهى لغة معروفة بين القبائل مثل طيئ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد، وهو من معانيها فى المعاجم العربية، وحذف الألف من كلمة التاج، وكما سبق أن أشرنا أنها لم تثبت عادة فى النقوش ولا نجد فى هذا السطر كلمات غريبة سوى (بر) التي استخدمت بمعنى ابن وهى فى حالة الرفع. أما كلمة عكدي فلعلها عكديا، وحذفت منها الألف، والعكد فى المعاجم العربية تعني القوة، أما كلمة الأسدين فتعني قبيلة أسد. ونجد فى السطر الثالث: كلمة يزجى من الفعل زجا، بمعنى دفع، أى: باندفاع، وكلمة حيج بمعنى أشرف، كما يشير المعجم، ويبدو أن الكلمة استعملت بمعنى مشارف أو حدود ، أما كلمة شمر فهي اسم لملك من ملوك الحميريين، ومعنى نزل بنيه، أي:

١- تى نفش مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج.

٢- وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا.

٣- بزجى في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.

٤- الشعوب ووكلهن لروم فلم يبلغ ملك مبلغه.

٥- عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده.

وإذا أردنا أن نعيد كتابة هذا النص بلغتنا اليوم، نكتبه كما يلي:

١- هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج[١]

جعلهم على الشعوب، أما السطر الرابع: فنجد إضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير فى وكلهن.

انظر: إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية: ص ١٩٠، ود. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨:١٧٦، و د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي: ص ٣٥، و د. رمضان عبد التواب: فصول فى فقه اللغة: ص ٥٦.

(١) يعرف من النقوش أن امرأ القيس بن عمرو ملك العرب كلها غزا بلاد اليمن فى القرن الرابع، كانت قبيلة كندة موجودة فى القرن الأول قبل

٢- وملك قبيتلى أسد ونزار. وملوكهم وشتت مذحجا بالقوة وجاء.

٣- بإندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمر وملك معدا وولي بنيه.

٤- الشعوب، ووكله الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.

٥- في القوة، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ليسعد الذي ولده.

الميلاد أو القرن الأول الميلادي، ومرتبطة بقبيلة مذحج التي عاشت فى وسط البلاد النجدية إلى الشرق تماماً من الرياض، ربما كانت كندة العشيرة الملكية لقبائل مذحج، وطردها امرؤ القيس من بلادها فى الشمال حوالي ٢٩٣ أو سنة ٣٠٠م ، وسارت مع شمر يهرعش الثالث إلى جنوب بلاد العرب، ويقال إن شمر يهرعش كان على علاقة طيبة مع الفرس، أما امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب صاحب نقش النمارة فخرج من جانب الفرس وانضم إلى الروم، وقام بحروب كثيرة وسط الجزيرة حتى وصل إلى أبواب نجران باتفاق مع الروم، ونرى من النقوش أيضاً معاهداته مع الفرس والروم، كما أنه ملك العرب كلهم، وفى هذا دلالة على وجود أول محاولة لتوحيد عرب الشمال بعد أن دمر الرومان دولتهم فى بتراء وتدمر. انظر: د. خليل نامى: العرب قبل الإسلام: ص ٩٢: ٩٣، وص ١٣٩ من الدراسة.

يمثل هذا النص طورا من أطوار العربية يمكن أن يعتبر بداية لتكوين العربية الفصحى، كما أن هذا الخَط الذي كتب به يعد مقدمة للخط العربيّ، وقد استعمل هذا النص الأسماء والأفعال العربية، ماعدا كلمة بر بمعنى ابن، وهي آرامية، ونلاحظ في هذا النص أيضا استعمال اداة التعريف "أل" العربية، وهي تقابل الهاء في النقوش السابقة، كما نجد في هذا النقش كلمات عربية، مثل: جاء، هرب، وكل، الشعوب. كما نجد تراكيب عربية فصيحة مثل فلم يبلغ ملك مبلغه، وولى بنيه الشعوب، ملك العرب كلها[1]، وكما يقول بعض الدارسين: إن هذه الكتابة تعد أول وأقدام كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشمالية، وإن كتبت بالخَط النبطي المتأثر بالآرامية[2]

---

[1] إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية: ص ١٩٠، د. خليل نامى: أصل الخط العربي، مجلة كلية الآداب، ص ٧١، د. رمضان عبد التواب: فصول فى فقه اللغة: ص ٥٦، د. شوقي ضيف.

العصر الجاهلي: ص ٣٧: ٣٨.

[2] د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: ٧:٢٧٣، ٨:١٧٦.

٢- نقش حران[٣]: يرجع تاريخه إلى عام ١٤٦٣ من سقوط سلع، أي في سنة ٥٦٨م، عثر عليه في تلك المنطقة جنوبي دمشق، كُتب باللغتين العربية واليونانية، وهو منقوش على حجر فوق باب كنيسة حران في منطقة اللجا شمال جبل الدروز، وقد جاء النص كما يلي:

١- أنا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول.

٢- سننت ٤٦٣ بعد مفسد.

٣- خيبر.

٤- بعم.

يمكن ترجمة النص كما يلي: أنا شراحيل بن ظلمو بنيت ذا المعبد سنة ٤٦٣ بعد فساد خيبر بعام[١]

---

(٣) تقع حران جنوب دمشق، سميت قديما باسم هاران شقيق النبي إبراهيم، لأنه أول من بناها، فعربت باسم حران، وكانت موطن السابئة وهم الحرانيون.

(١) يوافق تاريخ حران ٤٦٣ عام ٥٦٨، أي: ثلاث سنوات قبل مولد النبي ﷺ ويشير النقش إلى غزو أحد أمراء غسان الخيبر، وهو الحارث بن أبي شمر الذي غزا خيبر وسبي أهلها، نلاحظ حذف الألف فى كلمة عام وفقاً لقواعد الخط النبطي فى كتابة الأعلام.

يشير النقش إلى حدث تاريخي وقع قبل هذا العام، وصار الناس يؤرخون به، فأرخ النص به. يرى المستشرق الألماني ليتمان أن ذلك يعني وقوع غزو على خيبر ربما قام به أحد ملوك غسان.

يعتبر هذا النص من أهم النصوص المتقدمة وأكثرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغة العربية لأنه نص دون بلغة القرآن الكريم، فنحن أمام نص عربيّ واضح نفهمه دون صعوبة[٢].

٢- نقش زبد: يرجع تاريخه إلى ٥١١م، عثر علية الألماني ساخو عام ١٨٧٩ في منطقة زبد الواقعة جنوبي شرق حلب، وجد مكتوبا بثلاث لغات: العربية والسريانية واليونانية، ويتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه، ولم يبق من قسمه العربي إلا قطعه صغيرة غير مؤكدة القراءة بسبب ما أصابه من كسر، وهو ما يلي:

١- (بنصر) الإله شرحو برامـت منفور وهليا بر مر القيس.

---

[٢] د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي ، مجلة كلية الآداب: ص ٩١، د. جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨:١٧٨، د. إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية : ص ١٩٢.

٢- وسرجو بر سعدو وسترو و (شريحو) بتميمي[١].

قرأ بعض علماء الساميات الكلمة الأولى: بسم، والثانية الإله، فتكون القراءة: باسم الله، وقرأ الآخر الكلمة بنصر، فتكون فاتحة النص: بنصر الله، ويمكن ترجمة النص كما يلي: باسم الإله، سرحو بن أمت منفو، وهنئ بن امرئ القيس، وسرحو بن سعدو، وستر (ستار) وشريح أتموا[١] .

٣- نقش أم الجمال: اكتشف هذا النص المستشرق الألماني ليتمان ١٩٠٥، في قرية أم الجمال جنوب بصرى بالقرب من عمان، يرى ليتمان أن هذا النقش غير المؤرخ يعود تاريخه لأواخر القرن السادس الميلادي، وهو يمثل بذلك أحدث نص عربيّ قبل الإسلام، ونص النقش كما يلي:

١- الله غفر لأليهِ. ٢- بن عبيدة كاتب.

٣- الخبير الأعلى بنى. ٤- عمرى صلو عليه من.

---

(١) تشير الأقواس إلى الكلمات التي جاءت مطموسة فى النص، كما أن كلمة (بتميمى) فى النص كتبت بحروف سريانية، أما كلمة بر فى السطر الأول فقد جاءت بمعنى: ابن.

(١) انظر النص: تاريخ اللغات السامية ص ١٩٢، أصل الخط العربي: مجلة كلية الآداب ص ١٨٩. والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:١٧٦، ٢٤٩، فصول فى فقه اللغة: ص ٥٨.

٥- يقرؤه.

ويمكن ترجمة النص كما يلي: يا رب أغفر لألَيهِ بن عبيدة، الكاتب الخبير أشرف بن عمرو، أدع له أيها القارئ[٢]

٥- نقش أسيس: عثرت على هذا النقش في جبل أسيس – الذي يقع على بعد ١٠٥ كم جنوب شرق دمشق – بعثة ألمانية بإشراف كلاوس Klaus في يوينة ١٩٦٥، يتضمن النقش نصا عربيا يتكون من أربعة أسطر، كما يلي:

إبراهيم بن مغيرة الأوسي

أرسلني الحرث الملك على[١]

سليمن مسلحه سنت .

من خلال استعراضنا لهذة النقوش التي تتسم بالقيمة العلمية، رأينا بعض الظواهر اللغوية التي عرفتها العربية في

---

[٢] انظر النص فى المصادر السابقة.

[١] هو الحارث بن جبلة الذي انتصر على المنذر الثالث اللخمى عام ٥٢٨، وإيفاد كاتب هذا النص لإبراهيم بن المغيرة الأوسي ضد سليمان، أرسله كحرس للحدود، والتاريخ المثبت بالنص هو نتيجة قراءة السطر الرابع الذي ورد بالحروف النبطية ا – ى يساوى: (٤×١٠٠) + ٢٠ + ٣= ٤٢٣.

انظر: دسهيلة الجبوري: أصل الخط العربي وتطوره ص ٥٣، ط بغداد ١٩٧٧.

ذلك الوقت، وأشرنا إليها في بداية حديثنا عن هذه النقوش[٢]، وتتفق فيها مع بعض أخواتها من اللغات السامية كالعبرية والآرامية، إلا أن هذه النقوش اتسمت بضآلة المادة اللغوية وقلتها، وهي وإن كانت لا تلقى ضوءا كافيا يبين لنا الطور المبكر من حياة العربية بصورة كاملة، إلا أنها تعطينا فكرة عن تطور الكتابة وانتقالها من الخَط النبطي إلى الخَط العربِيّ.[١]

[٢] انظر: ص من الدراسة.

[١] انظر: ص من الدراسة.

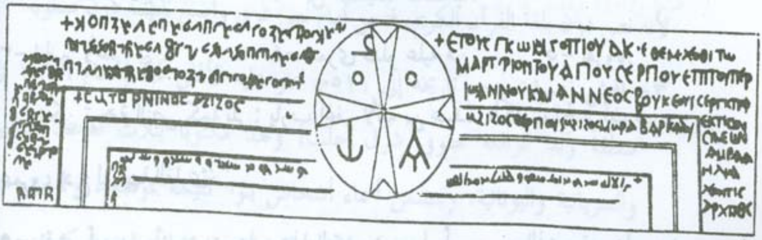

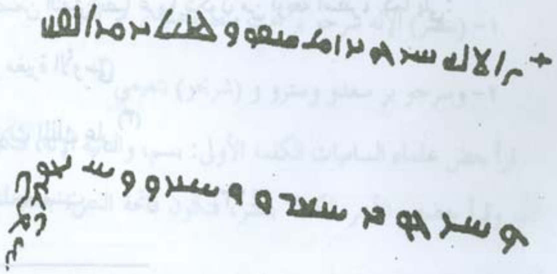

نقش زبد (تاريخه سنة ٥١٢ ب.م)

(١) انظر: ص من الدراسة.

(٢) انظر: ص من الدراسة.

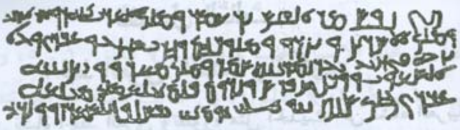

نقش النمارة وهو شاهد قبر امرىء القيس (تاريخه سنة ٣٢٨ ب.م)

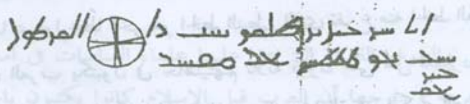

نقش حرّان (تاريخه سنة ٥٦٨ ب.م)

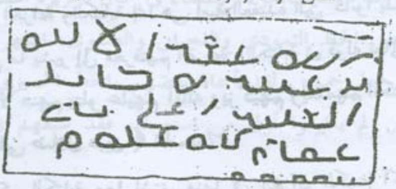

نقش أم الجمال (تاريخه يعود إلى مطلع القرن السادس ب.م)

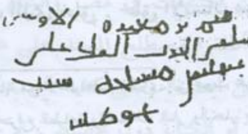

نقش أسيس (٥٢٨ ب.م)

الفصل الثالث

الخَط العربي: النشأة والتكوين

الفصل الثالث

الخَط العربي: النشأة والتكوين

إن الحديث عن نشأة الخَط العربي وتطوره مثل الحديث عن نشأة العربية وتكوينها، فهو من الموضوعات الشائكة التي تناولها القُدماء والمحدثون بافتراضات وآراء مختلفة.[1]

لقد عرف العرب – مثل غيرهم من الشعوب – الكتابة قبل الإسلام بزمان طويل، وقد عثر على كتابات ونقوش كتبت بالخَط المسند الذي خرج من اليمن إلى شمال الجزيرة، كما عرفوا خطًا آخر هو الخَط النبطي الذي تفرع منه الخَط العربيّ.

---

[1] لقد كان اختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرى البشرية، وهو اختراع لا تقل أهميته فى تاريخ الإنسان عن اختراع الطباعة واكتشاف النار والبخار ووسائل الاتصال السريعة، مثل السيارات والقطارات والتليفونات والحسابات، وقد اختلفت نظريات العلماء حول موطن الكتابة الأول، فذهبت بعض النظريات إلى أن العراق أو بلاد الرافدين ظهرت فيها ألأبجدية الأولى، وترى نظرية ُأخرى أن هذه الأبجدية الأولى موطنها أرض النيل متمثلة فى الكتابة التصورية التي كونت أبجدية طور سيناء التي وصلت للشام والعراق، وترى نظرية ثالثة أن الفينيقين هم الذين أخترعوا الأبجدية بتأثير الهيروغليفية وانتقلت إلى اليونان، ثم اقتبسها الرومان، ومنها تفرعت الأبجدية الأوربية.

لقد كان العرب يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخَط، الذي عرفوه بعد الإسلام، ولم تكن الأمية التي وصف بها القرآن الكريم العرب قبل الإسلام أمية الجهل بأمر القراءة والكتابة، إنما هي أمية العقيدة التي كانوا يدينون بها، فقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى معرفتهم القراءة والكتابة في قوله تعالى: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويكيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مِبين الجمعة/٢.

لقد جاء ذكر الكتابة وما اشتق منها في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة، والقراءة وما اشتق منها ما يقرب من تسعين مرة، وأول ما نزل من الوحى قوله تعالى: أقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. أقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلّم العلق/ ١:٥، وقوله تعالى: ن. والقلم وما يسطرون القلم/١، إلى جانب المفردات التي تتصل بالكتابة التي جاء ذكرها في القرآن مثل: المِداد، الصحف، السجل، الأسفار، لقد كانت

معرفة العرب قبل الإسلام معرفة قديمة وأمرا يقينًا يقدرة البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس[1].

الخَط المسند:

كشفت النصوص والنقوش القديمة التي عثر عليها علماء الساميات، في أماكن مختلفة داخل الجزيرة العربية وخارجها، أن العرب قبل الإسلام كانوا يكتبون بالخَط المسند الذي ظهر في اليمن، كما اكتشف هؤلاء العلماء في شمال الجزيرة خطوطًا تشبه الخَط المسند مشتقة منه، وهي الخَط الثمودي واللحياني والصفوي، اشتهر هذا الخَط بين اللغويين القُدماء بأنه خط حِمير، ولقد أسماه بعضهم بالخَط الحِميريّ، وهي تسمية مغلوطة لأن الحِميريين لم يكونوا أول من استعمله، فقد سبقهم في هذا المعنيون والسبئيون.[2]

يعتبر الخَط المسند من أقدم الخَطوط التي عرفتها الجزيرة العربية، وقد انتشر خارجها كما تشير إلى ذلك الكتابات التي اكتشفت في مصر والشام والعراق. يذكر أحد الباحثين أن اللغويين القُدماء قد أطلقوا مصطلح المسند على

---

(١) د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص ٣١٩.

(٢) د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:١٩٤.

هذا الخَط لأن حروفه تُرسم على هيئة خطوط مستندة إلى أعمدة، وتعني كلمة "مسند" في "العربية الشمالية، "و "مزند" في "العربية الجنوبية" الخَط أو الكتابة دون تخصيص، ثم حدث هذا التخصيص في مؤلفات القُدماء التي أشارت إلى هذا الخَط، ولكن لا ندري متى حدث ذلك، كما أن هذه المؤلفات لم تشر إلى كيفية نشأته وظهوره[١]، وإن كنت تشير إلى نشأته في اليمن، وانتقاله إلى شمال الجزيرة بالعراق حيث تعلمه أهل الحيرة، ثم تعلمه أهل الأنبار. ومنهم تعلمه جماعة نقلوه إلى الحجاز[٢]، ومنه اشتق الخَط العربيّ[٣].

اختلفت آراء علماء الساميات المحدثين في "أصل الخَط المسند" فذهب البعض إلى أنه تفرع من أبجدية الطور سينائية، إلا أن الدلائل لا تؤيد هذا الرأي، فالخَطان لا يتشابهان إلا في رسم حرفين أو ثلاثة، كما أن أبجدية الطور سينائية تتكون من أثنين وعشرين حرفًا مثل العبرية والفينيقية، بينما تتألف الأبجدية العربية الجنوبية من تسعة وعشرين حرفًا أي بزيادة سبعة أحرف. ذهب البعض الآخر

---

[١] المصدر نفسه: ٨:٢٠٨.

[٢] مقدمة ابن خلدون: ص ٣٤٢، المزهر:٢:٣٤٩.

[٣] انظر: ص ٥٩ من الدراسة.

إلى أنه مشتق من الخَط الفينيقى بالرغم من أننا نجد بعض التشابة بينهما في هيئة الحروف ورسمها، إلا أن الخَط المسند يزيد على الخَط الفينيقي بسبعة أحرف كما سبق أن أشرنا.

ويذهب فريق ثالث إلى أن الخَط المسند مشتق من الخَط الكنعاني، ولكن هذا الرأي لا يتفق مع تاريخ الخَطين، فالخَط المسند أقدم عهدا من الخَط الكنعاني، وإن اشتركت الأبجديتان في بعض الحروف، إلا أنهما يختلفان في حروف أُخرى، كما أن الكنعانية لا تعرف بعض الحروف مثل: ذ، ض، ظ، س، ث، ع[1].

يتألف الخَط المسند من تسعة وعشرين حرفًا مثل الأبجديات السامية الأُخرى، من حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة، وقد يكتب الحرف المشدد مرتين كما نرى في اللغات الأوربية، ويختلف عن الخَط العربي بحروفه المنفصلة، أي أنها تكتب بشكل واحد لا يتغير مكان الحرف من الكلمة في أولها أو وسطها أو في آخرها، وترتب على ذلك أن مستعمل الخَط يمكن أن يبدأ من اليمين إلى اليسار، أو من اليسار إلى اليمين، ومن أعلى إلى أسفل، أو العكس،

---

[1] د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:٢١٤.

ويفصل بين الكلمة والأخرى بفاصل عبارة عن خط مستقيم عمودي، كما نجد أن حروف هذا الخَط غير متشابهة فلا تحتاج إلى الإعجام مثل العربية التي تفرق بين الحروف المتشابهة بالنقط، كما ذكرنا، فإن حروف هذا الخَط صامتة وتفتقر إلى الحروف المتحركة مثل الخَط العربي القديم، كما أن هذا غير مشكول، أي: لا نجد التشكيل في أواخر الكلمات[1].

سبق أن أشرنا إلى النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية التي اكتشفها علماء الساميات في القرنين التاسع عشر والعشرين في مواقع متعددة في الجزيرة العربية وشمالها في سوريا والعراق والأردن كتبت بخط مشتق من الخَط المسند يتفق معه في عدم وجود الشكل والحركات، ويختلف معه في تغيير الشكل الهندسي للحروف التي لم يعد كاتبها يعمد إلى التأني في كتابتها وأطلق لنفسه العنان، فكتب الحروف بصور متعددة وعمل على الربط بينها، ويرجع ذلك إلى طريقة الكتابة بالخَط المسند الذي كُتب بطريقة الحفر على الحجر، أما الخُطوط الأُخرى فقد سجلها الكاتب بطريق

---

(١) المصدر نفسه: ٨:٢٠٩.

الخدش أو الخربشة فنقشت الحروف بسرعة وبغير اكتراث[1]،[2].

جاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي أن العرب تشمي خطها بالجزم، لأنه جزم واقتطع من المسند الحِميريّ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة خطأ هذا القول، لأنه لا علاقة بينهما سوى الاشتقاق من أصل سامي واحد، ولعل هذا الخَطأ يعود إلى أن القُدماء عرفوا أن اليمن موطن هذا الخَط قد فرضته على الشعوب التي سكنت شمال شبه الجزيرة من اللحيانيين والثموديين والصفويين، لأنهم اقتطعوا خطوطهم من الخَط المسند.[3]

---

(1) المصدر نفسه: ٨:٢٣٠: ٢٣٥

(2) انظر هامش رقم (١) #

(3) د. خليل نامى: أصل الخط العربي ص ٤.

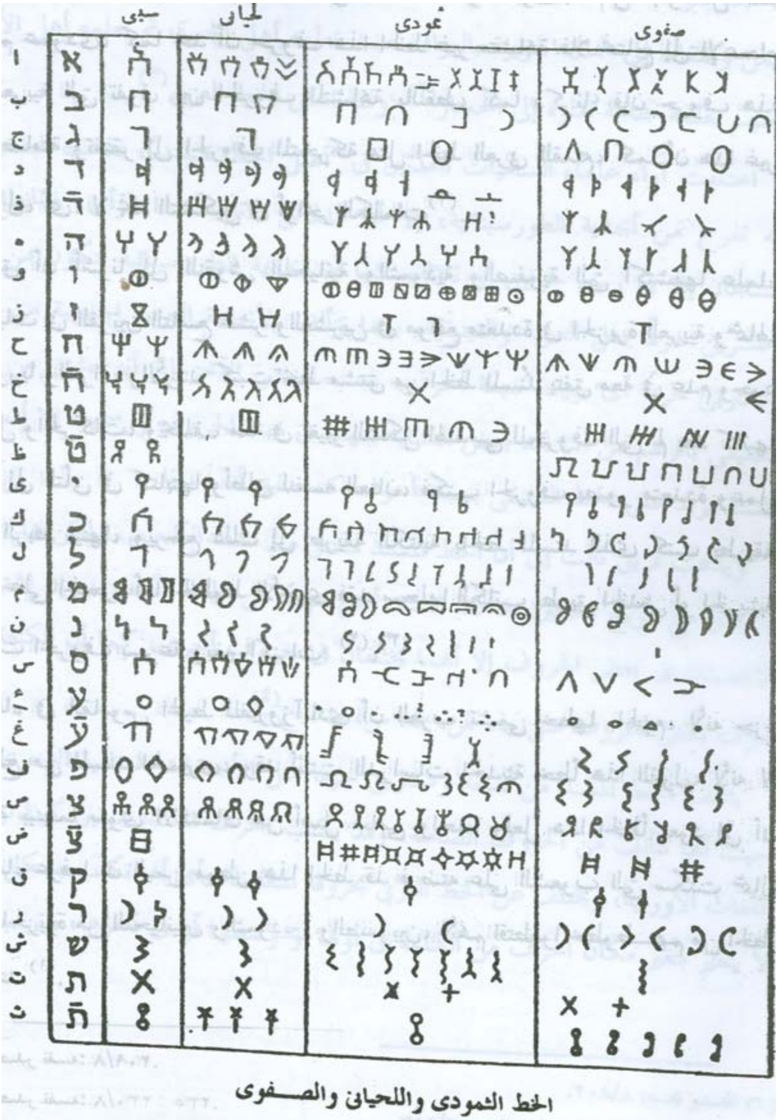

الخط الثمودى واللحيانى والصـــفوى

الخَط النبطي:

سبق أن أشرنا إلى أن الأنباط قبائل عربية خرجت من شبه الجزيرة العربية إلى أطرافها الشمالية وجاوروا الشعوب الأخرى واختلطوا بها، وأقام هؤلاء دولتهم المعروفة التي امتدت رقعتها من شبه جزيرة سيناء غربا إلى بادية الشام وأطراف العراق شرقًا وشمال الجزيرة جنوبا، وعاصمتها البتراء التي لا تزال آثارها باقية وشاهدة على ما وصلوا إِلَيهِ من حضارة، ومن مدائنهم المشهورة مدائن صالح (الحجر) في شمال الجزيرة، وبصرى في جنوب الشام[١].

---

[١] بلغت مملكة الأنباط فى عهد حارثة الأول مؤسس المملكة من النبطية من القوة ما جعل روما تخشى على فقدان مستعمراتها فى الشرق فعمل الرومان على تقويض أركانها وإسقاطها فى عام ١٠٦م. وهؤلاء الأنباط بالرغم من أنهم يستعملون الخط واللغة الآرامية التي كانت لغة الحضارة والعمران فى ذلك الوقت، لم ينسوا لغتهم الأصلية أى العربية، بل كانوا يتكلمون ويتخاطبون بها فى أحاديثهم اليومية، فقد كانت أسماؤهم عربية مثل: حارثة، وجذيمة، ووائل، وقصي، وعدي، ومعد، كما كانت نقوشهم تشتمل على كلمات عربية بدلاً من الآرامية مثل: ضريح، وجثة ورهن، هذا بالإضافة إلى وجود أثر للنحو العربي فى هذه النقوش، فهم يستعملون من اسما للموصول، ويستعملون الماضي عوضاً عن المضارع فى حالة الدعاء مثل العربية، والفاء للترتيب، ويلحقون الواو بالأسماء التي تنون، كما يلحقون الياء على المضاف إليه فى الأعلام المركبة، د. خليل نامى: مجلة كلية الآداب، أصل الخط العربي ص ٩..

اختلاط الأنباط بالآراميين وتأثروا بهم وأخذوا عنهم الكتابة ، وكما يذكر علماء الساميات أن الخَط النبطي تفرع عن الخَط الآرامي في وقت ما أو أخر القرن الثاني ق.م، وأخذ طابعه المميز في النصف الأخير من القرن الأول، وأصبح خطًا مستقلاً في القرن الأول الميلادي[1].

وقد عثر هؤلاء العلماء على نقوش مكتوبة بالخَط النبطي ترجع أقدمها إلى ٣٣ ق.م وآخر لها نقش النمارة المؤرخ في ٣٢٨ ميلادية، وقد سبق أن أشرنا إلى النقوش الأربعة الأُخرى التي ترجع إلى العصر السابق للإسلام وهي نقوش: زبد، حران، أم الجمال، وأسيس[2].

وكما سبق أن ذكرنا، أن الأنباط في اختلطوا بالآراميين في أول أمرهم، وأخذوا يتعلمون كتابتهم التي كانت أقرب إلى الخربشة منها إلى الكتابة لما وجدوه من الصعوبة في محاكاة الحروف وتقليدها، كما أنهم كتبوا هذه الحروف بشئ من الاختلاف يكاد لا يطابق الأصل كل المطابقة.

---

(١) سهيلة ياسين الجبوري: أصل الخط العربي: تطوره من ٣٧: ٣٨ط جامعة بغداد ١٩٧٧.

(٢) انظر: ص ٥٠ من الدراسة.

كما يقول بعض علماء الساميات: إننا نستطيع أن نتبين الانتقال من الخَط الآرامي إلى الخَط النبطي من خلال النقوش النبطية القديمة التي كتبت في القرن الأول ق.م، خاصة نقوش حوران لأنها قريبة من فلسطين، حيث كان الخَط العبري الآرامي، كما نستطيع أن نتبين تطور الخَط النبطي من خلال النقوش التي كتبت في القرنين الأول والثاني ق.م، خاصة نقوش مدائن صالح (الحجر) لأنها بعيدة عن النفوذ الآرامي وقريبة من البلاد العربية موطن الأنباط وبيئتهم الأولى.[1]

ثم بعد ذلك نجد الكتابة النبطية تتطور حروفها تطورا سريعا، حتى تفقد المسحة النبطية وتصبغ الصبغة العربية، كما يظهر من النقوش التي كتبت في القرنين الثالث والرابع الميلادي، كالنقوش السينائية، ونقش النمارة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، حيث تفنى الكتابة النبطية تماما

---

(1) يرى بعض الباحثين أن الخط الفينيقى الكنعاني تفرع من الخط السامي الشمالي ومنه تفرع الخط الآرامي الذي تفرع منه الخط النبطي الذي تكون منه الخط العربي.

وتندثر، وتبعث مرة أُخرى في الخَط العربي الذي نشاهد بواكيره في نقش حران وزبد[٢].

كما يقول أستاذنا الدكتور خليل نامى: إن الأنباط الذين استعملوا الخَط الآرامي وجدوا صعوبة في قراءة هذا الخَط لأنه أَعجِميّ عنهم، ويخالف لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها، خاصة وأن الآراميين كانوا يكتبون الكلمات حروفًا مفصولة عن بعضها دون أن يفرقوا بين كل كلمة وأُخرى بفواصل، فاخترع الأنباط وسيلتين للتغلب على هذه الصعوبة:

أولا: الأربطة: وهي وصل حروف الكلمة الواحدة ببعضها لتكون منها وحدة مستقلة قائمة بذاتها، وهي تبدو ضعيفة في النقوش النبطية القديمة التي كتبت قبل الميلاد حيث لا تتناول إلا كلمة "بر" بمعنى: ابن، لكثرة ورودها في النقوش النبطية ثم تتعداها إلى غيرها من الكلمات، ويأخذ الأنباط في ربط كل راء بالحرف الذي يليها تشبها براء "بر". ثم تأخذ الأربطة في الزيادة في القرن الأول المسيحي حتى تشمل أكثر الكلمات المكونة من حرفين مثل: يد، ومن،

[٢] انظر أستاذنا الدكتور خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، مجلد ٣ أجزاء ١٩٣٥، ص ٢٥ : ٢٧.

وبعض الحروف مثل: به، لا، كما تشمل الكلمات كثيرة التداول والمكونة من ثلاثة حروف فأكثر ككلمة عبد، وقبر، وتنمو الأربطة في القرنين الثاني والثالث حتى نراها في القرن الرابع قد شملت جميع حروف الكلمة تقريبا كما رأينا في نقش النمارة المؤرخ في ٣٢٨ م. [١].

وكما يقول أستاذنا الدكتور نامى الذي وقف على النقوش والنصوص النطبية، إن الأنباط قد استعملوا في ربط الحروف أربع طرق هي:

١- طريقة الإسناد: أي إسناد حرف على ساق الحرف الذي يليه هكذا:

٢- طريقة الربط: أي ربط حرف بذيل الحرف الذي يليه هكذا: الـ ٦ هكذا:

(بر – ابن)

٣- طريقة المزج: أي مزج حرفين ببعضهما وصبهما في قالب واحد لتحويلهما إلى شكل واحد، وهذه الطريقة لا توجد إلا في حرف اللام ألف فقط: لا.

---

[١] انظر: د. خليل نامى: أصل الخط العربي ص ٨٥: ٨٦.

٤- طريقة النظم: أي نظم الحروف برباط يجمع بينها من أسفل وهذه الطريقة في الكتابة تميز الكتابة السنسكريتية، غير أن الحروف تعلق فيها من أعلى لا من أسفل، كما نرى في هذه الكلمة: (عبيد).

ثانيا: الفواصل: هي حروف استعملها الأنباط في أواخر الكلمات لتكون فاصلاً بينها وبين الكلمات التي تليها، بإحدى هذه الطرق:

١- جعل الحرف الذي تُبتدأ به الكلمة من الحروف القديمة والحرف النهائى من الحروف الحديثة المألوفة لديهم كحرف الهاء، فالشكل الابتدائى صورته هكذا: 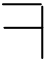

والشكل النهائى صورته هكذا: 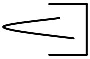

٢- استعمال الشكل الحديث في أوائل الكلمات، والشكل القديم في أواخر الكلمات كحرفي الباء فشكلها الابتدائي هكذا: د ل وشكلهما النهائي هكذا 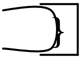

٣- استعارة حروف أجنبية يكتبونها في أواخر الكلمات كالألف النهائية التي نراها في نقوش مدائن صالح،

وكالتاء النهائية التى نراها في بعض النقوش الأخرى.

٤- إطالة ذيل الحروف النهائية كحروف الباء والفاء والقاف، وهذه الطريقة لا نراها إلا في النقوش المتأخرة، وقد حلت محل الطريقتين الأولى والثانية[١].

يضيف أستاذنا الدكتور خليل نامى سمات أُخرى ميزات الخَط النبطي إلى جانب هاتين الوسيلتين اللتين ميزتا هذا الخَط، ومن هذه اللسمات.

ثالثًا: الإعجام: لم تعرف الكتابة النبطية التنقيط كالكتابة العربية في أول نشأتها ولذلك نجد بعض الحروف النبطية تؤدى معنيين، فالباء تؤدي معنى الباء والنون، والدال تؤدي معنى الدال والذال، والحاء تؤدي معنى الحاء والخاء، والطاء تؤدي معنى الطاء والظاء، والتاء تؤدي معنى التاء والثاء، والسين تؤدي معنى السين والشين.

رابعا: كتابة تاء التأنيث الملحقة بالأسماء بالتاء المفتوحة وليست بالتاء المربوطة في مثل هذه الكلمات: سنت، حارثت.

---

[١] المصدر نفسه: ص ٨٧.

خامسا: حذف الحركات الممدوة في الكتابة النبطية كالألف في كلمات مثل:

حارثة (حرثت) بدون ألف، مالك (ملك) بدون ألف، وهذه خاصية نراها في المصحف العثماني، حيث نرى كلمة الصالحين مكتوبة هكذا: (الصلحين) بدون ألف، والنبيين هكذا: (النبين) بدون ياء ثانية، وكذلك كلمة يلوون، مكتوبة هكذا: (يلون) بدون واو ثانية، هذه هي مميزات الكتابة النبطية[1] كما ذكرها أستاذنا.

الخَط العربي في النقوش القديمة:

إذا أردنا أن نقف على نشأة الخَط العربي المتفرع من الخَط النبطي قبل الإسلام، فإننا لا نجد ما يحقق ذلك إلا نقشين فقط من النقوش الجاهلية التي كتبت قبل الإسلام، ولذلك سنضيف نقشًا آخر كتب في أوائل الإسلام يساعدنا على فهم نشأة وتطور الخَط العربي من الخَط النبطي وهذه النقوش كما يلي:

---

[1] د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي، مجلة كلية الآداب، ص ٨٧: ٨٨.

نقش زبد: عثر عليه في هذا المكان الذي يقع بين قنسرين ونهر الفرات، وهو مكتوب بثلاث لغات، اليونانية والسريانية والعربية ويرجع تاريخ كتابته إلى سنة٥١١م[٢].

نقش حران: عثر عليه في هذا المكان على حجر فوق باب كنيسة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز، وهو مكتوب بالعربية واليونانية، مؤرخ في سنة ٤٦٣ من سقوط سلع أي في سنة ٥٦٨م قبل التاريخ الهجري بـ ٥٤ سنة [١].

نقش القاهرة: مؤرخ بسنة ٣١ هجرية، أي في سنة ٦٥٣، وهو عبارة عن قطعة من الحجر الجيري مقاسها ٣٨× ٧١سم موجود بمتحف الآثار الإسلامية وقراءته كما يلي[٢]:

١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر.
٢- لعبد الرحمن بن جبير (جبر) الحجزى (الحجازى) اللهم اغفر له.
٣- وأدخله في رحمة منك وآتنا معه.

---

[٢] انظر النقش: ص ٥٠ من الدراسة.

[١] انظر النقش ص ٤٩ من الدراسة.

[٢] انظر: د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي، ص ٩٢: ٩٩.

٤- استغفر له إذ قرأت هذا الكتب (الكتاب).

٥- وقل آمين وكتب هذا.

٦- لكتب (الكتاب) في جمدى (جمادى) الأ

٧- خر من سنت (سنة) إحدى و.

٨- ثلثين (ثلاثين).

درس أستاذنا الدكتور نامى الحروف التي تمثل نشأة الخَط العربي وجاءت في هذه النقوش حرفًا حرفًا[1]، واستبنط السمات التي ميزت حروف هذا الخَط كما يلي:

١- ارتباط حروف الكلمة برباط يربط ببعض إلا هذا الحروف التي لا ترتبط بما يليها وهي الألف، والدال، والواو، والزال، والراء، ونلاحظ أن كتاب هذه النقوش يستعملون في وصل الحروف طريقتي الإسناد والمزج كما يفعل الأنباط.

٢- التمييز بين الحروف التي في أوائل وأواسط الكلمات، والحروف التي في أواخرها ولهم في ذلك طريقتان هما:

[1] انظر: د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي، ص ٩٢: ٩٩.

أ- إطالة ذيول الحروف النهائية كالماء والنون والتاء، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الطريقة في الخَط النبطي.

ب- استعمال أشكال في أوائل الكلمات تخالف الأشكال التي في أواخر الكلمات كالهاء، فهي في أول الكلمة صورتها هكذا: ـ

وفي آخر الكلمة صورتها هكذا: ـه، والياء في أول الكلمة صورتها هكذا: ⌷ يـ ، وفي آخر الكلمة صورتها هكذا: ى[1].

٣- عدم نقط الحروف كما رأينا في الخَط النبطي.

٤- عدم رسم حروف المد مثل النقوش النبطية ظلم ـ ظالم: عم: عام: كتب: كتاب.

٥- رسم تاء التأنيث بالتاء المفتوحة وليس بالهاء كما رأينا في الخَط النبطي.

٦- كتابة الواو في آخر الأعلام المنونة مثل الخَط النبطي، ولقد ظل الخَط العربي يرسم الواو حتى زال هذا التأثير، وحذفت الواو من آخر الأعلام

---

[1] المصدر نفسه: ص ١٠٠: ١٠١.

المنونة، ولم تبق إلا رسم كلمة واحدة هي عمرو، وكما يقول أستاذنا الدكتور نامى: إن هذه الواو الملحقة بأعلام نقشَي زبد وحران تدل على حداثة الكتابة العربية في زمن هذين النقشين، أي: القرن السادس الميلادي، ومن خلال هذه السمات التي ذكرناها يتبين لنا أن الخَط العربي هو تطور عن الخَط النبطي، وأنه يحمل نفس السمات.

نشأة ومواطِن الخَط العربِيّ:

أين تطور الخَط النبطي حتى صار يعرف باسم الخَط العربِيّ...؟ هل حدث ذلك في شبه جزيرة طور سيناء، حيث توجد في أوديتها الكتابة السينائية الشبيهة بالخَط العربي الإسلامي،،؟ أم في حدود دولتي المناذرة والغساسنة[1] حيث

[1] المناذرة والغساسنة عرب من سلالة يمينة هاجروا إلى شمال الجزيرة بسبب سيل العرم، احتفظوا بمظاهر حضارتهم اليمنية، كما تأثرت هذه الحضارة بحضارتى الفرس والروم، تكونت منهما مملكتان هما مملكة المناذرة فى بادية العراق، وكانت خاضعة لأكاسرة الفرس، ومن أشهر ملوكها عمرو بن عدى، والمنذر بن ماء السماء والنعمان بن المنذر، وآخرهم إياس بن قبيصة الذي صالح خالد بن الوليد عندما دخل العراق غازيا عام ١٢ هـ ، أما الغساسنة فقد أقاموا مملكتهم حول

كانت الحضارة والعمران..؟ أم حدث ذلك في مكة قلب الجزيرة العربية التجاري والديني..؟

يقول أستاذنا الدكتور نامى: إنه يصعب علينا القطع برأي في هذه المسألة لسببين:

١- قلة النقوش العربية المؤرخة قبل الإسلام.

٢- غموض تاريخ الخَط العربي عند مؤرخي العرب القُدماء وتضاربهم في الروايات.

ولكن هذا لا يمنع أن نعرض لما ذهب ِإلَيهِ القُدماء والمحدثون بهذا الصدد. يرى القُدماء والمحدثون من العلماء أن الخَط العربي قد أتى من الحيرة، أي أن الخَط النبطي قد تطور إلى الخَط العربي في الحيرة، وهذا لا يوافق عليه بعض المحدثين لأن الحيرة كانت قبل الإسلام مثقفة بالثقافة

بئر ماء اسمه غسان فى بادية الشام، وكانت خاضعة لقياصرة الروم، ومن أشهر ملوكها الحارث بن جبلة، المنذر بن الحارث، وجبلة بن الأبهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة، فى عهده دخل المسلمون بلاد الشام، ويقال إنه دخل الإسلام ثم ارتد وهرب إلى الروم. كانت هاتان المملكتان معبراً عبرت عليه مظاهر الحضارة الفارسية والرومانية إلى الجزيرة العربية منها الكتابة والقراءة، وإلى جانب كونهما حلقة= =اتصال بين الحضارتين والجزيرة، كما كانا حاجزاً وقائيا بين بدو الجزيرة ودولتى الفرس والروم، انظر:العربية فى فارس.

السريانية لأنها كانت تدين بالمسيحية، وكان الخَط السرياني هو الخَط الرسمي للديانة المسيحية، لذلك نستبعد أن يكون الخَط النبطي – خط الوثنيين – قد تطور في الحيرة المسيحية، وهو لا يتمتع فيها بالنفوذ والسيطرة[1].

إن القول بأن الخَط العربي قد أتى من الحيرة بعيد عن الحقيقة والصواب، وقد يكون القول بهذا الرأي راجعا إلى الخَط الكوفي، الذي كتب به القرآن والنقوش العربية الإسلامية، وقد نما وازدهر في الكوفة حتى بلغ الذروة وصارت له الغلبة على كل الخَطوط العربية الإسلامية الأخرى، فظن المؤرخون العرب أنه الأصل الذي تفرع منه الخَط العربي وأنه قد نشأ في هذا المكان قبل وجود الكوفة أي قبل تأسيسها عام ١٧ هـ [2]، وحيث لا يوجد من المدن

---

[1] انظر د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي، ص ١٠٢: ١٠٣.

[2] تأسست الكوفة بجوار الحيرة التي انتقل منها الخط السطر نجيلى المتفرع من الخط السريانى الذي كان يكتب به الإنجيل لدى المسيحيين، وتميز هذا الخط بالزوايا المربعة والحروف المستقيمة، وإلى جانب هذا الخط عرف المسلمون خط النسخ المتفرع من الخط بالزوايا المربعة والحروف المستقيمة، وإلى جانب هذا الخط عرف المسلمون خط النسخ المتفرع من الخط النبطي الذي تميز باستدارة الحروف على شكل أقواس، وعرف الخط الأول بالخط الكوفى الذي أستعمل فى كتابة القرآن

القديمة ما يضارع الحيرة في الحضارة والعمران، خصوصا في عهد المناذرة الذي تفيض بأخباره المصادر العربية القديمة، فقال العلماء بأن الخَط العربي قد نشأ في الحيرة ومنها انتقل إلى البلاد العربية الأُخرى، ومهما يكن من شيء فالخَط العربي لم يولد في بلاد المناذرة، كما أنه لم ينشأ أيضا في بلاد الغساسنة، لأنهم كانوا كأهل الحيرة يدينون بالمسيحية ويكتبون بالسريانية[1].

كذلك لم ينشأ الخَط العربي في طور سيناء لأن الخَط لا ينمو ولا يزدهر في أرض جدباء كشبه جزيرة سيناء، إنما ينشأ ويترعرع حيث توجد الحضارة والعمران، أما هذه الكتابات الموجودة في أوديتها فهي كتابات كتبها عرب القوافل وهم يجتازون أرض العرب إلى أرض الشام أو بلاد مصر.

كما فعل السريان بالنسبة للخط السطرنجيلي، أما خط النسخ فقد استخدم فى المراسلات والكتابات العادية.

انظر جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٣:٥٨ : ٥٩.

[1] انظر. د. خليل يحي نامى: أصل الخط العربي، ص ١٠٣.

إن الرأي الأقرب إلى الصواب هو أن الخَط العربي قد نشأ وولد في بلاد الحجاز، لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة، وأهل الحجاز – كما نعلم – قوام حياتهم التجارة التي يعتمدون عليها أعتمادا كبيرا، ومما ساعد على ذلك أن بلادهم تتوسط اليمن والشام ، فتعاملوا مع سكان هذين القطرين في رحلتي الشتاء والصيف[١].

كان الحجاز في القرن الخامس الميلادي – وهو القرن الذي انتقلت فيه الكتابة النبطية إلى الجزيرة العربية – له سيادة روحية وأدبية على أنحاء الجزيرة العربية، حيث كان الحج إلى الكعبة، والأسواق الأدبية والتجارية التي تعرض فيها ضروب الأدب من شعر وخطاب إلى جانب السلع التجارية، لذلك نظن أن الكتابة العربية قد ولدت وترعرعت في هذه البلاد التجارية ومنها انتقلت إلى البلاد العربية الأخرى عن طريق هذه الأسواق التجارية والأدبية[٢].

لقد أصبحت الكتابة النبطية تُعرف باسم الكتابة العربية في أوائل القرن الخامس الميلادي. ومما يثبت أن الكتابة

---

[١] المصدر نفسه: ص ١٠٣.

[٢] المصدر نفسه: ص ١٠٤.

النبطية انتقلت إلى الكتابة العربية في بلاد الحجاز، أن النقوش النبطية التي وجدت في العلا، ومدائن صالح تمتاز عن غيرها من النقوش النبطية التي وجدت في البلاد الأُخرى كسلع وحوران، باتجاهها السريع نحو الكتابة العربية وباشتمالها على نفس مميزاتها وخواصها كما بينا في دراسة النقوش النبطية.

إذا كان الرأي المتفق عليه يرى أن الخَط العربي نشأ في الحجاز، وتفرع عن الخَط النبطي، فإننا نجد من القُدماء والمحدثين من يرى أنه مشتق من الخَط السرياني[(١)] لوجود دلائل منها:

١- تقارب أشكال الحروف بين الخَط العربي والخَط السريانى.

---

(١) كانت السريانية معروفة فى الجزيرة قبل الإسلام، ابن اسحاق، وحدثت أن قريشًا وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية، فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من اليهود، فإذا هو : أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، ابن هشام: السيرة النبوية ١:٢٠٨.

انظر : د. سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي تطوره فى العصور العباسية ص ١٢، ط بغداد ١٩٦٢.

٢- كلا الخَطين تكتب حروفهما متصلة وللحرف ثلاثة أشكال: في أول الكلمة وفي وسطها وفي آخرها.

٣- أن كل الحروف التي تفصل في السريانية عما بعدها كالراء والواو والألف والدال تكتب هكذا في الخَط العربيّ.

٤- أن اللغة السريانية تحذف الألف إذا جئ به للمدّ في وسط الكلمة في مثل كلمة كتَب: كتاب، رحمن: رحمان، ونجد الشئ نفسه في العربية في حذف الألف من هذا وهؤلاء.

٥- حذف ألف جمع المؤنث السالم في السريانية مثل العربية في مثل هذه الكلمات: صدقَت: صدقات، طيبت: طيبات، حذف ألف اسم الفاعل مثل: شَهد: شاهد، وغير ذلك من ظواهر الكتابة التي نجدها في القرآن.

لكن نجد من ينفي هذا الرأي، فالخَط العربي لم يتفرع من الخَط السرياني فهما فرعان مختلفان اشتُقا من أصل واحد هو الخَط الآرامي المربع، وما هذه الحروف المتشابهة والخصائص المتفقة التي نجدها في نظام الكتابة فيهما إلا

نتيجة لكونهما قد خضعا لظروف واحدة، ومرا بأدور متشابهة[1].

الخَط العربي قبيل الإسلام:

إذا كان الخَط العربي نشأ وولد في شبه الجزيرة، فإنه كان صناعة حديثة العهد في شبه الجزيرة لم يمارسها إلا عدد قليل في مكة والطائف ويثرب، وهي المدن التي عرفت النشاطين التجاري والأدبي، وكما يرى بعض الباحثين أن الخَط في فترة ما قبل الإسلام كان يشوبه القصور الذي يعود إلى ضعف الكتاب الذين تعلموا الخَط بوصفه صناعة جديدة عليهم، ولو كانت هذه الصناعة قديمة وانتقلت من جيل لآخر لاكتمل الخَط، ولم يظهر فيه ما يشوبه من نقص، ولظهرت الحاجة إلى تجويده وضبطه كما حدث في العصرين الأموي والعباسي، أي بعد تدوين القرآن في عهد عثمان- رضي الله

(١) د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي، مجلة كلية الآداب، ص٤، انظر أيضا سهيلة ياسين الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره، ص ٢٨: ٢٩، ط جامعة بغداد.

عنه[1]- ، ويحدد أحد الباحثين معرفة العرب بالخَط العربي والكتابة بثلاثة قرون قائلاً: "كان العرب يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخَط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون[1]، وإذا سلمنا بهذا الرأي فإننا نرى من خلال المصادر العربية القديمة أن أمر الكتابة في شبه الجزيرة في العصر الجاهلي وفجر الإسلام كان على قدر ضئيل من الانتشار في مكة، وعلى درجة أقل في غيرها من المدن، كما أن الكتابة كانت وقفًا على أشخاص قليلين، وكما تروي بعض المصادر أنه كان في قُريش ممن يجيد القراءة والكتابة عند ظهور الإسلام سبعة عشر رجلاً منهم: عمر بن الخَطاب، وعلى بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، ويزيد بن أبي سفيان، ومن النساء اللواتي كن يكتبن: الشفاء بنت عبد الله

---

[1] د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١٢٤، انظر راى ابن خلدون ص ٨١ من الدراسة.

[1] د. ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٣، ط دار المعارف ١٩٥٦.

العدوية، وعائشة بنت سعد التي روي أنها تعلمت الكتابة عن أبيها وغيرهما من النساء[٢].

وإلى جانب هؤلاء تذكر بعض المصادر القديمة أن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ كان يحسن الكتابة، ويقال إنه أول من كتب بالعربية من العرب، وأن بعض أولاده كانوا يحسنون الكتابة أيضا، توفي بعد عام الفيل بثماني سنوات أي في عام ٥٧٩م[١]. وتذكر المصادر القديمة أيضا أن قصي بن كلاب جد عبد المطلب كان يعرف الكتابة، وإذا كانت وفاة عبد المطلب في حدود ٥٧٩، فستكون وفاة قصي في حدود الربع الأول من القرن السادس الميلادي[٢]، وهذا يعني أن الكتابة كانت معروفة في هذه الفترة أو قبلها.

يذكر البلاذري ت ٢٧٩هـ" أنه ظهر الإسلام وفي قُريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب وهم: عمر بن الخَطاب،

---

[٢] البلاذري: فتوح البلدان، القسم الثالث ص ٥٨٠: ٥٨١ نقلاً د. سهيلة يا سين الجبوري: أصل الخط العربي ص ٦٣، ط جامعة بغداد ١٩٧٧.

[١] ابن هشام: السيرة ١:٤٤ : ١٤٥، ابن سعد: الطبقات ١:٥٢، ابن النديم: الفهرست :٥، نقلاً عن د. سهيلة الجبوري: أصل الخط العربي، ص ٦٤.

[٢] توفي عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي وعمر النبي ﷺ ثماني سنوات، ولما كان النبي ﷺ ولد فى عام الفيل أى فى سنة ٥٧١، فستكون وفاة عبد المطلب ٥٧٩.

وعلى بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو العامري من قُريش، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبن بن سعيد بن العاص بن أمية، وخالد بن سعيد وأخوه، وعبد الله بن أبي السرح العامري، وحويطب بن عبد العزى العامري، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، ومن حلفاء قُريش العلاء بن الحضرمي"[1].

أما النساء اللواتي كن يكتبن فهن: شفاء بنت العدويه من رهط عمر بن الخَطاب، وحفصة بنت عمر زوج النبي ﷺ وتعلمت الكتابة من شفاء العدوية، وأم كلثوم بنت عتبة، وفروة بنت عائشة بنت سعد، وكريمة بنت المقداد، وكانت عائشة زوج النبي ﷺ بنت أبي بكر الصديق تقرأ المصحف ولا تكتب وكذلك أم سلمة.[2]

---

(1) فتوح البلدان: القسم الخامس ٤٧٧، تحقيق عبد الله عبر الضباع، ط ١٩٥٨.

(2) المصدر نفسه: ص ٤٧٨.

وإذا كان البلاذري قد ذكر هذه الأسماء المحدودة، فلا يعقل أن بلدا مثل مكة التي كانت تشهد أسواقًا تجارية وأدبية، ينحصر عدد من يعرف القراءة والكتابة فيه في هذه الأسماء، ونظن أن معرفة الكتابة تجاوزت هؤلاء.

الخَط العربي في صدر الإسلام:

عمل الإسلام على نشر الخَط والكتابة بين المسلمين لأهميته في حياتهم، انظر قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتهم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا البقرة/ ٢٨٢، وتشير كتب الحديث والسيرة إلى اهتمام الرسول ﷺ بنشر تعليم الخَط بين المسلمين وبث الوعي بأهمية الكتابة في نفوس الصحابة وأهل بيته، ومثال ذلك أنه بعد معركة بدر طلب ﷺ من أسرى قُريش الذين لم يقدروا على فداء أنفسهم بالمال أن يعلّم كل منهم عشرة من أبناء الأنصار الكتابة، وكان زيد بن ثابت ممن تعلم بهذه الطريقة[١]، كما ورد في

[١] ابن سعد: الطبقات ٢:١٤، القلشندي صبح الأعشى ٣:١٤.

حديث الشفاء بنت عبد الله أنه ﷺ قال لها وهو يشير إلى زوجه حفصة بنت عمر: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة"[٢]، فنصت بعض المصادر على أن أول من كتب للرسول بمكة من قُريش عبد الله بن أبي السرح ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح، وكتب له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأبان، ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومعيقب بن أبي فاطمة، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن رواحة، وأول من كتب بالمدينة أُبي بن كعب، كتب له قبل زيد بن ثابت، وجماعة آخرون كتبوا له[١]. وقد بلغ عدد كتاب الوحي في أتم إحصاء ثلاثة وأربعين كاتبا"[٢].

إن مثل هذه الأخبار تشير إلى أن الكتابة لم تقتصر على هذه الأسماء التي سبق ذكرها من جهة، ومن جهة

---

(٢) نقلاً عن د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ١١٠.

(١) عمدة القارئ ٢٠: ١٩، نقلاً عن د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، ص ١١٠.

(٢) أبو عبد الله الزنجاني: تاريخ القرآن ، ط لجنة التأليف والنشر ١٩٣٥، ص ٢٠.

أُخرى تشير إلى اهتمام الرسول ﷺ [٣] وتوجيهه كان سببا في انتشار وشيوع ما يمكن أن نسميه بالخَط الإسلامي، لأن الإسلام كان سببا في انتشاره وتجويده.

استعمل الرسول ﷺ نفرا من الصحابة في كتابة الوحي، والرسائل والمواثيق والعهود، وقد وصلتنا بعض هذه الرسائل التي أرسلها إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام، من تلك الرسائل كتابه إلى قيصر ملك الروم، وكسرى ملك فارس والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس حاكم الإسكندرية، وجيفر وعبد ابنيّ الجلندي مِلكَيّ عمان باليمن، ونمامة بن آثال، وهوذة بن علي مِلكَيّ اليمامة، والمنذر بن ساوي ملك البحرين، والحارث بن أبي شمر ملك تخوم الشام، والحارث بن كلال الحميري ملك اليمن[١]، وبأيدي الدارسين الآن ما يظن أنه أصول لأربعة من تلك الرسائل ومنها رسالته إلى المقوقس التي عثر عليها المستشرق الفرنسي بارشيلميه في كنيسة أخميم بمصر العليا سنة ١٨٥٠ ملصقة على غلاف إنجيل قبطي قديم، وهذه

---

[٣] إسرائيل ولفنسون: اللغات السامية ص ١٩٦.

[١] انظر هذه الرسائل: د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ١٣٥، ط ٤ دار النفائس ببيروت، ١٩٨٣.

الرسالة محفوظة الآن بقسم "الأمانات المقدسة" بمتحف "طوب قبو" في مدينة استانبول بتركيا[٢] كما يذكر أحد الباحثين أن الرسالة مكتوبة بالمداد الأسود على الرق البدائي خالية من نقط الإعجام والتشكيل، وزينت بخاتم الرسول ﷺ في الربع الأول من اليمين، تتكون من ١٢ سطرا و ٦٧ كلمة بما فيها الخاتم، وذلك في الأصل الذي يبلغ حجمة ٤٢,٥ × ٣٠ سم، ونصها كما يلي:

١- بسم (ا) الله الرحمن الرحيم (من) محمد عبد الله (ور)

٢- سوله (إلى المقوقس) عظيم القبط (سلام) على

٣- من اتبع الهدى (اما) بعد (فانى. أد)

٤- عوك بدعاية (الا) سلام اسلم

٥- (تسلم) يوتك أجر (ك) (مر) تين

٦- فان توليت فعليك اثم القبط

٧- (ويا) أهل الكتاب (تعالوا) إلى كلمة

٨- سواء بيننا وبينكم الا تعبدوا إلا (ا) الله

٩- ولا نشرك (به شيا) ولا يتخذ بعضنا

---

[٢] د. سهيلة ياسين الجبوري: أصل الخط العربي: ص ٩١، جاءت هذه الرسالة فى المصادر العربية منها صبح الأعشى ٦: ٣٧٨، ابن عبد الحكم: (فتوح مصر ص ٤٦ ، الحلبي: السيرة الحلبية ٣:٢٨١.

١٠- بعضا أربابا (من دون) (ا) لله فا (ن) تو اللـه
١١- لوا فقولوا شهدوا (بانا) مس رسول
١٢- لمون محمـد

وقد أثارت هذه الرسالة والثلاثة الأخرى الشكوك لدى المتخصصين في تاريخ الخَط العربيّ، فهي تتطلب دراسة مستفيضة بالتحليل الكيميائي للرق والحبر وما شابه ذلك قبل البتّ بشكل قاطع في قبولها أو رفضها أو وضعها في الفترة الزمنية المناسبة.

يرى بعض الباحثين أن هذه الوثيقة تحتوي على أخطاء إملائية وكلمات لا يمكن قراءتها، ولولا أن نصها قد ورد كثيرا في المصادر التاريخية لما استطاع أحد أن يقرأ إلا جزءا يسيرا منها، كما نجد اختلافًا هاما كان سائدا في كتابة بعض الكلمات مثل: الكتاب والإسلام، والمألوف، سقوط حرف الألف، كما نجد عدم تناسب المسافات بين حروف بعض الكلمات، كما نرى في السطر الرابع في كلمة "أدعوك".

وإلى جانب هذه الوثائق التي تعود إلى عصر النبوة اكتُشفَتْ نقوش مكتوبة تعود إلى العام الخامس للهجرة على

جبل سلع الذي كان قاعدة للمسلمين في معركة الخندق، التي وقعت في شوال من السنة الخامسة، يرى بعض الباحثين أن المجاهدين المسلمين هم الذين نقشوها وجاءت بها أسماء الصحابة مثل: أبي بكر وعمر وعلي وعمارة بن حزم، تشبه أشكال الحروف في هذه النقوش إلى حد ما حروف الكتابة العربية في الفترة القريبة من عصر النبوة، غير أنه لا توجد أدلة تقطع بنسبتها إليها[١].

إذا انتقلنا إلى عصر الخلفاء الراشدين الذي يبدأ بخلافة عمر ١٣ هـ ٦٣٤م إلى خلافة علي ٤٠ هـ/ ٦٦٠م يمكن أن نمثل لهذه الفترة ببردية مؤرخة في ٢٢ هـ/ ٦٤٢ م مكتوبة باللغتين العربية واليونانية، ونصفها العربي كما يلى[٢]:

١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أخذ عبد اله

٢- ابن جبر واصحبه من الجزر من اهنس اخذنا

(١) انظر: د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٣٢، د. سهيل الجبوري، أصل الخط العربي ٩٢: ٩٣.

(٢) تم اكتشاف هذه البردية عام ١٨٧٧ فى مصر وهى محفوظة فى المكتبة الوطنية فى فيينا.

٣- من خليفة تذرق ابن ابو قير الأصغر ومن خليفة اصطفن ابن ابو قير الأكبر خمسين شاة

٤- من الجزر وخمس عشرة شاة أُخرى أخرجها اصحاب سفنه وكتئبه وثقلاه في

٥- شهر جمدى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وكتب ابن حديدو

كما يرى بعض الباحثين أن التاء المتصلة (ـة) والتى تشبة الهاء ظهرت لأول مرة في هذه البردية، وتميزت بعض كلماتها بالميزة النبطية في الكتابة أي حذف الألف الوسطية في مثل (اصحب) بدلاً من أصحاب)، و(كتئبه) بدلاً من كتائبه و (جمدى) بدلاً من جماد، كما تميزت هذه البردية بظاهرة جديدة كل الجدة وهي ظاهرة الإعجام في بعض الحروف[1].

الخَط العربي والقرآن:

---

(١) د. سهيلة الجبوري: أصل الخط العربي وتطوره ص ١٠٤، ١٠٧.
د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب ٨:١٨٧.

لم تتح لنا النقوش والكتابات العربية في صدر الإسلام معرفة وافية بخصائص الخَط العربي آنذاك، إذ إنها جميعا لا تصل في كميتها مقدار لسورة من المصحف، الذي كتب مرة ثانية بصورة كاملة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، بعد المرة الأولى في خلافة أبي بكر الصديق عندما استحر القتل بين قراء القرآن يوم اليمامة ثم أخذت كتابة المصاحف تتسع في خلافة عثمان بن عفان بعد كتابته في عهد أبي بكر، وإذا كان عمل أبي بكر استهدف حفظ القرآني، فإن عمل عثمان كان يهدف إلى وضع حد لاختلاف المسلمين في قراءة القرآن، وتوحيد نسخ المصاحف التي بين أيديهم في الأمصار الإسلامية، لقد استمد قرار عثمان بنسخ مصحف إمام قوته من القرار السابق لأبي بكر واقتدى به، ولم يجد سوى زيد بن ثابت ليقوم بنفس المهمة التي انتدب إليها في أيام أبي بكر بالتعاون مع جماعة من مجيدي القراءة والكتابة من صحابة رسول الله ﷺ [١]

---

(١) تولى زيد بن ثابت (ت ٤٥هـ) مهمة جمع القرآن فى خلافة أبي بكر وكتابة القرآن فى خلافة عثمان لصفات أهلته لذلك أهمها أنه كان من كتاب الوحي، وقرأه على الرسول ﷺ بالعرضة الأخيرة التي عرض بها جبريل القرآن على النبي ﷺ قبل وفاته.

أطلق القُدماء مصطلح الخَط على الكتابة عامة، ثم ارتبط بخط المصحف أولاً ثم صار أكثر دلالة على الجانب الفني للكتابة، كما استعمل القُدماء في فترة متأخرة نسبيا مصطلح رسم المصحف ومصطلح الرسم العثماني الذي ارتبط بالخليفة عثمان بن عفان الذي أمر بكتابة المصحف.

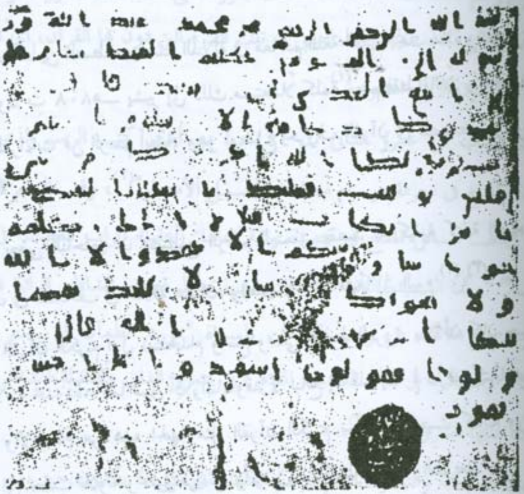

رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط حملها إليه الصحابي حاطب بن أبي بلتعة

نموذج من مصحف عثمان بن عفان في القرن الثالث الهجري

ولا نجد هذين المصطلحين بهذه الدلالة في معاجم اللغة القديمة تحت مادة رسم، نرى ابن خلدون ت ٨٠٨هـ يشير على ذلك مستعملاً كلمة رسم فقط قائلاً: ربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضا، وهو أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخَطية[١].

يرى بعض الباحثين أن مصطلح الرسم العثماني يقصد به كيفية كتابة الصحابة الكلمات في المصحف في خلافة عثمان، والذي لا يزال متبعا إلى اليوم[٢]،[٣].

يمثل القرآن الكريم أول استخدام واسع وجلي للخط العربِيّ، بعد أن كان حبيس استعمالات محدودة، كما سبق أن رأينا، وقد لا نبالغ إذا قلنا إننا لم نعرف كتابا حظي بالعناية

---

[١] المقدمة ١:٧٩١.

[٢] غانم قدوري الحمد: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ص ١٥٦، ط ١بغداد ١٩٨٢.

[٣] يعني مصطلح الرسم العثمانى كتابة الكلمات من حيث عدد الحروف ونوعها، لا من حيث أشكال الحروف وصورها التي يهتم بها الخط العربي الذي قام عليه الخطاطون المسلمون.

والاهتمام من هذه الجهة مثل القرآن الكريم، سواء من حيث كتابته ورسم حروفه إلى جانب تلاوته وتحقيق قراءته، وأثره في نشأة علوم اللغة والشريعة.

لقد بدأت صناعة الكتابة بنسخ المصاحف من المصاحف التي كتبت في خلافة عثمان وأرسلها إلى الأمصار حرفًا حرفًا وكلمة كلمة، وقامت هذه المصاحف المنسوخة من الأمهات مقام الأصول لأنها نسخ منقولة عنها.

وقد حرص نساخ المصاحف على ألا يخرجوا على مما في رسم المصاحف، فشملت العناية طريقة الكتابة في القرآن الكريم إضافة إلى أن ارتباط الرسم بالقراءات كان عاملاً أساسيا في الحفاظ على رسم الكلمات على صورتها القديمة، ولهذا نجد اهتمام علماء القراءات العربية بحصر الكلمات التي جاءت في المصحف مكتوبة بصورة تخالف ما اصطلح عليه في الأزمنة اللاحقة، وكانت حصيلة هذا الاهتمام تصنيف مؤلفات في موضوع رسم المصحف حفظت للمصحف صورته التي كتب بها منذ نزوله، وحفظت لنا الصورة التي كان عليها الخَط العربي في تلك الفترة التي

دون بها القرآن، أي النصف الأول من القرن الأول الهجري[١].

يعتبر كتاب أبي عمرو الداني ت ٤٤٤هـ من أشهر كتب الرسم الذي يحمل عنوان: "المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أصل الأمصار"[٢]، وقد نظم الشاطبي ت ٥٩٠ هـ مسائل المقنع في قصيدة رائية سماها: "عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد[٣]، أما القصيدة الثانية التي نالت شهرة تعادل قصيدة الشاطبي الرائية فقصيدة الخراز ت ٧١٨ هـ في رسم المصحف المسماة "بمورد الظمآن في رسم أحرف القرآن"، ومصادره في هذه القصيدة المقنع لأبي عمرو الداني والعقلية للشاطبي، وقد تعددت عليها الشروح[٤]،[٥].

---

(١) غانم قدوري: رسم المصحف ص ١٦٨.

(٢) نشر الكتاب أول مرة المستشرق الألماني برتزل عام ١٩٣٢، حققه محمد أحمد دهمان فى دمشق عام ١٩٤٠.

(٣) حظيت العقيلة بما حظيت به قصيدة الشاطى الأخرى التي نظم فيها كتاب التيسير فى القرءات السبع للداني أيضاً والمسماة "حرز الأماني ووجه التهاني" المشهورة باسم الشاطبية.

(٤) غانم قدوري: رسم المصحف ص ١٧٤: ١٨٤.

(٥) عقد الزركشي (ت : ٧٩٤هـ) فى البرهان، والسيوطي (ت : ٩١١هـ) فى الإتقان، والقسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) فى لطائف الأشارات، فصولاً لما صنف فى موضوع رسم المصحف.

اعتاد الصحابة والتابعون اتباع الرسم العثماني في كل ما يكتبون حتى ولو لم يكن قرآنا أو حديثًا، واستمر الأمر على ذلك زمنًا طويلاً، ويشير على ذلك ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ وهو يتحدث عن رسم الألف واوا في "السلوة والزكوة والحيوة" ولولا اعتياد الناس لذلك في هذه الأحرف الثلاثة وما في مخالفة جماعتهم لكان أحب الأشياء إلى أن يكتب هذا كله بالألف[١]، واستمر الأمر كذلك حتى ظهر علماء البصرة والكوفة وأسسوا لصناعة الخَط ضوابط بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية، نظرا لحاجة الناس بازدياد استعمال الكتابة إلى نظام موحد لقواعد ميسور التعلم، وبانتشار استعمال القواعد التي وضعها العلماء للكتابة ظهر ما يسمى بقواعد الهجاء أو الإملاء أو علم الخَط الاصطلاحي، وترك الناس هجاء الكلمات القديم إلى كتابتهم، لكن نساخ المصاحف ظلوا يحافظون على صور الكلمات كما وردت في المصاحف العثمانية، ومن ثم ميز العلماء بين أسلوبين للكتابة بل ثلاثة، يقول ابن حيان ت ٧٤٥هـ: فقد صار الاصطلاح في الكتابة على ثلاثة أنحاء "اصطلاح

---

[١] ابن قتيبة: أدب الكاتب ٢٥٣.

العروض واصطلاح كتابة المصحف، واصطلاح الكتابة في غير هذين"[1].

لقد ذهب العلماء إلى أن الأصل في الكتابة موافقة الخَط للفظ ولكن الصحابة خرجوا على ذلك الأصل حين كتبوا المصحف، وهم في الحقيقة استخدموا الهجاء المستعمل في زمانهم، الذي يعود بقواعده وبما يحمل من ظواهر كتابية وردت في رسم المصحف إلى فترات أقدم من تاريخ نسخ المصاحف[2]، نجيد الزمخشري ت ٥٣٨ هـ يقول وهو يعقب على رسم لام الجر المفصولة في قوله تعالى: وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام الفرقان/٧، وقعت اللام في المصحف مفصوله عن هذا خارجه عن أوضاع الخَط العربِيّ، وخط المصحف سنة " [3].

إذا كان القول بأن الأصل في الكتابة مطابقة الخَط للفظ، قد دفع بعض العلماء إلى البحث عن تفسير لما ورد في الرسم العثماني من حروف خالف رسمها الشائع قواعد الهجاء، كما وجدنا عند العلماء الذين ألفوا المصنفات ونظموا

---

[1] الزركشي: البرهان فى علوم القرآن ١:٣٧٦.

[2] غانم قدوري: رسم المصحف ص ٢٠٤.

[3] الكشاف : ٣:٢٠٩.

القصائد في هذا الموضوع، فإننا نجد من يفسر ذلك بخطأ الكاتب، يقول ابن قتيبة: "وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها، وأن تكون غلطًا من الكاتب، فإن كانت على مذاهب النحويين فليس ههنا لحن بحمد الله، وإن كانت خطأ في الكتاب فليس على الله ولا على رسوله ﷺ جناية الكاتب في الخَط، ولو كان هذا عيبا يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجي، فقد كتب الإمام: ﴿إِن هَٰذَٰنِ لَسِٰحِرَٰنِ﴾ طه/ ٦٣، بحذف ألف التثنية، مثل: ﴿قَالَ رَجُلَٰنِ﴾ المائدة/ ٢٣، وكتب كُتاب المصحف: "الصلوة والزكوة والحيوة بالواو، واتبعناهم في هذه الحروف خاصة على التيمن بهم، ونحن لا نكتب القناة والفلاة إلا بالألف، ولا فرق بين تلك وبين هذه، وكتبوا: الربو بالواو، وكتبوا ﴿فمال الذين كفروا﴾ المعارج/ ٣٦، فمال بلام مفردة.. وهذا أكثر في المصحف من أن نستقصيه.."[(١)]

يؤكد ابن خلدون (ت : ٨٠٨هـ) ما ذهب إِلَيهِ ابن قُتيبة قائلاً: "كان الخَط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى

---

(١) أين قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص ٤٠: ٤١.

الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش، وبعدهم عن الصنائع، وانظر إلى ماوقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخَط عند أهلها، ثم اقتفي التابعون من السلف رسمهم فيها تبركًا بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده، المتلقون ِلوحيهِ من كتاب الله وكلامه.. ويستطرد في بيان أن الخَط ليس بكمال في حق الصحابة لأن الخَط من جملة الصنائع المدنية المعاشية، والكمال في الصنائع إضافي، وليس بكمال مطلق، إذْ لا يعود على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود إلى أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس"[١].

هكذا نرى أن قضية الرسم العثماني ترتبط بقضية الخَط العربي ارتباطًا وثيقًا، وقد سبق أن أشرنا من قبل إلى أن الخَط العربي كان حديث الانتقال إلى بيئة مكة، ولذلك

(١) المقدمة ص ٧٥٧: ٧٥٨.

كان ناقص الجودة[1]، والذين استخدموه في كتابة القرآن أقاموه على أساسين:

الأول: أنهم كانوا يحسون بملاءمة هذا الخَط كوسيلة لحفظ النص كما علموه، وكما روي، لمنع تغييره أو تحريفه.

الثاني: أنهم واءموا بين الرمز أو الحرف والصوت بقدر الإمكان، والدليل على حسن صنيعهم أن النص قد وصل إلينا سليما دون أن يتغير شيء من رسمه، ودون أن نحس فرقًا ذا خطر بين هجائة وهجاء لغتنا العربية المنطوقة اللهم إلا في كلمات يسيرة.[2].

القرآن وإصلاح الكتابة العربية:

بقيت المصاحف مجردة من نقط الشكل ونقط الإعجام وظل الناس يقرأون القرآن على هذه الصورة، حتى بدأ يظهر اللحن على ألسنة غير العرب الذين اعتنقوا الدين الإسلامي لغياب شكل أواخر الكلمات ونقط الإعجام.

---

(1) انظر ص ٦٩، ٧٠ من الدراسة.

(2) أ. د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص ٢٦٧.

يقول ابن الجزري: "إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا المصحف (بعد مصاحف عثمان) جردوها من الشكل والنقط، ليحتمل ما لم يكن في العرضه الأخيرة مما صح عن النبي ﷺ وإنما أخلو المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة على الخَط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتقولين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كل من المعنيين المعقولين المفهومين[1]، أي أن مسألة تجريد المصحف من النقط والإعجام كانت عملية مقصودة، كما يشير إلى ذلك ابن الجزري، وما يذكره أبو عمرو الداني في قوله: "إنما أخلو المصاحف من ذلك الشكل حيث أرادوا الدلالة على بقاء السعة في اللغات والفسحة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها"[2].

يبدو أن تجريد الصحابة والتابعين المصاحف من الشكل يدل على معرفة العرب للشكل، يروى أن أهل المدينة استعملوا في نقط مصاحفهم الحمرة والصفرة، أما الحمرة فللحركات والسكوت والتشديد والتخفيف، أما الصفرة

(1) النشر فى القراءات العشر : ١:٣٢.

(2) المحكم فى نقط المصاحف: ٢:.

فللهمزات..[٣]، ويروى أيضا أنه كره تنقيط المصاحف بالنحو، وعن عقبة عن الأوزاعي عن قتادة قال: وددت أن أيديهم قطعت[١]، يشير بعض الباحثين إلى أن العرب استعملوا النقط كما أنهم – في الوقت نفسه – اعتبروا النقط والشكل سوء ظن بالمكتوب إِليه، فكانوا يكرهون إضافة شيء على المصحف ولو بقصد الإصلاح[٢].

الشكل:[٣] أو نقط الإعراب الذي يمثل الإصلاح الأول، تدلنا هذه الروايات – كما أشرنا – أن العرب قد عرفوا الشكل قبل تدوين القرآن فقد عرفوا الكتابة والشكل الملحق بها من السريانية والعبرية اللتين كان يعرفهما بعض الصحابة.

يمثل الشكل الإصلاح الأول الذي وضعه أبو الأسود الدؤلي ت ٦٩هـ بأمر من زياد بن أبيه والي العراقيين من

---

[٣] المحكم فى نقط المصاحف: :١٩.

[١] السجستانى فى كتاب المصاحف: تحقيق: آرثر جفرى، ص ٤:١٤١،.

[٢] سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره فى العصور العباسية ص ٥٦.

[٣] يعنى المصطلح تقييد الحروف بالحركات، وهو، أخوذ من قولك: شكلت االدابة أى شددت قوئمها بالشكال أى الحبل فتمنعها من الهروب، والشكل جاء لازالة الإشكال أى الوقوع فىالخطأ واللحن.

قبل معاوية بن أبي سفيان، تختلف الروايات التي تشير إلى عمل أبي الأسود وأشهرها أنه مر برجل يقرأس القرآن وسمعه يقول: ﴿إِن الله برئٌ مِن الْمشْركِين ورسولُه﴾ التوبة/٣ بكسر اللام، وقيل إن ابنته قالت له: "ما أحسن السماء" بضم النون، فقال لها: "نجومها"، فقالت: "إنما أردت التعجب" فقال: "عليك أن تقولي: ما أحسن السماء، وتفتحي فاك، وقيل أن زيادا أمره بذلك لما رأى سيطرة العجمة على ألسنة العرب الذين خالطوا الأعاجم.[1]

بدأ أبو الأسود عمله بالمصحف، واختار رجلاً من عبد القيس وأمره أن يتناول المصحف، وأحضر مدادا مخالفًا للون مداد الكتابة، وقال له: "إذا رأيتني قد فتحت شفتي بالحرف فانقط نقطه أعلاه، وإذا ضممت شفتي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت شفتي فاجعل نقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئًا من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين.."[2]

لقد لفت صنيع أبي الأسود هذا أنظار النحاة بعده إلى الارتباط الوثيق بين حركات أواخر الكلمات، ووجود نظام

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان م :٢١٦.

(٢) أبو الطيب اللغوى: مراتب النحو بين ص ٢٩، أبو عمرو الدانى: المحكم فى نقط المصاحف، ص ٤.

شامل تصدر عنه هذه الحركات[٣]، ويرى بعض الباحثين أن أبا الأسود متأثر في هذا العمل بالسريان الذين وضعوا الشكل على الكلمات، وحدث ذلك عندما دخلوا في المسيحية ونقلوا الإنجيل إلى لغتهم، ورأوا بعض الناس يلْحِن في قراءته، فخافوا أن ينشأ عن ذلك تحريف في اللفظ فيغير المعنى، فاخترع الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب ت ٤٦٠م، وكان الشكل عندهم بالنقط، فاقتدى العرب بالسريان في اتخاذ الحركات بالنقط، ثم استبدلوها بالحركات[١].

الإعجام: يمثل نقط الإعجام[٢] الإصلاح الثاني للخط العربى، ويعني تنقيط الحروف المتشابهة لتمييز بعضها عن بعض، يعزى هذا العمل إلى نصر بن عاصم ت ٨٩ هـ تلميذ أبي الأسود الدؤلي[٣] في زمن خلافة عبد الملك بن

---

[٣] انظر: كريم حسام الدين: أصول تراثية فى اللسانيات الحديثة ص ٩، ط مكتبة النهضة.

[١] سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره فى العصور العباسية، ص ٥٥.

[٢] يعني المصطلح إزالة العجمة، تقول: شكوت فأشكاني أي أزال الشكوى، تقول: أعجمت الكتاب أي: أزلت استعجامة.

[٣] أطلق على نصر بن عاسم: نصر الحروف # روايات تنسب هذا العمل إلى يحيى بن يعمر (ت ١٢٩هـ) انظر: الداني المحكم فى نقط المصاحف، ص ٥،

مروان ٦٥ – ٨٥هـ ، عندما تفشى الخَطأ والتصحيف في قراءة القرآن، يقول أبو أحمد العسكري: " وأما سبب إحداث النقط فإن المصاحف الخمسة التي استكتبها عثمان رحمه الله وفرقها على الأمصار، غَبر الناس يقرأون فيها نيفًا وأربعين سنة، وذلك منذ زمن عثمان إلى أيام عبد الملك، فكثر التصحيف على ألسنتهم، وذلك أنه لما جاءت الباء والتاء والثاء أشباها في الاتصال والانفصال، وكانت الياء والنون تحكيانها في الاتصال تمكن التصحيف من الكتابة تمكينًا تاما، فلما انتشر التصحيف بالعراق، فزع الحجاج الثقفي ت ٩٥هـ إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فوضعوا النقط أفرادا وأزواجا، وخالفوا بين أماكنهم، بتوقيع بعضها فوق بعض، وبعضها تحت الحروف، فغَبر الناس بعد حدوث النقط زمانًا طويلاً، لا يكتبون دفترا ولا كتابا إلا منقوطًا، فكان مع استعمالهم النقط يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام"[1].

الزركشي: البرهان ١:٢٥١، بن النديم: الفهرست ٤١، القلقشندي: صبح الأعشى ٢:١٦١.

[1] انظر: أبو أحمد العسكري: شرح ما يقى فيه التصحيف ص ١٣، ط ١ ١٩٦٣، حمزة الأصفهان: التنبية على حدوث التصحيف، ورقة ١٨، مخطوط مكتبة البرلمان،

يرى بعض الباحثين أنه من الثابت عندما اقتبس العرب خطهم من الأنباط كان خاليا من نقط الإعجام، ولكن يظن أن الإعجام كان مستعملاً في الحروف العربية قبل الإسلام، فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: "إذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوها بالياء"[(١)].

كما ورد عن عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال: "كتبت بين يدي معاوية كتابا، فقال لي يا عبيد أرقش كتابك فإني كنت بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا معاوية أرقش كتابك، قال عبيد: وما رقشه يا أمير المؤمنين؟ قال: اعط كل حرف ما ينوبه من النقط[(٢)].

ويبدو أن المصحف عندما كتب في خلافة عثمان كان خاليا من الإعجام والشكل لكي تتاح للمسلمين الفرصة لقراءة القرآن وفقًا للهجته"[(٣)]، فهذه الآية على سبيل المثال فَقَبض

طهران، نقلاً عن د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، ص ٢٧٠. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١:١٧٥.

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ١:١٩٣.

(٢) عن مخطوطة تاريخ دمشق لابن عساكر، ورقة ٣٠، مخطوطة الجامع الأخلاق الراوي وأداب السامع للخطيب البغدادي، ورقة ٥٥، نقلاً عن د. سهيلة الجبوري: أصل الخط العربي وتطوره، ص ١٥٦.

(٣) انظر: قول الجزري ص ٨٢ من الدراسة.

قَبضةً طه/٩٩ فقد قرأها الحسن "فقبضت قبصة" بالصاد المهملة بمعنى بأطراف الأصابع، والضاد بجميع الكف، فهذه النقطة سمحت بقراءتين ومعنيين سمح بهما الرسم الواحد[١].

ونستطيع بناء على ذلك أن نقول: إن الإعجام لم يكن من صنيع نصر بن عاصم أو يحيى بن يعمر. بمعنى أنهما أدخلاه في الخَط العربيّ، وإنما كان عملهما يقتصر على تنقيط حروف المصحف بعد أن جردها الصحابة من النقط، والدليل على ذلك ما روي عن أبن مسعود أنه قال: "جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم" وقد شرح ذلك الزمخشري قائلاً: أراد تجريده من النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشء فيرى أنها من القرآن"[٢]. ونفهم من ذلك أن التنقيط كان معروفًا لدى الصحابة، وتجريد المصحف يحمل الصغير والكبير على بذلك الجهد في فهم غامضه ومعناه فيرسخ في ذهنه.

وكما يقول بعض الباحثين" إنه قد وقر في أذهان القُدماء أن من ينقط الكتابة ويشكلها ويرسلها إلى كاتب،

---

[١] الزمخشري: الكشاف ٢:٣٢٠.

[٢] الزمخشري الفائق فى غريب الحديث ١:١٧٤.

فكأنما أراد إهانته ورميه بالجهل، فكان من أدب الكُتاب عندهم الترفع عن مستوى القُراء الكاتبين بترك النقط والشكل، وكانوا يقولون كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب إِلَيهِ[1] .

كما نجد أدلة مادية تشير إلى معرفة العرب نقط الحروف في كتاباتهم في بعض البرديات التي عثر عليها علماء الساميات مثل البردية التي يعود تاريخها إلى ٢٢ هـ والبرديات التي درسها جروهمان والنقش منقوط الحروف الذي عثر عليه في الطائف، ويعود تاريخه إلى ٥٨هـ[2] .

لم تكن حروف الهجاء العربية مرتبة الترتيب الذي نعرفه اليوم، وكما سبق أن عرفنا أن الخَط العربي قد تطور عن الخَط النبطي المتفرع من الخَط الآرامي، وقد أخذ العرب الترتيب النبطي للحروف وهو ما يعرف باسم الترتيب الأبجدي أي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت، ثم أردفوا

---

[1] د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:١٧٨.
انظر أيضاً: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٤١.

[2] د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:١٧٨،
د. سهيلة الجبوري: أصل الخط العربي، ص ١٥٧: ١٥٨، وانظر ص ٧٥ من الدراسة.

هذه الحروف بالحروف الناقصة وهي الخاء والذال والغين والضاد والظاء، ومما يؤكد ذلك حساب الجمل العربي الذي يسير على حسب هذا الترتيب الأبجدي ويستعمل في الحساب والتاريخ كما يلي:

أ	=	١	ب	=	٢	ج	=	٣	د	=	٤
هـ	=	٥	و	=	٦	ز	=	٧	ح	=	٨
ط	=	٩	ى	=	١٠	ك	=	٢٠	ل	=	٣٠
م	=	٤	ن	=	٥٠	س	=	٦٠	ع	=	٧٠
ف	=	٨٠	ص	=	٩٠	ق	=	١٠٠	ر	=	٢٠٠
ش	=	٣٠٠	ت	=	٤٠٠	ث	=	٥٠٠	خ	=	٦٠٠
ذ	=	٧٠٠	ض	=	٨٠٠	ظ	=	٩٠٠	غ	=	١٠٠٠

أي أن الترتيب القديم للحروف العربية كما يلي:

أب، ج، ح، هـ، و، ز، ح، ط، ى، ك، ل، م، ،، س، ع، ف، ص، ق، ر، ش، ت، ث، خ، ذ، ض، ظ، غ،[١]

---

[١] د. خليل يحيى نامى: أصل الخط العربي، مجلة كلية الآداب ص ١٠٨، مجلد ٣ ج ١ مايو ١٩٣٥ د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٨٠: ١٨٢.

وتظهر الروايات العربية أن كُتاب الجاهلية كانوا يتعلمون الكتابة على ترتيب أبجد هوز الذي تعرفة اللغات السامية الأُخرى، وقد ظل هذا الترتيب إلى صدر الإسلام، ومن هذا القبيل ما يروى عن أحد هؤلاء الكتاب[١].

أتيت مهاجرين فعلمونـي.. ثلاثة أسطر متتابعات

وخطوا لي أبا جاد وقالوا.. تعلم سعفصا وقُريشات

وتخبرنا كتب اللغة والأدب أن نصر عاصم عندما وضع نقط الإعجام ضم كل حرف إلى ما يشبهه، فتحول الترتيب من الترتيب الأبجدي إلى الترتيب الألفبائي الذي نعرفه اليوم، وسارت عليه معاجم العربية في ترتيب الكلمات.

الإصلاح الثالث:

عرفنا أن الإصلاح الأول للخط العربي الذي تمثل في الشكل أو نقط الإعراب قام به أبو الأسود الدؤلي ت ٦٥ هـ،أما الإصلاح الثالث والأخير فقد تم على يد الخليل بن أحمد ت١٧٠ هـ حيث أبدل نقط الشكل أو الإعراب بجرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر، وبرأس الواو للدلالة

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى ٣:١٩.

على الضم وإذا كان الحرف المحرك منونًا كُررت العلامة فكتبت مرتين فوق الحرف أو تحته أو بين يديه (أي أمامه).

كما جعل الخليل رأس الحاء حـ، والهمزة رأس العين عـ، لقرب ما بين الهمزة والعين في المخرج، وألف الوصل رأس الصاد صـ، وللشدة رأس السين سـ وبهذا الإصلاح الأخير أصبح من الممكن كتابة الشكل والإعجام بنفس لون مداد الكتابة دون لبس [١].

الخَط الكوفي: سبق أن ذكرنا أن الخَط العربي تطور عن الخَط النبطي، وقد كان هذا التطور قبل الإسلام في مكة والمدينة، وبعد الإسلام انتقل إلى الكوفة والبصرة، وسمي كل خط باسم كل مدينة، فأول الخَطوط العربية الخَط المكي، وبعده الخَط المدني، ثم الكوفي والبصري، فأما المكي والمدني فقد تميز كل منهما بأَلِفَاتِه التي تُعوج إلى يمين اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع يسير.

أما الخَط الكوفي والبصري فقد بلغا شيئًا من الإتقان بعد ما كان الخَط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية

---

[١] سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره فى العصور العباسية ص ٦٠

من الإتقان والإحكام والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، كما ذكر ابن خلدون.[1]، [2]

كان أول الافتتان والإبتكار بالخَط العربي في الكوفة التي تأسست في ١٧ هـ، ومن باب التغليب سمي الخَط الذي كتبت به المصاحف في خلافة عثمان وعلى المنابر والمحارب والعمائر في الكوفة وغيرها بالخَط الكوفي، وقد تفنن الكوفيون فيه فأحسنوا أشكاله حتى امتاز بشكله على الخَطين المكي والمدني، ولا تعني هذه التسمية أن هذا النوع من الخَط قد اخترع في الكوفة، لأن أصل هذا الخَط هو الخَط العربي الذي اشتق من الخَط النبطي كما ذكرنا، وكتبت به المصاحف وأصبحت له أشكال متعددة تتناسب مع كل مادة يكتب عليها ومن هذه الأشكال:

١- الكوفي التذكاري (اليابس).

٢- الكوفي اللين (خط التحرير المخفف).

---

[1] انظر ص ٦٩، ٨١ من الدراسة.

[2] سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره فى العصور العباسية ص ٣٥.

٣- كوفي المصاحف الذي استعمل في كتابتها حتى القرن الرابع الهجري وعرف استعمال الخَطين النسخ والثلث[١].

أخذ الخَط الكوفي في التطور في العصرين الأموي والعباسي حتى أصبح له جمال خاص لما أدخل عليه من ابتكار وتحسين، حيث تفنن الكاتب بأرضية (السطح) المادة التي يكتب عليها بما فيها من زخارف نباتية ورقش عربيّ (الأرابسك)، وكذلك تفنن في صياغة الحروف ذات الأشكال المتعددة بعد أن كانت مجرد حروف يابسة stiff ذات زايا خالية من الجمال، وهكذا أصبح الخَط الكوفي عنصرا زخرفيا من عناصر الفن الإسلامي، ومظهرا من مظاهر جمال الفنون العربية لم يقتصر فقط على العراق وإنما شمل كل أنحاء الأقطار الإسلامية[٢].

الخَط النسخي[٣]: يرى البعض أن الخَط النسخي مشتق من الخَط الكوفي، إلا أنه في حقيقة الأمر ليس كذلك، لأنه

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٣.

(٢) سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره ص ٤٣: ٤٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤: ٤٥.

جزء من الخَط العربي الذي كان يكتب به من أول اشتقاقه من الخَط النبطي.

كما ينسب البعض الآخر هذا الخَط إلى أبي علي محمد بن مقلة ت ٣٢٨هـ أو علي بن هلال المعروف بابن البواب ت ٤١٣ هـ وهناك من يرى هذا الخَط النسخي كان مستعملاً قبلهما، والدليل على ذلك النسخة التي وصلتنا من رسالة الإمام الشافعي والمؤرخة في ٢٦٥هـ، وخطها أقرب إلى الخَط النسخي المتعارف عليه الآن[١]. يعزى إلى ابن مقلة أنه أدخل على الخَط النسخي تحسينات كبيرة عبد أن كان مختلاً، وأدخله في كتابة المصاحف وكتابة الدواوين، وكذلك جود فيه أخوه أبو عبد الله الحسن بن مقلة (ت : ٣٣٨هـ)، ويقال أنه كان أكتب من أخيه في خط النسخ.

الخَط المنسوب: سمي بذلك لتناسب أشكاله الهندسية المتقنة، يعتبر الوزير ابن مقلة المهندس الأول لهذا الخَط الذي توصل إلى طريقة للكتابة وضعت للخط معايير تضبط

---

[١] يسمى بالنسخ لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصحف ويكتبون به المؤلفات وهو مشتق من الجليل أو الطومار أو منهما معاً وسماه ابن مقلة بالبديع.

بها، وقد سمي الخَط الذي يجري على نسب محدودة محققًا والخَط الذي يلتزم هذه النسب دراجا يستعمل الأول في الأمور المهمة التي يقصد بها التخليد والبقاء إلى جانب المصاحف ومراسلات الملوك، ويستعمل الثاني في الأغراض اليومية العاجلة، وقد تطور هذا الخَطاب على يد ابن البواب[1].

تطور الخَط في العصر الأموي:

انتقل مركز العناية بالخَط والكتابة إلى الشام بانتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق مع قيام الدولة الأموية، فقد اهتم خلفاء بني أمية بأمر الكتابة اهتماما كبيرا وأخذ الخَط يرتقي ويتحسن على يد خطاطين مشهورين تسابقوا على إدخال التحسين على حروف الخَط الكوفي والتفنن في زخرفتها. ومن هؤلاء الخَطاطين قطبة المحرر الذي كان أكتب أهل زمانه وكاتب المصاحف الأمويين[2] ، ويذكر أنه أراد أن يخرج من قيود الخَط الكوفي فاخترع منه الخَط

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٥ : ٩٦، انظر ص ٩٤ من الدراسة.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ١٠.

الطوماري[١] والخَط الجليل أو الجلي، وباختراعه هذه الخَطين فتح الباب أمام الخَطاطين لمزيد من الاستنباط والاختراع حتى كثرت أشكال الكتابة وتنوعت الخُطوط: الثلث النسخ، الرقعة، الديواني والفارسي.

ومن الخَطاطين المشهورين في عصر بني أمية أيضا خالد بن الهياج الذي اشتهر بكتابة المصاحف وهو أول من أجاد كتابتها، وكان منقطعا للكتابه للوليد بن عبد الملك، يكتب له المصاحف وأخبار العرب وأشعارهم، ومن هؤلاء أيضا الحسن البصري الفقيه والقاضي المشهور، الذي اشتهر بتجويد الخَط ويعزى إِلَيهِ أنه اشتق من الخَط الكوفي خطي النسخ والثلث[٢].

تطور الخَط في العصر العباسي.

اشتهر في أوائل العصر العباسي رجلان في جودة الخَط هما: الضحاك بن عجلان، في خلافة السفاح فزاد على

---

[١] الاسم مشتق من الطومار أى الورقة الكبيرة التي يكتب عليها المكاتبات الرسمية والمناشير، والقلم الجليل أو الجلي، سمى بذلك لأنه أكبر الأقلام وأوضحها.

[٢] سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره ص ٦٤: ٦٦.

قطبة المحرر، وإسحاق بن حماد وكان في خلافة المنصور والمهدي).

نمت صناعة الخَط وارتقت منذ بداية القرن الرابع الهجري على يد أبي على، محمد بن مقلة ٢٧٢ – ٣٢٨، وأخيه أبي عبد الله الذي أجاد نوعا من الخَط عرف بالنسخ.

يعتبر ابن مقلة – كما ذكرنا – المهندس الأول للخط العربيّ، فهو الذي ابتكر القوانين لكل حرف من حروف الخَط العربي زيادة على مبتكرات سابقة وسمي الخَط الموزون هذا بالخَط المنسوب[١]. كما أطلق بن مقلة علي قلم النسخ اسم البديع، وأجاد خطًا عرف بالدرج وهو أول من بلغ بالثلث والنسخ هذا المبلغ من الكمال بوضعه القواعد والقوانين للحروف التي أدت إلى انسجامها وجمالها، ولم يكتب بذلك وإنما وضع قواعد يمكن اتباعها في الكتابة.

لم يكن ابن مقلة خطاطًا وكاتبا فقط وإنما كان شاعرا ومهندسا وسياسيا بارعا، تمرس بالسياسة واستُوزر ثلاث مرات، ولكنه كان سيئ الحظ في السياسة، فقد حبس وعذب وقُطعت يده اليمنَى ولسانه، فأخذ يكتب باليد اليسرى أو يسند

---

[١] انظر ص ٩١ من الدراسة.

القلم على ساعد يده اليمنى فيكتب به، ويقال إنه مات قتيلاً، ومن نكد الدهر أن مثل تلك اليد النفيسة تقطع[١].

يلقانا في أواخر القرن الرابع خطاط آخر هو أبو الحسن، على بن هلال المعروف بابن البواب ت ٤١٣ نسبه إلى والده الذي كان يعمل بوابا، امتهن الخَط وبرع فيه مثل ابن مقلة، عمل واعظًا في جامع المنصور في بغداد، ويقال أنه كان أمينًا لمكتبة بهاء الدين البويهي في شيراز، يعزى إِلَيهِ براعته في تقليد خط ابن مقلة، ألف رسالة في الخَط لم يبق منها إلا المقدمة، وله قصيدة حول تعليم الخَط وهي لا تزال مخطوطة، أشار إليها ابن خلدون في المقدمة[٢]، كما وصلنا بعض صفحات من القرآن بخطه لم يستعمل فيها الخَط النسخي فقط، وإنما استعمل خطوطًا أُخرى، وتعود تاريخ هذه الصفحات لعام ٣٩١هـ[٣].

قبل أن نختم كلامنا عن نشأة الخَط العربي وتطوره يجب أن نشير إلى حقيقة مهمة وهي أن الفضل يعود إلى القرآن الكريم الذي حفظ الخَط العربي من الاندثار من جهة،

---

(١) الفهرست: ١٤، معجم الأدباء ٩:٢٨، الثعالبي: ثمار القلوب ١٦٧: ١٦٨.

(٢) ياقوت ٥:٤٤٦ : ٤٤٨، سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره ص ٧٤: ٧٧.

(٣) هذه الصفحات محفوظة بمكتبة شستربتي Chester Beatty .

وعلى تثبيته من جهة أُخرى، كما أنه كان عاملاً أساسيا في تطويره وتحويله إلى فن من أهم الفنون الإسلامية، وإذا كان العرب لم يفلحوا في فرض لغتهم العربية على بعض الأقاليم التي قدموها[1]، فانحسرت اللغة العربية بوصفها لغة تخاطب في الحياة اليومية في هذه الأقطار، إلا أن الخَط العربي ظل يقرأ به القرآن الكريم، وتُكتب به لغات ولهجات هذه الأقاليم، فانتشر الخَط العربي غربا في تركيا وإيران والهند والصين حتى إلى جزر اندونيسيا والملايو، وإلى كثير من الدول الإفريقية[2]، وقد حاول الاستعمار قطع الصلة بين شعوب آسيا وأفرقيا والإسلام والعربية باستبدال الخَط اللاتيني بالخَط العربِيّ.

(1) الفهرست : ١٠، منح الأعشى ٣:١٦.

(2) انظر: د. زكى محمد حسن، محاضرات فى الفن الإسلامي ص ٣٢، القاهرة ١٩٥٥،

عبد الفتاح عبادة: انتشار الخط العربي فى العالم الشرقي والغربي، ط القاهرة ٥:١٩.

قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى
الظالمون إلا كفورا ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات
فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى
مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات
والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا فأراد أن يستفزهم
من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبني إسرائيل
اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا وبالحق
أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا
وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل
آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم
يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا
لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا قل
ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى
ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا
وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن

ورقة من المصحف الذى كتبه عليٌّ بن هلال المعروف بابن البواب، سنة ٣٩١هـ

(محفوظة فى خزانة جستر بيتى بدبلن ـــ أيرلندا)

الباب الثاني

العربية: صراعها وانتشارها

الفصل الأول العربية
عوامل صراعها ونشأة لهجاتها

الفصل الأول العربية
عوامل صراعها ونشأة لهجاتها

أولاً: عوامل صراعها

خرجت اللغة العربية من موطنها الأصلي وانتشرت في الأقطار والأمصار المفتوحة شرقًا حتى سور الصين، وغربا حتى الأندلس وجنوب أوربا، وقد أدت الفتوحات إلى امتزاج العرب المسلمين واحتكاكهم بأهل هذه الأقطار ولغاتهم المختلفة، وقد تحقق للعربية الانتصار والانتشار لعدة أسباب منها[1]:

١- إقبال أهل البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، ومن ثم تعلم العربية لممارسة الشعائر الإسلامية، ومن لم يعتنق الإسلام أراد أن يتقرب إلى الحكام ويجد طريقًا إلى العمل الإداري، ولن يتسنى له ذلك إلا بتعلم اللغة.

---

(١) انظر: ص ١٢٧ من الدراسة.

٢- ازدياد عدد المهاجرين مع الجيوش الفاتحة إلى الأمصار المفتوحة، فلم تعد العربية محصورة في شبة الجزيرة، وإنما خرجت من موطنها الأصلي إلى آفاق رحبة بعد أن كانت داخلة في منطقة محدودة.

٣- إزدياد عدد الناطقين بالعربية نتيجة لهذين العاملين، فلم تعد العربية تجري على ألسنة العرب المسلمين فقط، وإنما امتد ذلك ليشمل أهل البلاد المفتوحة الذين امتزج بهم الشعوب.

لقد دخلت العربية في صراع مع لغات الأمصار والأقطار المفتوحة وخضعت مع هذه اللغات لقوانين خمسة تحكم مثل هذا الصراع:

١- أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وأقوى سلطانًا ونفوذًا.

٢- أن تدوم غلبته وقوته فترة كافية.

٣- أن يقيم بصفة دائمة جالية أو مجموعة لغوية يعتد بها في بلاد الشعب المغلوب.

٤- أن يمتزج الشعب الغالب بأفراد الشعب المغلوب.

٥- أن تكون اللغتان من أسرة لغوية واحدة.

وقد توافرت جميع هذه الشروط بالنسبة للعربية في صراعها مع اللغات السامية في البلاد المفتوحة مثل الآرامية، والقبطية والبربرية، ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلاف الشرطين الأول والخامس، ولم تقو على التركية لاختلاف الشروط الثلاثة الأخيرة، ولم تقو على الأسبانية لاختلاف الشروط الثاني والثالث والخامس.

يرى علماء اللغة أن الصراع اللغوي ينشأ عن عاملين أساسيين:

أولا: نزوح عناصر أجنبية تتكلم لغة غير لغة المكان الذي نزحت إِلَيهِ، وذلك على أثر فتح أو هجرة، ، فتتغلب إحدى اللغتين على الأخرى، وتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم، ونلاحظ في هذه الحالة ما يلي[(١)]

١- إن اللغة التي تم لها الانتصار والغلبة لا تخرج سليمة من هذا الصراع، فنجدها تقتبس الألفاظ الداخلية من اللغة المغلوبة، فلم يجد العرب المسلمون

(١) انظر: د. على عبد الواحد وافي: علم اللغة عن ٢٢٩ وما بعدها ط دار نهضة مصر.

حرجا في استعارة بعض الكلمات الأعجمية في مجال أدوات الحضارة، ويعرض لنا الجاحظ في البيان والتبيين كثيرا من الكلمات الفارسية التي دخلت العربية وجرت على ألسنة أهل الكوفة الذين خالطوا الفرس مثل: بال، أي: المسحاة، الباذورج، أي: البقلة الحمقاء، وجهار سوك، أي: ملتقى أربع طرق، ووازار، أي: السوق، وخيار، أي: القثاء[١]، ونجد هذا التأثير يمتد إلى داخل الجزيرة موطن العربية فعرف أهلها الخريز بمعنى البطيخ، الرزدق، بمعنى السميط، والشطرنج وغير ذلك[٢]، ولم يقتصر استخدام هذه الألفاظ على لغة الحياة اليومية، بل نجدها في اللغة الفنية عند الشّعراء، ومثال ذلك ما نراه عند جرير الذي استعمل كلمة الروذق الفارسية بمعنى الحمل المنتوف وبره بعد سلقة، وكلمة البيذق بمعنى الشئ التافة، جاءت هذه الكلمات في هجاء جعثن اخت الفرزدق قائلاً[٣]:

---

[١] البيان ١:١٩.

[٢] البيان ١:١٤٣.

[٣] النقائض ص ٨٤٥.

لا خير في غضب الفرزدق بعدها
سخلو عجانك سلخ جلد الروذق
سبعون والوصفاء مهر بناتنـ ـا
إذ مهر جعثن مثل حر البيذق

هكذا نجد كيف أثرت الفارسية اللغة المغلوبة في اللغة العربية الغالبة، نجد قريبا من هذا المثال ما أثرت فيه الفرنسية لغة الفاتحين النورمانديين الذين أغاروا على بلاد الإنجليز في القرن التاسع عشر الميلادي وعلى الإنجليزية، فاستعارت كلمات تدل على الحيوانات المأكوله لحما في مقابل الكلمات ذات الأصل الجرماني التي تدل على الحيوانات الحية كما يلي:

الحيوان الحي: الغنم، عجل، ثور، خنزير Sheep, calf, prok

لحم الحيوان: غنم، عجل، ثور، خنزير Moutton, Veral, Beef, Pork

نجد الأفاظ الدخيلة التي تقتبسها اللغة المغلوبة من اللغة الغالبة، ينالها كثير من التحريف في أصواتها

ودلالتها وطريقة نطقها، ويظهر ذلك في الكلمات الإنجليزية التي اقتبستها من الفرنسية:

Moutton, Veau, Boeuf ⟶ Motton. Veal Beaf.

٢- في حالة عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وبقاؤهما معا، ومثال ذلك اللغة العربية التي لم تقو على الانتصار على الفارسية على الرغم من فتح العرب لفارس وبقائها تحت سلطانهم ، لأن العرب الفاتحين لم يكونوا أرقى حضارة من الفرس، ولقلة عدد العرب الفاتحين بفارس، واللغة التركية لم تقو على التغلب على أي لغة من لغات الأمم التي غزاها الأتراك وظلت خاضعة للإمبراطورية العثمانية فترة من الزمن في أوربا والبلاد العربية، فقد كان الأتراك أقل ثقافة وحضارة كما كانوا قليلي العدد، ولم يختلطوا بأهل البلاد المفتوحة، ولكن هذا لا يعني أن التركية لم تؤثر في هذه اللغات فنرى الكلمات التركية في اللغة المصرية، مثل: أودة، قوطة، طورشي، ودخول قاعدة النسبة التركية بإضافة الجيم والياء إلى آخر الكلمة العربية: عربجي، وجزمجي،

قهوجي، واللاحقة خان بإضافة الهاء لاسم المكان
مثل كتبخانة، أجزخانة، سلخانة، أنتيكخانة.

ثانيا: تجاور شعبين مختلفة اللغة يتيح فرص الاحتكاك والصراع اللغوي الذي ينتهي إلى إحدى النتيجتين السابقتين ، إما أن تنتصر لغة على أُخرى، وإما لا تقوى إحداهما على الأُخرى فتعيشان معا، ونرى موقف اللغة العربية في الحالة الأولى مع اللغات السامية مثل: الآرامية والقبطية والبربرية حيث تمت الغلبة تماما للعربية التي أصبحت لغة أهل البلاد التي عرفت هذه اللغات، كما أصبحت لغة الحياة اليومية والتعامل، إلى جانب أنها كانت لغة الدين والعلم والأدب، وموقفها في الحالة الثانية مع اللغة الفارسية التي قاومت العربية، ولم تنهزم أمامها بوصفها لغة التعامل في الحياة اليومية، وفي الوقت نفسه ظلت اللغة العربية في بلاد فارس لغة الدين الذي تمارس به الشعائر الدينية، ولغة العلم التي يؤلف به العلماء مصنفاتهم، ولغة الأدب التي ينظم بها الشّعراء شعرهم، ويكتب بها الآدباء مؤلفاتهم[١].

---

[١] انظر: تعريب بلاد فارس بالفصل الثاني من الباب الثالث من الدراسة.

ثانيا: عوامل نشأة لهجاتها

يمثل عامل سعة انتشار اللغة سببا في تشعبها إلى لهجات مختلفة، ومتى انتشرت في مناطق واسعة من الأرض وتكلمت بها جماعات يستحيل عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى؛ فتتحول إلى لهجات متعددة متأثرة بالأصل الأول، وكلما ازدادت بعدا عن هذا الأصل تحولت إلى لغات مستقلة، ومثال ذلك ما حدث للغة اللاتينية التي تشعبت إلى لهجات مختلفة تحولت إلى مجموعة اللغات الأوربية المعروفة وهي: الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية، الرومانية، ونجد العربية تتفق مع اللاتينية في تشغيلها إلى لهجات متعدد نتيجة اتساع رقعة عدد المتكلمين بها، وهي اللغة الحجازية في شبه الجزيرة، والعراقية الشامية والمصرية والسودانية والمغربية، ولكنها تختلف معها في أن هذه اللهجات لم تتحول إلى لغات لالتزام أصحاب هذه اللغات بالعربية المشتركة أو ما اصطلح عليه باللغة الفصحى في مقابل العامية، وهي اللغة التي حافظ عليها القرآن الكريم واستعملت في المجالات الدينية والأدبية والعلمية.

ونجد عوامل أُخرى تعمل على تشعب اللغة إلى لهجات منها:

العامل السياسي: الذي يتمثل في استقلال بعض المناطق التي انتشرت فيها اللغة وضعف السلطان المركزي للغة مما يؤدي إلى تفكك الوحدة السياسية وقيام الدول ذات الكيان المستقل كما حدث للغات الأوربية المتشعبة عن اللاتينية.

العامل الجغرافي: الذي يتمثل في اختلاف البيئات التي تجري فيها اللغة على ألسنة أصحابها، نلاحظ هذا بالنسبة للعربية ولهجاتها في البيئات الصحراوية والحضرية والساحلية، كما نجد فواصل جغرافية مثل الجبال والأنهار تعزل الجماعات اللغوية وتعمل هذه الفواصل على تميز كل جماعة بلهجة خاصة بها.

العامل الثقافي: نعني بالجانب الثقافي ما تتميز به الجماعة اللغوية من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية، إلى جانب انتمائها إلى أصول عرقية مما يؤدي إلى نشأة لهجة متميزة بها، كما نجد هذا في لهجة سكان النوبة وواحات سيوة في مصر.

تقسم اللهجات إلى لهجات أو أقليمية Local Dialect وهي التي تجري على ألسنة جماعة لغوية واحدة في منطقة محددة، ويتمثل ذلك عادة في لهجات الشمال والجنوب، كما نرى في لهجتي الوجه البحري والوجه القبلي في مصر واللهجات الاجتماعية Social Dialect ونعني بها اللغة التي تجري على ألسنة طبقة أو فئة من المتكلمين تتميز بمستوى علمي واقتصادي يترك أثره على طريق التفكير والكلام، وكلما كثرت الفوارق بين الطبقات كلما ظهرت هذه السمات اللهجية في ممارسة كل طبقة للغة[1].

نجد بعض اللهجات تتمتع بالسيادة على اللهجات الأخرى كعوامل ثقافية وسياسية وجغرافية، كما نرى في سيادة لهجة القاهرة على لهجات شمال وجنوب مصر، وسيادة اللهجة المصرية على اللهجات العربية لهذه العوامل أيضا، فالقاهرة ومصر مركز الثقافة والعلم، ومقر الحكومة والعاصمة السياسية للعالم العربيّ، والقاهرة تتمتع بالمركز الجغرافي على المستوى المصري والعربيّ.

---

[1] انظر: ص ١٠٣ من الدراسة.

وكما سبق أن ذكرنا أن اللهجة قد تتفوق على لهجة أُخرى وتتغلب على اللهجات الأُخرى في الإقليم الواحد، وتتحول إلى لغة قومية لعوامل ثقافية وسياسية وجغرافية إلى عوامل أُخرى دينية وأدبية، ونرى أمثلة لذلك في اللغات الأوربية مثل: الفرنسية، والإيطالية والألمانية.

تعرف اللغات الإنسانية ومنها العربية ثنائية الفصحى والعامية، تستعمل الأولى عادة في الكتابة وتستعمل الثانية في المحادثة، ونتعلم الأولى عن طريق الدراسة، ونكتسب الثانية عن طريق السماع، ويبدو أن هذه الظاهرة سنة طبيعية، وقانون تخضع له كل لغة، وإن كانت تختلف كل لغة في هذا الأمر عن الأُخرى، فالفرق بين الفصحى والعامية في كثير من اللغات الأوربية لم يصل إلى الفروق التي تعرفها العربية بين الفصحى والعامية لحداثة العهد بالنسبة لنشأة هذه اللغات.

إن المعيار الذي يجعل مستوى لغويا ما يتصف بأنه عامية أو فصحى يعتمد على موقف الجماعة اللغوية منه، فليس في بنية اللهجة أو اللغة ما يحتم تصنيفها هذا التصنيف، ولكن مجالات الاستخدام هي التي تحدده، فالمستوى اللغوي الذي يستخدم في دور العلم ومجالات الثقافة والأدب هو ما

يصنف اجتماعيا بأنه فصيح أو لغه فُصحى، والمستوى اللغوي الذي يقتصر استخدامه على مجالات الحياة المختلفة والتعامل اليومي في المنزل والسوق والمقهى، وبين الأهل والأصدقاء هو ما يصنف اجتماعيا بأنه عامية أو فصحى.

يمكن تعريف اللهجة بأنها "مجموعة من الصفات الصوتية التي تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة"، وتكاد تنحصر هذه الصفات التي تتميز اللهجة عن الأخرى في الاختلاف الصوتي في المقام الأول، إلى جانب الصفات الصرفية هذه الصفات الصرفية التي تتعلق ببنية الكلمات، والصفات الدلالية التي تتعلق بمعاني الكلمات، وكلما كثرت بعدت اللهجة عن اللغة الأم أو الأصل الذي عنه تشعبت، وتصبح لغة قائمة مستقلة بذاتها.

لقد فطن القُدماء إلى تشعب العامية عن اللغة الفصحى، واصطلحوا على تسمية هذا التشعب الذي كان يمثل من وجهة نظرهم خطئًا لغويا باللحن[١] ، ونجد ابن خلدون ت ٨٠٨ ت هـ يتحدث عن عامية المجتمعات العربية البدوية في زمنه قائلاً.. إننا نجد هذه اللغة في بيان المقاصد والوفاء

---

[١] انظر: ص ١٠٨ من الدراسة وما بعدها.

بالدلالة على سنن اللِسان المصري (يقصد بذلك العربية الفصحى لغة مصر) ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد، وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدان العرب (يقصد البدو) ومذهبهم لهذا العهد، ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة وأهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم على التخفيف، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللِسان العربي فسد، اعتبارا بما وقع من أواخر الكلم من فساد الإعراب لهذا العهد ذهبت وأن اللِسان العربي فسد، اعتبارا بما وقع من أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه، وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم، وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزد في موضوعاتها الأولى، والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الإبانة موجودة في كلامهم ولهذا العهد، وأساليب اللِسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم، ولم يفقد من أحوال اللِسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في ِلسان مضر طريقة واحدة، ومهيعا معروفًا وهو

الإعراب، وهو بعض أحكام اللِسان، ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللِسان العربي لهذا العهد "يقصد اللهجات العامية المستخدمة لعهده في المجتمعات البدوية في التخاطب" واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أُخرى موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها"[١].

يشير كلام ابن خلدون إلى أهم سمة للعامية وهي تجردها من حركات الإعراب التي تلحق أواخر الكلمات التي تنطق ساكنة الأواخر، وكما سبق أن أشرنا أن الجانب الصوتي يمثل السمة الأولى الفارقة بين الفصحى والعامية، ويتمثل ذلك في العربية في تناسخ الأصوات الصامتة وتناوب الأصوات المتحركة في بنية الكلمات.

تناسخ الأصوات الصامتة: ونعني به انحراف الأصوات متحدة أو قريبة المخرج عن مخرجها الأصلي، وحلول بعضها محل بعض، نجد الصوت يتحول إلى صوت آخر، فالثاء تتحول إلى تاء في كلمات مثل: تو – تور ، ثوم- توم، ثعبان – تعبان، والسين تتحول إلى صاد في

---

[١] ابن خلدون ٤:١٣٩٠، تحقيق" د. على عبد الواحد وافي.
نقلاً عن كتاب فقة اللغة ص ١٥٥، ط٨ دار نهضة مصر.

كلمات مثل: ساخن – صاخن، ساطان – صاطان ، والصاد تتحول إلى سين في كلمات مثل : يصدق – يسدأ، مصير – مسير، والضاد تتحول إلى ظاء في كلمات مثل: وضوء – وظوء، يضرب – يظرب، وتتحول اللام إلى ميم في كلمات مثل: اسماعيل – اسماعين، فنجال – فنجان، وتتحول الميم إلى نون في كلمات مثل: فاطمة – فاطنة، ومن هذا القبيل أيضا إدغام النون في الصوت الذي بعده في: بنت – بت، كنت – كت، كما نجد الصوت الواحد قد ينسخ بصوتين كاملين مثل صوت الذال ينسخ بصوت الدال في كلمات مثل داب، دراع، دهب، دبح، كما ينسخ صوت الزاي في كلمات مثل: زهن، زنب، زكي، وصوت الظاء ينسخ بصوت الضاد في كلمات مثل ضفر، ضل، ضهر، كما ينسخ بزاي مفخمة مثل: زالم ، زريف، حز.

وصوف القاف ينسخ بصوت الهمزة في كلمات مثل: أل، أُط ، ألب، كما ينسخ صوت الجيم كما نرى في الكلمات نفسها: جال، جط، جاب، كما ينسخ صوت الهمزة بصوت الواو في أول الكلمة كما في هذه الكلمات: أذن – ودن ، أين – وين، أدى – ودى، وكثيرا ما يسقط في وسط الكلمة وهو

ما يعرف بتسهيل الهز كلمات مثل: كاس، فاس، راس. من هذا القبيل حذف بعض الأصوات في آخر الكلمات مثل: ولد – ول، محمود – محمو ، محمد – محم، أو تطويل الصوت المزودج aw, ai في كلمات مثل: بيت – بِيت، عين ـ عِين، موت ـ موت،.

تناوب الأصوات المتحركة: يتمثل ذلك في استبدال الفتحة بالكسرة أو الضمة في الكلمات كما يلي: يسمع ـ يِسمع، سكَتَ – سِكِتْ، كَبير – كِبير، يسجد – يِسجِد، سكَتَ – سكُتْ.

أو استبدال الكسرة بالضمة والفتحة: ياطِم – ياطُم، يضرب – يِضرب، يسرق – يِسرأ، عِنْد – عنْد.

أو استبدال الضمة بالفتحة والكسرة: محمد – محمد، تُعبان – تِعبان، يقتُل – يِئتِل، يذُم – يِزِم، ضفْر – ضفر.

نجد من الملامح الصرفية والتركيبية في اللهجة المصرية ما يلي:

يكون النفي بوضع الفعل أو الضمير بين ما والشين مثل:

هـ و – ماهوش، فيه – مافيش، آل – ما آلش.

يكون التصغير كما يلي: صغير – صغَير ، قَريب – ءُريب، قليل – إلّيل، رفِيع – رفَيع، قَصير – ءُصير.

ومن الملامح الصرفية والتركيبية في اللهجات العربية التعبير عن الزمن الحاضر المستمر في اللهجة المصرية كما يلي: بِيكْتِب، وفي اللهجة الشامية: عم يِكْتُب، وفي اللهجة المغربية: كيكتب، والتعبير عن الزمن المستقبل في اللهجة المصرية: راح يِكْتِب، واللهجة المغربية: راه يكتب.

والتعبير عن الملكية تستعمل اللهجة المصرية كلمة: بِتاع المحرفة من متاع فتقول: بِتاعِي أي مِلْكِي، وبِتَعِتِي للمؤنث، واللهجة الشامية تستعمل كلمة: تَبع، فتقول: تَبعِي أي مِلْكِي، وتَبعِتِي للمؤنث، واللهجة العراقية تستعمل كلمة: مال، فتقول: مالي أي مِلكي، ومالتي للمؤنث، واللهجة المغربية تستعمل كلمة: ديال، فتقول: ديالي أي: مِلكي، وديالتي للمؤنث، واللهجة السعودية تستعمل كلمة: حق، فتقول، حجي أي مِلكي، وحجتي للمؤنث.

الفصل الثاني

اللحن: مظاهره ومواجهته

الفصل الثاني

اللحن: مظاهره ومواجهته

سبق أن عرفنا صورا من الاختلاط الذي تم بين العرب المسلمين الذين خرجوا من شبه الجزيرة وأهل البلاد المفتوحة، وأنهم عاشوا جميعا حياة مشتركة استخدم فيها العرب أهل البلاد الذين قدموا لهم خدماتهم، كما أن العرب قد أصهروا لهم فاتخذوا زوجاتهم من السراري والجواري، ونشأ جيل جديد من هؤلاء الأمهات، ونتيجة لهذا الاختلاط ظهرت لغة مولدة هي لغة التعامل التي أشرنا إليها من ناحية، كما ظهرت الأخطاء على ألسنة أهل هذه البلاد والجيل الجديد والتي اصطلح على تسميتها باللحن[(١)]. وقد كانت هذه الأخطاء وراء ظهور اللغويين والنحاة منذ القرن

---

(١) اصطلح علماء اللغة والنحو على استعمال هذا المصطلح إشارة إلى الخطأ فى اللغة فى وقت متأخر والمعنى اللغوي للفظ اللحن: الميل والتحول الذي يؤدي إلى الخطأ والانحراف، وقد اشتهر لفظ اللحن بالخطأ اللغوي والغناء وبمعنى التورية، وقد ظهر هذا المصطلح فى القرن الثاني عندما تنبه النحاة واللغويون إلى الانحراف فى النطق على ألسنة الأعاجم، انظر: فوك: العربية، ملحق مادة ل ح ن: ص ٢٣٥: ٢٤٦.

الأول للهجرة، الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية دفع هذه الأخطاء وتنقية اللغة مما دخلها من فساد.

لقد جرت هذه الأخطاء على ألسنة الشّعراء من فصحاء الموالي الذين لم ينجحوا في التخلص من لكناتهم ومن هؤلاء زياد الأعجم الذي كان يلْحِن إذا أنشد شعره فيبدل العين همزة والطاء تاء والسين شينًا، ويروى أنه أنشد هذا البيت:

فتى زاده السـلطان في الـود رفعة
إذا عير السلطان كل خليل

هكذا زاده الشلتان[1]، وإلى جانب هذا اللحن الصوتي نجد اللحن الإعرابي في قوله:

إذا قلت قد أقبلتْ أدبرت كمن ليس غادٍ ولا رائح

وكان الصواب أن يقول: ليس غاديا ولا رائحا[2].

---

(1) البيان: ١:٧١.

(2) الشعر والشعراء: ١:٢٩٨.

تذكر لنا كتب اللغة والأدب أن اللحن لم يجر على ألسنة الأعاجم المستعربين فقط، وإنما شمل هؤلاء العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة وانفصلوا عن قبائلهم، وامتد ذلك إلى الطبقة الحاكمة، وهكذا تفشى اللحن على ألسنة العامة والخاصة، ينقل لنا الجاحظ تحذير الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لأبنائه من اللحن الذي وصفه بأنه في كلام الشريف أقبح من آثار الجدري على الوجه، وأقبح من الشق في الثوب النفيس[1].

كما ينقل عنه ابن عبد ربه قوله: "الإعراب جمال للوضيع، واللحن هجنة للشريف"[2]، ولم تفلح نصائحه في تأديب ابنه الوليد الذي تناقلت أخطائه كتب اللغة والأدب[3]. قائلاً: أضر بنا في الوليد حبنا له فلم نلزمه البادية" لقد كان وقْع اللحن في نفس العربي وقعا أليما كما ترى في قول عبد الملك لأبنائه، فهذا مسيلمة بن عبد الملك يقول: "إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن انصرفت

---

(1) البيان ٢:٣١٦ ، العقد: ٢:٤٨٧

(2) العقد الفريد: ٢:٤٧٩.

(3) تذكر هذه الكتب هذه العبارة: كان الوليد- أنا، قدامة: نقد النشر: ١٢٣، العقد: ٢:٤٨٠، صبح الأعشى: ١:١٦٨.

نفسي عنها"[1] ، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز لا يطيق أن يسمع في محيطه خطأ لغويا أيا كان"[2].

لقد كان هذا اللحن الذي يجري على الألسنة يظهر في ثلاثة صور:

١- اللحن الصوتي: يتمثل في انحراف بعض الأصوات عن مخرجها الذي يجب أن تخرج منه على ألسنة المتكلمين، الذين صعب عليهم التخلص من عاداتهم الصوتية في لغاتهم الأم، وقد سبق أن أشرنا إِلَيهِ، ومن أمثله هذا اللحن ما ذكره الجاحظ من أن عبد الله بن زياد كان ينطق الهاء بدلاً من الحاء ، والهمزه بدلاً من العين، روي أنه قال لهانِئ ابن قبيصة: "أهروى سائر اليوم"، يريد: أحروري[3].

٢- اللحن الإعرابي: يظهر هذا اللحن في صورة إسقاط حركات الإعراب أو الخَطأ في إثباتها، ونجد روايات كثيرة تشير إلى هذا النوع، الذي كان من الأسباب التي دعت أبا الأسود إلى وضع علامات

---

[1] البيان: ٢:٢١٩.

[2] فوك: العربية: ص ٢٨.

[3] البيان: ١:٧٢، ابن قتيبة: عيون الأخبار: ٢:١٥٩.

الإعراب عندما سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿إن الله بريءٌ مِن الْمشْرِكِين ورسولِهِ﴾ التوبة/٣ ، بكسر لام رسول، فقال: "ما ظننت أن أمر الناس قد صار إلى هذا الحد"[١].

٣- اللحن الدلالي: يتمثل هذا الشكل من اللحن في استعمال الألفاظ العربية في غير موضعها، فيذكر الحافظ أن عبيد الله بن زياد أمر جنوده ذات يوم قائلاً: "افتحوا سيوفكم"، يريد: سلوا سيوفكم، ونجد الشاعر يزيد بن مفرغ يهجوه بخطأه هذا قائلاً[٢].

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك للضياع

كما يتمثل اللحن الدلالي أيضا في استعمال الألفاظ الأعجمية التي طغت على الألفاظ العربية، يشير إلى ذلك الجاحظ قائلاً: "ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا ألفاظًا من ألفاظهم ولذلك يسمون

---

(١) ابن النديم: الفهرست: ص ٤٠.
(٢) البيان: ٢:٢١٠.

البطيخ: الخريز، وأن أهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها مربعة، ويسميها أهل الكوفة الجهار سوك، والجهار سوك بالفارسية، ويسمون القثاء: خيارا، والخيار بالفارسية"[1].

لقد كان هذا جديرا بأن يحول العربية إلى لهجات متباينة، بل أن يضعف من شأن العربية في هذه المرحلة المبكرة من انتشارها في الأقطار التي فتحها المسلمون لولا توفر عدة عوامل حفظت العربية وحافظت عليها، منها:

القرآن الكريم: الذي تُرتل آياته في كل صلاة، زود العربية بحصانة منعة على المستويين الصوتي والإعرابي، كما كانت اللغة التي حفظها القرآن وتمثل معجزة الفن القولي هي الصورة المثلى التي يجتذبها الكتاب والأدباء، وكان لهذا العامل من القوة التي مكنت العربية من الوقوف أمام كل الوسائل التي تنحرف بها.

الجزيرة العربية: ظلت الجزيرة العربية مهد اللغة الأولى تمثل خط الدفاع الثاني عن العربية لهجرات قبائلها المتصلة إلى الأمصار والمدن المفتوحة، كما كانت تمثل

---

[1] البيان: ١:٢٠.

الإمداد اللغوي المماثل للإمداد العسكري لتوطيد الموقف اللغوي إلى جانب السلطان العسكري. وقد استمرت قبائل الجزيرة العربية تمكن للعربية وتحميها لأنها نفسها حافظت على سلامة لغتها بعد هجرتها، حتى أننا نجد المستشرق الألماني، فوك يقول: "كانت هجرة القبائل العربية إيذانًا بشروق عصر جديد للغة العربية، ففي مدة عشرات من السنين حملت قبائل البادية في غزوات الفتح لغتها، ولم تكد تمضي مائة عام على وفاة محمد حتى امتدت الدولة إلى سفوح البرانس في الغرب، وإلى أواسط آسيا على شواطئ نهر الهند في المشرق، وهذا النفوذ الذي بلغته العربية امتد إلى مناطق كانت تستوطنها لغات أُخرى"، ويستطرد قائلاً: " ولقد احتفظت كثير من القبائل البدوية في البلدان التي استولت عليها بطريقة حياتها البدوية وحافظت كثير من القبائل البدوية في البلدان التي استولت عليها بطريقة حياتها البدوية وحافظت بذلك على سلامة لغتها، ولهذا كان لا يزال ممكنًا في أوائل العهد العباسي أن يلاقي المرء من جنوب البرتغال في الغرب إلى خراسان في الشرق قبائل عربية،

وأن يسمع من أفواهها عربية بدوية خالصة لا تشوبها هجنة ولا عجمة.."[1].

لقد كانت الجزيرة العربية المنبع الذي يستقي منه العربية الفصيحة، فنرى الخلفاء والطبقات الحاكمة ترسل أبنائها إلى البادية يتعلمون العربية من أفواه أصحابها الأصليين، كما كانوا يستقدمون المؤدبين منها، وفعل ذلك علماء اللغة والنحو لجمع ألفاظ اللغة ووضع قواعد النحو، كما رحل إليهم الأعراب يحملون إليهم بضاعتهم اللغوية، وتفيض كتب الإعراب واللغة بأخبار هؤلاء.

جهود العلماء لمواجهة اللحن:

عرفنا أن ترك التصرف الإعرابي كان من أهم ما أصاب العربية التي كان ينطق بها الأعاجم المتعربين وبعض العرب المهاجرين، ولم يكن إهماله يعني فقط انحرافًا لفظيا في النطق، وإنما انحرافًا دلاليا وخطأ في المعنى، تذكر لنا كتب اللغة والأدب عن أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٨هـ) أنه حين سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿إن اللهَ بريءٌ مِن المشْركِين ورسولِهِ﴾ التوبة/٣، بكسر لام رسول، قال: ما ظننت أمر

[1] فوك: العربية: ص ٧.

الناس آل إلى هذا"، كما تذكر هذه الكتب دوره الهام والرائد الذي قام به ليعصم آيات القرآن من الخَطأ والتحريف، ويقوم ألسنة القراء نحو القراءة الصحيحة، وتهذيب العادات النطقية التي أفسدها اللحن.

لقد وضع أبو الأسود حجر الأساس لقواعد العربية بوضع نقط الإعراب، وقال له: "إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإذا ضممت فمي في حرف فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرته فاجعل النقطة من تحت الحرف، وإن سمعت غُنة فضع نقطتين"[1].

يعتبر صنيع أبي الأسود هذا تبينًا للصورة الأساسية التي يجب أن يحاكيها اللِسان العربي حين يقرأ آيات القرآن أو يتكلم العربية، وهي القواعد التي تقيم العلاقات الدلالية بين الكلمات التي أصبحت فيما بعد الأساس الذي قام عليه النحو العربِيّ، كما كان هذا الصنيع رد فعل لمدى انتشار اللحن الذي أهمل التصرف الإعرابي، ووسيلة لمقاومة الاتجاه نحو إهمال ضبط أواخر الكلمات بالحركات.

---

[1] السيرافي: أخبار النحويين البصريين: ص ١٦، الفهرست: ص ٤٠.

يأتي نصر بن عاصم (ت ٨٩هـ) تلميذ أبي الأسود ليستكمل عمل أستاذه بوضع نقط الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة بالمخالفة بين نقطها لتشابه هذه الحروف في الرسم، وما ينتج عن ذلك من لحن تصحيفي بدأ في قراءة كلمات القرآن المتشابهة رسما، وامتد ذلك إلى المصنفات التي ألفت في علوم اللغة والدين[1].

نجد صنيع أبي الأسود في وضع حركات الإعراب يخرج من دائرة القراءة المحدودة إلى دائرة واسعة لتشمل كلام المتكلمين وإنشاء المتأدبين ونظم الشّعراء على يد بعض العلماء بعد أبي الأسود، وكان هذا إرهاصا لعلم جديد يضع لهؤلاء القواعد التي تميز بين الصحيح والخاطئ من الاستعمالات اللغوية، ويأتي بعد أبي الأسود عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت: ١١٧هـ)، كما يذكر ابن سلام الجمحي أنه أول من بعج النحو ومد القياس والعلل"[2]، كما تروى لنا بعض كتب الأدب واللغة كيف أنه بدأ بغرض

---

(١) نجد نوعاً من المصنفات ألفت فى هذا المجال، انظر: أبو عمرو الدافي: المحكم فى نقط المصحف، أبو أحمد العسكري خال أبى هلال العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف.

(٢) طبقات الشعراء: ص ٦.

سلطان النحاة على كبار الكتاب والشّعراء، وخصومته مع الفرزدق مشهورة حيث هجاه بهذا البيت:

فلو كان عبد الله مولى هجوته

ولكن عبد الله مولى مواليا

ردا على ما كان من نقد عبد الله لبيت الفرزدق الذي يقول فيه:

على عمائمنا تُلقى وأرجلنا

على زواحف تزجى مخها رير

حيث ارتكب الإقواء مبدلاً كسرة القافية بضمها، فاضطر الفرزدق إلى تغيير البيت بقوله: زواحف تزجيها محاسير.

ومع قسوة الشاعر في هجائه، فإن أبا إسحاق بنقده مرة ثانية في الخَطأ الذي وقع فيه، إذا كان عليه أن يقول مولى موالٍ[1].

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل نجد بعض النحاة مثل أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، وهو أحد القراء السبعة، يرجح بعض القراءات القرآنية لكي تتسق مع قواعد هذا العلم

---

[1] الشعر والشعراء: ص ١٦.

الجديد، فيرجح قراءة: (إن هذين لساحران) على قراءة : إن هذَانِ لَساحِران طه/ ٦٣، ويرجح كلمة "أكون" بدلاً من: أَكُن في قوله تعالى: لَولا أَخرتَنِي إِلَى أَجلٍ قَرِيبٍ فَأَصدقْ وَأكُن مِن الصالِحِين المنافقون/ ١٠، تسجل لنا كتب اللغة والأدب حرص هؤلاء النحاة على الالتزام بالإعراب لتجنب كل مظاهر اللحن حتى ولو كان ذلك على حساب ضياع الحقوق، يروي لنا الجاحظ بعض القصص الطريفة، فينقل عن الأصمعي قوله: خاصم عيسى بن عمر النحوي (ت: ١٤٩هـ) رجلاً إلى بلال بن أبي ردة فجعل عيسى يتتبع الإعراب، والرجل ينظر إِلَيهِ، فقال له بلال: لأن يذهب بعض حق هذا أحب إِلَيهِ من ترك الإعراب، فلا تتشاغل به واقصد لحجتك"[١].

ومن هذا القبيل قول الجاحظ: "قدم رجل من النحويين رجلاً إلى السلطان في دينٍ له عليه، فقال: أصلح الله الأمير: لي عليه درهمان، فقال خصمه: لا والله أيها الأمير، إنها لثلاثة دراهم، ولكن لظهور الإعراب ترك من حقة

---

[١] البيان: ٢:٢١٨.

درهما"[١]، لقد كان النحاة أنفسهم يلتزمون بالإعراب ويخشون الوقوع في اللحن، وإن كان بعضهم وقع فيه أحيانًا، فقد أُخِذَ على الفراء (ت ٢٠٧هـ) أنه لحن بمحضر هارون الرشيد، وأنه اعتذر عن ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالإعراب عند أهل البادية[٢]، وقد نشط النحاة واللغويون في حركة تنقية اللغة العربية بتتبع اللحن على ألسنة العامة والخاصة، وصنفوا في ذلك مصنفات حول الاستعمال اللغوي الصحيح، بدأت بالكسائي والفراء وثعلب[٣]،

سلطان الحكام في مواجهة اللحن:

تشير كتب الأدب واللغة إلى موقف الدولة الأموية من ظاهرة اللحن التي كانت تهدد العربية، فقد مر بنا تحذير الخليفة عبد الملك بن مروان لأبنائه من اللحن وقوله المأثور:

---

(١) البيان: ٢:٢١٨.

(٢) فوك : العربية ص ٨٦.

(٣) صنف النحاة واللغويون مؤلفات تعالج اللحن بأنواعه المختلفة مثل كتاب الفصيح لثعلب (ت: ٢٩١هـ)، وكتاب البهاء للفراء (ت: ٢٠٧هـ) درة الغواص للحريري (ت : ٥١٦هـ) وتقويم اللسان لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) تثقيف اللسان لأبي بكر الصقلي (ت ٥٠١هـ) .

"إن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه وأقبح من التفتيق في الثوب النفيس"[١]، ودعوته للرعية قائلاً: "تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض"[٢]، تخبرنا هذه الكتب أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان لا يطيق أن يسمع في محيطه خطأً لغويا أيا كان، وكان يصلح ما يعترضه من الأخطاء"[٣]، كما تخبرنا بأن زياد بن أبيه والي العراق كان يدقق في اختيار الكتاب، يروى أنه دخل يوما ديوانه فوجد كتابا فيه "ثلاثة دنان" فسأل: من كتب هذا؟ فأشير إلى رجل، وقيل هذا الفتى، فقال: أخرجوه من ديواننا لئلا يفسده، وامح هذا واكتب أدن[٤]

نجد ما قام به أبو الأسود من نقط الإعراب، وما قام به نصر بن عاصم من نقط الإعجام – كما تذكر بعض الروايات – كان توجيها من كبار رجال الدولة الأموية مثل: زياد والي العراق، والحجاج من بعده.

---

[١] البيان: ٢:٣١٦، العقد ٢:٤٨٧.

[٢] العقد: ٢:٤٧٦.

[٣] البيان: ٢:٢١٩.

[٤] كأنه رأى أن أدنّ كأكُفّ جمع قلة وهو عن الجمع دنان. انظر: الوزراء والكتاب ص ٢٥.

وتتوج الدولة الأموية سلطانها في مقاومة اللحن وإعلاء شأن العربية بهذا القرار الهام الذي أصدره عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) ويعرف بتعريب الدواوين، وهو القرار الذي جعل العربية اللغة الرسمية للدولة الإسلامية الناشئة بعد أن ظلت بعيدة عن الاستخدام الرسمي منذ الفتح الإسلامي، حيث كان التعامل في الدواوين والجهاز الإدارى للدولة باللغات المحلية مثل القبطية واليونانية في مصر، والآرامية في سوريا والعراق، والبهلوية والفارسية الوسيطة في فارس، فكان قرار تعريب الدواوين ذا أثر كبير في نشر العربية وترسيخها، واضطر العاملون في أجهزة الدولة إلى تعلم العربية وأجادتها، وبهذا أصبحت اللغة العربية في أواخر القرن الأول الهجري – السابع الميلادي – اللغة الرسمية للدولة الإسلامية.

لم يقتصر الأمر على ذلك فقط وإنما أصبحت العربية هي لغة الإبداع الفني مما دفع غير العرب من الشعراء إلى تعلم العربية وإجادتها، ومن هؤلاء زياد الأعجم كما يظهر من اسمه الذي كان ينظم شعره بالعربية، وإن غلبت عليه

اللكنة الأعجمية في نطقه العربية، فأهداه أحد الولاة غلاما عربيا لينشد شِعره[١]

[١] الأغاني: ١٣:١٨٩.

الفصل الثالث
لغة التعامل وطبقات المجتمع اللغوي

الفصل الثالث

لغة التعامل وطبقات المجتمع اللغوي

سبق أن أشرنا إلى أشكال الاختلاط الذي تم بين العرب الفاتحين وأهل البلاد، نتيجة لسياسة التسامح التي التزمت بها جيوش العرب نحو أهل هذه البلاد، وقد أدى هذا الاختلاط إلى نشأة لغةٍ تعامل[(١)] يتواصل بها هؤلاء وأولئك انحرفت عن اللغة العربية المشتركة التي حملها العرب المسلمون إلى البلاد المفتوحة.

لقد نشأت هذه اللغة لتكون وسيطًا بين لغة السكان الأصليين ولغة العرب الوافدين على ألسنة فريقين من أهل البلاد، الفريق الأول ممن أسلم واتخذ الإسلام عقيدة ، والعربية لغة، والفريق الثاني الذي عمل في خدمة الجيوش الفاتحة، ونتصور أن الأداء اللغوي لم يكن على مستوى واحد، فغير المسلمين كان هدفهم التواصل مع العرب الوافدين، وقد لا يهتم بنظام اللغة وقواعدها، يمارس اللغة مضطرا بهدف المنفعة المادية، التي لا تدفعه إلى توخي الدقة

---

(١) بمعنى مصطلح لغة التعامل: اللغة المستعملة، من أفراد ينتمون إلى مجتمعين لغويين مختلفين، ويرغبون فى التواصل فيما بينهم لأغراض مختلفة.

والالتزام بقواعد اللغة، أما الفريق الثاني الذي أسلم فقد كانت صلته باللغة عن طريق الدين – وما يفرض عليه من أداء الصلوات الخمس يوميا وقراءة القرآن الكريم – أقوى وأكثر التزاما بقواعد اللغة مما يجعل هذا الفريق يجتهد في الأداء اللغوي حتى لا يقع في الخَطأ الذي يقوده إلى الزلل في ممارسته لشعائر العبادة، ومهما يكن من دور هذين الفريقين في نشأة لغة للتعامل فإننا نجد هذه اللغة تصاب بقدر من الانحراف على ألسنة الفريقين، ومن مظاهر هذا الانحراف كما سبق أن ذكرنا:

الانحراف الصوتي: الذي يتمثل في صعوبة التخلص من العادات الصوتية، ويظهر هذا الانحراف في نطق بعض الأصوات واستبدال أصوات بأُخرى، واختفاء بعضها، يشير الجاحظ إلى ذلك قائلاً: ".. إن النبطي القُحّ يجعل الزاي سينًا، فإذا أراد أن يقول: زورق، قال: سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول:" مشمعل، قال: مشمئل"، كما يقول: "إن الصقيلي يجعل الذال المعجمة دالاً، وإن السندى لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا.."[1].

---

[1] البيان : ١:٧٠، ٧٤.

الانحراف الإعرابي: الذي يتمثل في إسقاط حركات الإعراب لا لصعوبة هذه الحركات فقط، ولكن لأن اللغات التي التقت بها العربية في هذه البلاد الفارسية في المشرق، واليونانية في الشام ومصر والمغرب، كما يقول المستشرق الألماني فوك: "ألم تكن هناك لغة واحدة بين اللغات التي التقت بها العربية في عهد الفتح، كانت محتفظة بنظام تصريفها، ولهذا كان من الشاق العسير على الأجانب الذين اضطروا إذْ ذاك إلى استخدام العربية أن يتابعوا القواعد والنظم المعقدة للنحو العربي القديم، فآثروا التصرف بواسطة أساليب التغيير التقريبية التي اعتادوها في لغتهم الأصلية، وحذفوا حركات الإعراب الأخيرة"[(١)].

نجد أمثلة لهذا النوع من الانحراف الإعرابي مما رواه الجاحظ كقول أبي الجهير الخرساني النخاس حين قال له الحجاج: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان: "شريكاننا في هوازها وشريكاننا في مدانيها، وكما ترجى نكون"، فقال الحجاج، ويلك ما تقول" فقال بعض من كان قد اعتاد سماع الخَطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار بينهم مثل ذلك،

[(١)] فوك: العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب، ص ١٠.

يقول: شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها.."[1]. ويذكر الجاحظ مثالاً آخر فيقول: "قلت لخادم لي: في أي صناعة أسلموا هذا الغلام؟ فقال: في أصحاب سند نعال، يريد: في أصحاب النعال السندية"[2].

إن مثل هذا النخاس والخادم اللذين أشار إليهما الجاحظ صاغوا كلامهم في قوالب من نظام لغتهم الأم ولعل في جواب النخاس الخرساني للحجاج دليل على ذلك، فهو يستعمل الكلمة العربية في قالب فارسي فيجمعها الجمع الذي تعوده في لغته بإضافة الألف والنون، وهؤلاء الذين تحدث عنهم الجاحظ مما لا شك فيه أنهم أمضوا فترة من الزمن يصلحون فيها لغتهم ويقتربون من قواعد العربية وأصواتها إلا أنهم لم يستطعوا التخلص من عاداتهم اللغوية، ويشير الجاحظ إلى ذلك قائلاً:".. وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيرا فاخرا ومعناه شريفًا كريما، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج

---

(1) الجاحظ: البيان ١:١٦١ – ١٦٢.

(2) البيان ١:١٦١.

حروفه أنه نبطي، وكذلك إذا تكلم الخرساني على هذه الصفة فإنك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامة أنه خرساني وكذلك إن كان من كُتاب الأهواز"[1].

نجد المستشرق الألماني فوك يحدد لنا خصائص لغة التعامل قائلاً: ".. إنها لغة استعانت بأبسط وسائل التعبير اللغوي، فبسطت المحصول الصوتي، وصوغ القوالب اللغوية ونظام تركيب الجملة، ومحيط المفردات، وتنازلت عن التصرف الإعرابي، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها، كما ضحت بالفروق بين الأجناس النحوية، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة في مواقع الكلام، للتعبير عن علاقات التركيب.."[2].

لقد سبق أن أشرنا إلى أمثلة تصور تبسيط المحصول الصوتي باستبدال الأصوات وصوغ القوالب اللغوية فيما نقله الجاحظ من كلام النخاس الخرساني، فأما عن إهمال التصرف الإعرابي فإن الجاحظ يذكر لنا أن "مهدي بن هليل أو مهلهل كان يقول: حدثنا هشام مجزومة، ثم يقول: ابن

---

[1] البيان ١:٦٩.

[2] العربية: دراسات فى اللغة ص ٩، ١٠.

ويجزمه، ثم يقول: ابن ويجزمه، ثم يقول: حسان ويجزمه، لأنه لم يكن نحويا وأبى السلامة في الوقف.."[1].

وأما عن إهمال الفروق بين المذكر والمؤنث فإنه إذا لم يكن بين أيدينا شاهد حي في ذلك، فإننا نجد قول بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لكنتها قائلاً:

أول ما أسمع منها في السحر   تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر
والسواة السواء في ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر قالت: الكمر.[2]

إننا يمكن أن نفترض أن لغة التعامل البسيطة هذه كانت أسرع انتشارا وأسهل نموا في البيئات التي عرفت اللغات السامية مثل: الشام، والعراق، ومصر، والمغرب، لأن الانتساب لأصل لغوي واحد يسهل أمر الانتقال من لغة لأخرى داخل الأسرة اللغوية، ويمكن أن نتصور نمو لغة التعامل الدارجة في اتجاهين:

الاتجاه اللهجي: خضعت فيه لغة التعامل للغات المختلفة التي تحدث بها سكان الأقطار والمدن المفتوحة

---

(١) البيان ٢:٢٢١.

(٢) البيان: ٧٣:١: ٧٤.

وتأثرت بلهجاتهم وعاداتهم اللغوية المحلية فتكونت لنا لغة عربية محلية تولدت عنها لهجات مختلفة، يقول المستشرق الألماني فوك: "إن هذه اللغة أخذت فيما يبدو بعض الخصائص المحلية في المدن المختلفة فنشأت اللهجات المتأخرة في المدن الإسلامية.."[1] ، قد كان هذا الاتجاه عفويا متروكًا للسواد الأعظم من سكان الأمصار والمدن المفتوحة.

الاتجاه نحو الفُصحى: حاولت فيه لغة التعامل ترتفع عن اللهجات الأعجمية وعادت السكان اللغوية، وتقترب من العربية الفصحى وأصحابها بالتعليم والممارسة، وقد كان هذا الاتجاه يعتمد على طبقة معينة من السكان نهضت به بتأثير الحماسة الدينية للدين الجديد الذي اعتنقوه، أو بتأثير الطموح الذي يقرب هذه الطبقة من مقاليد الحكم والإدارة، ولن يتحقق ذلك إلا بامتلاك ناصية لغة الحكام والتقرب إليهم، نجد من هذه الطبقة النحاة واللغويين الأعاجم الذين أخذوا على عاتقهم حماية العربية من خطر اللحن، ووضع قواعدها، وجمع ألفاظها وتبين أساليبها البلاغية.

---

[1] العربية دراسات فى اللغة: ص ٩: ١٠.

سبق أن أشرنا إلى مظاهر الاختلاط المختلفة بين العرب المسلمين الفاتحين وأهل البلاد الإصليين، ولغة التعامل تولدت بين الفريقين لتحقيق التواصل بينهما في حياتهم اليومية إلى جانب العربية الفُصحى.. لقد التقى العرب بلغتهم بالأعاجم ولغاتهم في الأمصار والمدن التي فتحوها، وتولدت نتيجة لهذا الالتقاء طبقات لغوية متباينة في أعلاها طبقة عليا من العرب والمستعربين الذين يعملون على تنقية اللغة والمحافظة عليها، وطبقة دنيا تجري على ألسنتها عربية فاسدة لم تستطع أن تتخاص من العادات الكلامية اللغة الأم، وطبقة متوسطة تقف بين الطبقتين في استخدامها للعربية بحكم صلتها بمن فوقها ومن دونها، وتحاول أن تخرج بلغة سليمة بسيطة بقدر ما تستطيع.

الطبقة العليا: كانت تضم الولاة والقواد والمهاجرين العرب الأقحاح الذي جاءوا وافدين على الأقطار والمدن التي فتحوها، وقد عملت هذه الطبقة بحماسة دينية وعاطفة قومية على الحفاظ على العربية والدفاع عنها. أو كما يقول يوهان فوك: "نشأ في أواخر القرن الأول للهجرة مبدأ تنقية اللغة الذي حمل راية المحافظة على خلوص اللغة، فقد برهن

الأمويون على أنهم حماة المبادئ العربية القديمة، روي أن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) كان يحذر أبناءه من اللحن، فإن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه، وأقبح من الشق في ثوب نفيس، ويروى أنه لم يكن يستعمل صيغًا ملحونة حتى في المزاح..[١]

لم يكن العرب الأقحاح الذين يمثلون هذه الطبقة فقط، وإنما كان معهم الموالي من غير العرب الذين حرصوا على العربية واعتزوا بها بدوافع دينية وذاتية تمثل الرغبة في الترقي، ويشير إلى ذلك يوهان فوك قائلاً.. إن المجتمع العربي في عهد الأمويين لم يكن وحده هو الذي يعترف بالعربية على أنها القُدوة الرفيعة، والمثل الأعلى، بل كانت كذلك الدوائر الإسلامية غير العربية (من طبقة الموالي) الملحة في التسامي والتعالي، كانت في سبيل طموحها إلى محاكاة الطبقة السائدة فيما تفعل، تجاري هذه أيضا في الناحية اللغوية، وتحتضن حركة تنقية اللغة العربية، بما في ذلك إعلاء شأن اللغة البدوية الخالصة، وكلما أخذت سلامة اللغة تصير أمرا من أمور التربية والتعليم، توليت آمال غير

---

[١] فوك : العربية ص ٢٦، البيان: ٢:٤، عيون الأخبار: ٢:١٥٣.

العرب أن يستبدلوا بالصبر والاجتهاد – عربية فصحى من عربية اللهجة الدارجة في محيطهم، وقديما تملك الحسن البصري (ت ١٤٥هـ) لا يجدوا غضاضة في أن يضعوه إلى جانب الحجاج، وكان تلاميذة المجتهدون يكتبون عبارات لأستاذهم، ليس بسبب ما تحتويه من علم فحسب، بل لصياغتها اللغوية كذلك، وكثيرة هي الأخبار والروايات التي تُطْنِب في وصف دقة إحساسه تجاه الأخطاء اللغوية.."[1].

هكذا نجد أصحاب هذه الطبقة من العرب الخُلص والأعاجم الذين كانوا ينشدون العربية الأصلية يأخذون أنفسهم وغيرهم بها، وأتاحت للفريق الثاني غربتهم عن اللغة أن يتأملوا خصائصها، ويقاربوها بلغاتهم، ويبلوروا نظامها الصوتي والصرفي التركيبي مما مكنهم من تصنيف مصنفات تدين لها العربية بالفضل.

ولعل كتاب سيبويه الفارسي يعد أول محاولة لتنظيم قواعدها وما كتبه بعده من مؤلفات أبو علي الفارسي وجار الله الزمخشري بالإضافة إلى معظم أصحاب المعاجم الذين يعودون إلى أصول غير عربية.

---

[1] فوك: العربية ص ٣١، انظر: البيان ١:٦٨، ٢:٥، ياقوت ٢٠:١- ٢٤.

لقد تعاون الفريقان العرب والأعاجم على صيانة العربية وتنقيتها، ومع مرور الزمن نجد العرب الأقحاح يسندون هذه المهمة إلى طبقة الموالي الذين نشأوا في أحضانهم وبين أسرهم بعد أن أصبحت العربية عندهم جزءا من ضميرهم الديني أو على حد تعبير يوهان فوك: "إن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم، أيا كانت لغته الأصلية، جزءا لا ينفصل من حقيقة الإسلام.." [١] ولكن هؤلاء المجتهدين من غير العرب الذين أحاطوا بمعرفة العربية معرفة راسخة لم يستطعوا التخاص من بقايا اللكنة الأعجمية، وعرف ذلك عن سيبويه (ت ١٧٠) ومثله المحدث الثقة نافع (ت ١١٧) أستاذ مالك الذي كان يعرب عن أصله الديلمي، والشاعر المشهور زياد الأعجم (ت ١٠٠) الذي يرجع لقبه الأعجم إلى لكنته الفارسية ، شعره الذي وصلنا يدل على أنه كان متمكنًا من العربية تمكنًا كاملاً، إلا أنه في نطقه للعربية كانت تغلب عليه عاداته الصوتية فيرقق أصوات الإطباق، ويستبدل العين والحاء بالهمزة والهاء.."[٢]

---

[١] المصدر السابق ص ٥.

[٢] المصدر نفسه: ص ٣٣، ٣٤.

الطبقة الدنيا: يمثل هذه الطبقة الأعاجم الذين بدأ اختلاطهم بالعرب بعد ما دخلوا الأقاليم المفتوحة إلى جانب الإماء والعبيد الذين عملوا بخدمة العرب من الحكام والولاة فتكلموا بجانب ألفاظ العربية وأصواتها بألفاظ وأصوات أعجمية، وكان هذا التفاعل مصدرا للحن الصوتي والصرفي والتركيبي الذي جرى على ألسنتهم، ولم تكن لغتهم هي العربية التي نعرفها، ولكنها لغتهم التي يعرفونها تجري على ألسنتهم بأصوات عربية يفهمها السامع المخالط لهم والذي يكون على صلة بموضوع الحديث، يصور لنا الجاحظ لغة هذه الطبقة مستشهدا بنموذج من كلام فيل مولى زياد، كما يلي: "..أهدوا لنا همار وهشي"، يريد: حمارا وحشيا، وكلام جارية الشاعر التي تذكر المؤنث وتؤنث المذكر، ويعلق على ذلك قائلاً : ".. ولكنهما لما طال مقامهما في الموضوع الذي يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام" [1].

---

[1] الجاحظ: البيان ١:١٦٥.

ويقول أيضا: ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا.."[1].

وإلى جانب هؤلاء الإماء والعبيد والآحاد العاديين الذين كان لابد لهم بحكم الحياة الاجتماعية الجديدة التي شهدتها الأمصار والمدن المفتوحة أن يصلوا بينهم وبين العرب بلغتهم المهجنة[2] نجد هؤلاء الجواري اللائي كُن لا يحسِن العربية ويعشن في بيوت العربي الشريف الذي يتحدث الفصحى ويكره اللحن أو يستملحه بعضهم، كما يقول الجاحظ، كان العربي يستوردهن فيصبحن أمهات أولاد ويرث هؤلاء الأولاد عن أمهاتهم اللغة المهجنة الملحونة، ويقول: "اللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن ذوات الخدور أيسر.. ربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن جارية صاحبة تكلف"[3].

---

[1] الجاحظ: البيان ١:١٦٥.

[2] هي لغة تظهر بشكل محرف نتيجة ظروف معينة، وتتكون من التقاء لغتين أو أكثر تتمير بالمفدردات المحدودة، ويتكلمون مع السكان الأصلين بلغة خليط من العربية والهندية والأردنية والإنجليزية.

[3] الجاحظ: البيان ١:١٤٦.

وهذا ابن ميادة الشاعر يصف جارية له من طبرستان أهداها إِلَيهِ الخليفة الوليد بن عبد الملك بن عبد الله لم يكن بها عيب إلا لحنها فيقول فيها [1]:

بأهلي ما ألذك عن نفسي لو أنك بالكلام تعرّبينا
كأنك ظبية مضغت أراكا بوادى الجزع حيث تبغمينا

كما يحدثنا الجاحظ عن أم ولد للشاعر جرير بن الخطفي وكانت أعجمية، أنها قالت لأحد ولديها: وقع الجرزان في عجان أمكم، "فأبدلت الذال من الجرذان دالاً وضمت الجيم وجعلت العجين عجانا" [2].

الطبقة المتوسطة: تمثلها مجموعة العرب الذين تأثرت لغتهم بلغة أهل الأمصار المفتوحة، وظهر هذا على ألسنتها، وأيضا تمثلها جماعة السكان الأصليين الذين تعلموا العربية وتملكوها إلى جانب لغتهم الأم، وهؤلاء هم الذين سماهم الجاحظ بالقرويين مرة وبالبلديين مرة أُخرى، وقد عرف عن هذه الطبقة أنها كانت تتأرجح على ألسنتها العربية واللهجات

---

[1] الأغاني: ٢:٣١٩، فوك: العربية ٢٦.
[2] الجاحظ: البيان ١:٧٣.

المحلية، كما كانت بحكم صلتها بالطبقة العليا والدنيا تحاول الخروج بلغة سليمة بسيطة، ويمكن أن نقول إن لغة التعامل قد نشأت على ألسنة هذه الطبقة، في مقابل اللغة المهجنة على ألسنة الطبقة الدنيا.

يجب أن نؤكد هنا على أن طبقات المجتمع اللغوي التي أشرنا اعتمادا على ما تحت أيدينا من شواهد وصور سجلها لنا الجاحظ وغيره في إقليم العراق، لا يمكن أن تكون مطابقة أو مشابهة في أقاليم أُخرى، لأننا نفتقد الشواهد للأمصار البعيدة في شروق الدولة الإسلامية في إيران والهند وما ورائهما، وفي غربها في مصر وشمال أفريقيا، وقد لاحظ ذلك المستشرق الألماني فوك، فقال: ".. إذا كان تعذر كشف أثر اللغة القبطية في عربية التفاهم في مصر أثناء القرنين الأوليين راجعا إلى طبيعة مصادرنا، فلو أن مصر منيت بكاتب مثل الجاحظ أولع بتصوير مستوى الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن في القرن الثاني، ربما كان أفادنا أن العلاقات اللغوية في الفسطاط القديمة لم تختلف كثيرا عنها في البصرة والكوفة.."[١].

---

[١] فوك: العربية ص ٢٢.

الفصل الرابع
العربية: عوامل انتشارها وتطورها

الفصل الرابع

العربية: عوامل انتشارها وتطورها

عرفنا أن اللغة العربية المشتركة كانت اللغة الموحدة لدى القبائل العربية التي تجاوزت بها لهجاتها القبلية، فكانت وسيلة التعبير الأدبي ولغة الشّعراء والخَطباء في المناسبات الاجتماعية والدينية، ولم تكن هذه اللغة لغة القبائل داخل الجزيرة العربية فقط، وإنما كانت لغة القبائل العربية التي سكنت شمال الجزيرة مثل المناذرة والغساسنة، وبهذه اللغة التي نزل بها القرآن – وليس بلغة قُريش كما سبق أن أشرنا[١] – تدين العربية له بخروجها من موطن نشأتها وإطارها المحلي في شبه الجزيرة، إلى آفاق أرحب. لقد كان خروج العربية من موطنها الأصلي وانتشارها في الأقطار والأمصار المفتوحة شرقًا حتى حدود الصين وغربا في الأندلس وجنوب أوربا، واستمرارها في ترسيخ أركانها عدة قرون حدثًا ضخما في تاريخ الاجتماع اللغوي، ولا نكاد نعرف لغة إنسانية تشبه العربية في ذلك، ونجد بعض الدارسين يبدي إعجابه وتعجبه بهذه الظاهرة قائلاً:".. إن من

---

[١] انظر: ص ٢٨ من الدراسة.

أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت لغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبدت فجأة على غاية من الكمال، سلسة آية السلاسة، غنية أي غِنَى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنَى تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة، ولا أدري مثل ذلك للغة من لغات الأرض قبل أن تدخل في أطوار أو أدوار مختلفة.." ويستطرد قائلاً:".. ما عهدت قط فتوح أعظم من الفتوح العربية ولا أشد سرعة منها، فإن العربية ولا جدال قد عمت أجزاء كبرى من العالم، ولم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة، أو ِلسان فكر ديني أو سياسي إلا لغتان: اللاتينية واليونانية، وأين مجال هاتين اللغتين في السعة من الأقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها.."[١]، [٢]

أولاً: عوامل انتشار العربية

ارتبط انتشار العربية خارج الجزيرة العربية منذ الفتح الإسلامي للأقطار والأمصار المختلفة بالإسلام الذي وجد في

---

[١] انظر: الباب الثالث من الدراسة.

[٢] رينان: تاريخ اللغات السامية ١:١٨٠. نقلاً عن د. محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية ط٢ ١٩٦٨ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

قلوب أهل هذه البلاد مكانًا ساميا، ووجدت العربية استجابة فجرت على ألسنتهم هينة لينة لترديد كلمات التوحيد، وإلى جانب هذا العامل الديني نجد عوامل أُخرى ساعدت على انتشار العربية وتعريب البلاد المفتوحة مثل: العامل الديني، والسياسي، واللغوي، والبيئي، نتناولها بالتفصيل كما يلي:

العامل الديني:

يتمثل في الحماسة الدينية التي كانت من أقوى الدوافع التي مكنت للعربية هذا الانتشار، فهي لغة الدين الجديد وأداته التعبيرية الأولى، لا تؤدى الشعائر الدينية إلا بها، ونجد هذا العامل الديني يرتبط بدرجة تعلم العربية وإتقانها، فيتعلمها الآحاد العاديون من عامة الناس لكي يؤدي بها الشعائر، ويتعلمها خاصة الناس بقصد إتقانها لكي يتعمقوا في فهم تعاليم الشريعة من القرآن الكريم والحديث الشريف ويعلمونها للآخرين، ومن هؤلاء الخاصة كان علماء علوم الدين واللغة.

لقد كان تأثير الدين الإسلامي في انتشار العربية قويا، وكما استطاع الإسلام أن يعفي على الديانات السابقة، استطاعت العربية أن تعفي كذلك على اللغات السابقة، ويؤكد هذا أحد الدارسين الأوربيين قائلاً:".. إن هذه اللغة التي

حملها الفاتحون العرب لم تكن قوتها تعتمد على السيف فقط، بل على جذوة الإيمان التي كانت تهب معتنقي الإسلام حماسة حادة، ويعفي من طريقة العقائد القديمه والخرافات..[1] كما يقول في موضع آخر:".. إن الإسلام في هذه الأقطار كان أكثر من عقيدة، كان طريقة جديدة في الحياة، وأصبح في التو حاضنًا للعلوم، وجعل العربية لغة مقدسة ولغة علمية في آن[2] ، وهكذا مهد الدين الإسلامي الطريق للعربية لكي تدخل القلوب وتجري على ألسنة غير العرب، وكما اعتنقوا الإسلام دينًا اتخذوا العربية لِسانًا.

العامل السياسي:

يتمثل هذا العامل في مقولة ابن خلدون المشهورة: "ولع المغلوب بتقليد الغالب"، فالمغلوب يرى في غالبه الكمال فيقلده في لغته وعاداته وتقاليده، كما نرى اليوم في لغات الدول الكبرى خاصة الإنجليزية والفرنسية، وقد فطن القُدماء لهذا العامل الذي يتمثل في الغلبة والسلطان، كما نرى في كلام ابن حزم الأندلسي الذي يقول: ".. إن اللغة يسقط

---

(١) H.C. Wollner: Language in History and politics p.١٠

(٢) Ibid. p. ١٤٥

أكثرها وتبطل بسقوط أهلها، ودخول غيرهم عليهم في أماكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم، واختلاطهم بغيرهم، فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وأما من تَلفَتْ دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخاطر، وربما كان ذلك لشتات لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وهذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل..."[1]

ويقترب ابن خلدون [2] مما ذكره ابن حزم قائلاً:"... لما كان لِسان القائمين بالدول الإسلامية عربِيا، هجرت اللغات الأعجمية في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دنيه، فصار استعمال اللِسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجرت، الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللِسان العربي لِسانهم حتى رسخ ذلك اللغة في جميع أمصارهم، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة..".

---

[1] ابن حزم: الإحكام فى أصول الأحكام: ١:١٩٠.

[2] ابن خلدون : المقدمة : ص ٣٤٥.

هكذا نجد العامل السياسي الذي يتمثل في الغلبة والسلطان من أهم العوامل التي أدت إلى انتشارها ورسوخها في البلاد المفتوحة.

العامل اللغوي:

قد لا يكفي العاملان الديني والسياسي لتعليل انتشار العربية، وتمكُّنها في نفوس أهل الأمصار المفتوحة، وجريانها على ألسنتهم للصعوبة التي يجدها المتكلم في ترك لغتة الأم إلى لغة أُخرى، لهذا يعزو كثير من الدارسين سرعة انتشار العربية وجريانها على ألسنة أهل البلاد التي فتحها العرب والمسلمون إلى علاقة القرابة اللغوية بين العربية وأخواتها من اللغات السامية التي اتفقت معها في أوجه التشابه على المستوى الصوتي والصرفي، فلم يجد المتكلمون باللغة الآرامية والسريانية في الشام والعراق، واللغة القبطية في مصر، واللغة البربرية في المغرب صعوبة في التحدث بلغة قريبة الشبه من لغاتهم الأم.

وإذا كان هذا هو حال العربية مع أخواتها من اللغات السامية في الطرف الغربي من الدول الإسلامية، فإننا نجد العربية تتغلب على اللغة الفارسية في الطرف الشرقي، وهي

لغة تنتمي لفصيلة لغوية أُخرى، ويعود السبب في ذلك إلى تأثر الفارسية بإحدى أخوات العربية وهي اللغة الآرامية التي كانت أشبه باللغة الدولية، وكان يستعملها الحكام والملوك في ذلك الوقت، كما كانت لغة الدواوين في الدولة الفارسية وبلغ من يسرها وسهولة شيوعها أن الإمبراطورية الساسانية كتبت بها اللغة البهلوية التي تمثل الحلقة المتوسطة للغة الفارسية، وهذا يعني انتشار الكتابة الآرامية كلغة مكتوبة، هذا إلى جانب اللغة السريانية إحدى لهجات اللغة الآرامية التي عرفها الفُرس كلغة ثقافة وعلم، وبهذا نرى خضوع الفارسية لتأثير اللغتين الآرامية والسريانية كلغتين مكتوبتين، ومن ثم لم تجد العربية صعوبة في أن تحل محل الكتابة السامية للغتين وتكتب بها اللغة الفارسية إلى اليوم، إلى جانب كونها لغة الدين الإسلامي[(١)] .

هكذا أزالت القرابة اللغوية الجفوة التي قد تقوم بين لغة وأُخرى ، فاحتوت العربية أخواتها من اللغات السامية وتغلبت عليها، كما كان في انتشار الآرامية كلغة كتابة تزليلاً للطريق أمام العربية لكي تتغلب أيضا على الفارسية.

---

(١) Wolliner. Language in History and politics, ١٠١

العامل البيئي:

يفسر بعض الدارسين انتشار العربية السريع وبقائها في بعض الأمصار التي فتحها المسلمون وانحصارها وتقهقرها عن بعض الأقطار الأخرى مثل أسبانيا في الغرب[١] وإيران في الشرق إلى العامل البيئي، بعد أن استطاعت العربية أن تنتشر بسهولة وتبقى إلى اليوم في بيئات قريبة الشبه من بيئة شبه الجزيرة العربية موطنها الأول، وكما يقول أحد الدارسين: "أن البلاد التي تحتلها العربية بلاد متشابهة المظاهر تغلب عليها الصحاري القاحلة والتلال الرملية والمرتفعات الصخرية، ومع هذه مساحات محدودة من الواحات والوديان الخصبة"[٢] فالقرابة البيئية تمثل عنصرا من العناصر التي ساعدت على انتشار العربية وتمكنها في البلاد التي دخلها العرب المسلمون، فنجد بلاد الشام والعراق تعتبر امتدادا لشبه الجزيرة العربية، ومصر التي تحيط بها الصحراء شرقًا وغربا تشبه جارتها شبه

---

[١] نجد إلى جانب هذا العامل السياسي الذي يتمثل فى خروج المسلمين من أسبانيا وانتهاء سلطانهم ، ولكن هذا لم يمنع وجود التأثير العربي فى اللغة الأسبانية إلى اليوم.

[٢] Wolliner. Language in History and politics, P. ١٥٠

الجزيرة، والصحراء الكبرى في شمال أفريقية لا تشبه شبه الجزيرة في البيئة فقط، وإنما تشبه في معرفة نمط الحياة القبلية والرعوية.

هكذا نجد أن التشابه البيئي والتماثل في مظاهر الحياة يمثل عاملاً مؤثرا في انتشار العربية، وبقائها في بعض البلاد، وانحصارها في بلاد أُخرى، فقد استطاعت العربية أن تبقى في بيئات اللغات السامية ولكنها رحلت من بيئة اللغات الهندوأوربية.

ثانيا: عوامل تطور العربية

شهدت العربية مرحلتين من التغيير أو التطور:

التطور الداخلي كان في شبه الجزيرة وأطرافها، قد تم ذلك على يد أبنائها الذين تأهبوا لمغادرتها عندما خرجوا فاتحين لنشر الدعوة الإسلامية.

التطور الخارجي: كان في الأمصار المفتوحة، وتم ذلك على يد الشعوب التي جرت العربية على ألسنتها، فتلونت بهم كما لونتهم، وخضعت لهم كما أخضعتهم، وكان لذلك أثره في بنية اللغة صوتيا وصرفيا ودلاليا.

التطور الداخلي:

سبق أن عرفنا: أن القبائل العربية قبل الإسلام كانت تتكلم بلهجات مختلفة، وأن ثمة لغة أدبية مشتركة كانت موحدة مفهومة لهم، يخطب بها الخُطباء، وينظم بها الشعراء شعرهم[١]، وقد ساعد القرآن الكريم الذي كانوا يرتلون آياته ويتدارسونه على تقليص هذه اللهجات وترسيخ هذه اللغة المشتركة على ألسنة القبائل التي خرجت في الفتوحات الإسلامية، تنقل لنا كتب التفسير أن عمر – رضي الله عنه – حرم على عبد الله بن مسعود أن يقرأ آيات القرآن الكريم بلهجة هذيل التي ينتمي إليها[٢]

لقد شعر أفراد هذه القبائل بتلك الوحدة الجديدة التي أمدهم بها القرآن الكريم، فلم تعد العربية لهجة مقصورة على يد قبيلة دون أُخرى، وإنما هي لغة تسمع كل هذه القبائل، وتنفي عنها كل خصائص اللهجات، وتقوي من ساعدها لكي تواجه اللغات الأُخرى، وقد ساعد على هذه الوحدة أن الفروق اللهجية بين القبائل لم تكن فروقًا واسعة، وإنما كانت

---

[١] انظر: ص ١٠، ٣٣ من الدراسة.

[٢] انظر: ص ٢٤٠٦ من الدراسة.

متقاربة، تتمثل في المقام الأول في الفروق الصوتية والصرفية وبعض دلالات الكلمات.

إن هذا التطور الذي شهدته العربية يعود إلى عاملين:

١- القرآن الكريم: الذي جرت لغته على ألسنتهم يتعبدون به، ويرتلونه في الصلوات الخمس، وكما استطاع القرآن أن يجمع هذه القلوب على عقيدة واحدة، استطاع أن يجمع ألسنة القبائل على لِسان عربيّ مبين.

٢- الفتوح الإسلامية: التي صهرت أفراد القبائل في الجيوش الإسلامية وجعلتهم أخوانًا متعاونين، كما صهرت لهجاتهم في لِسان عربيّ موحد.

التطور الخارجي:

خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية موطن العربية الأول وخرجت معهم لغتهم العربية، وكانت لهم فتوحاتهم، وكانت للغة أيضا فتوحاتها، ونزلوا هذه الأمصار في الشام والعراق وفارس ومصر المغرب والأندلس، ومن طبائع الأمور ألا تظل اللغة على ما كانت عليه قبل خروجها

من الجزيرة العربية بعد أن شهدت أحداثًا، وعبرت أقاليم ، وعايشت بيئات والتقت بلغات ولهجات.

لقد كانت سياسة الفتح العربي الإسلامي تهدف في المقام الأول إلى تحرير الأقطار المفتوحة وإنقاذ شعوبها من ظلم وتعسف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، والدليل على ذلك تحريم امتلاك المسلمين للأراضي في البلاد التي فُتحت عنوة أو سِلما، وتُركت في أيدي أصحابها وكان ذلك في خلافة عمر خاصة، كما كانت الأوامر للجيوش ألا تسكن المدن ولا تخالط أهلها، وأن تتخذ معسكرات أقيمت في الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان، كما كانت هذه الأوامر تهدف إلى أن تكون هذه المنازل معسكرات للجيش لا مدنًا للسكْنَى.

وبالرغم من أن الفتح العربي الإسلامي لم يتخذ شكل الاستعلاء والترفع، إلا أن هذه السياسة كانت تهدف إلى الحفاظ على لغة الفاتحين الذين يمثلون قلة قليلة وسط الكثرة الكثيرة، التي يمثلها سكان المدن المفتوحة، هذا بالإضافة إلى المحافظة على مقومات الشخصية المسلمة للجيوش الفاتحة، ومن هنا كان استعصام المسلمين بالمعسكرات، وتحريم

امتلاك الأرض عليهم، ولكن هذه السياسة سرعان ما انهارت أمام مغريات الحياة وشهوات الدنيا، فمنذ عهد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – اندفع المسلمون إلى المدن يسكنونها، ويخالطون سكانها الأصليين، ويتعاملون معهم في البيع والشراء ويستعمولهم في حرف الصناعات والأراضي التي تملكوها، وكما يقول المستشرق الألماني يوهان فك Fuck:" فالتقى هؤلاء وأولئك، وتحقق الاختلاط بينهم، والذي استتبع تلاقي العربية ولغات ولهجات سكان هذه المدن..-[1]

ويجب أن نشير إلى صورة أُخرى من صور الاختلاط، تتمثل في جماعات الفرس أو النبط أو البربر أو القبط التي كانت تنضم ،وتستقبل جيوش المسلمين عند دخولها طلبا للخلاص والفرار من ظلم وتعسف البيزنطيين والرومان، فكانت تمهد لهم الطريق للدخول وتساعدهم على إنشاء المعسكرات وإعداد سبل الإقامة، وكان هذا أول مظاهر الاختلاط والتفاعل اللغوي بين العربية واللغات الأُخرى التي

---

[1] يوهان فوك: العربية دراسات فى اللغة والهجات، ص ٩، ترجمة د. عبد الحليم النجار، نشر مكتبة الخانجى..

جرت بها ألسنة هؤلاء مما كان له الأثر الواضح على ألسنة العرب الفاتحين وألسنة سكان هذه البلاد.

كما نجد صورة ثالثة لهذا الاختلاط يتمثل في السبي الذي ترك أثره على التفاعل اللغوي بين العرب المسلمين والأعاجم، فقد شارك السبي في الحياة اليومية من خلال الخدم من الجواري والعبيد الذين كانوا يقومون على شؤون البيت المختلفة والسريات اللائي كُن يتسرى بهن الرجال، ويعتقهن إذا حملن، ويتحولن إلى زوجات وأمهات أولاد. وهؤلاء وأولئك هم الذين يصنعون البيوت وينشئون الأطفال، ويحملون لغات لا يعرفون غيرها، وكانوا يشاركون مشاركة فعالة في لغة الجيل الجديد الذي ينشأ وسط هذا التعامل اللغوي المشبع بالرطانات[١]

---

[١] انظر: ص ١٢٤ من الدراسة.

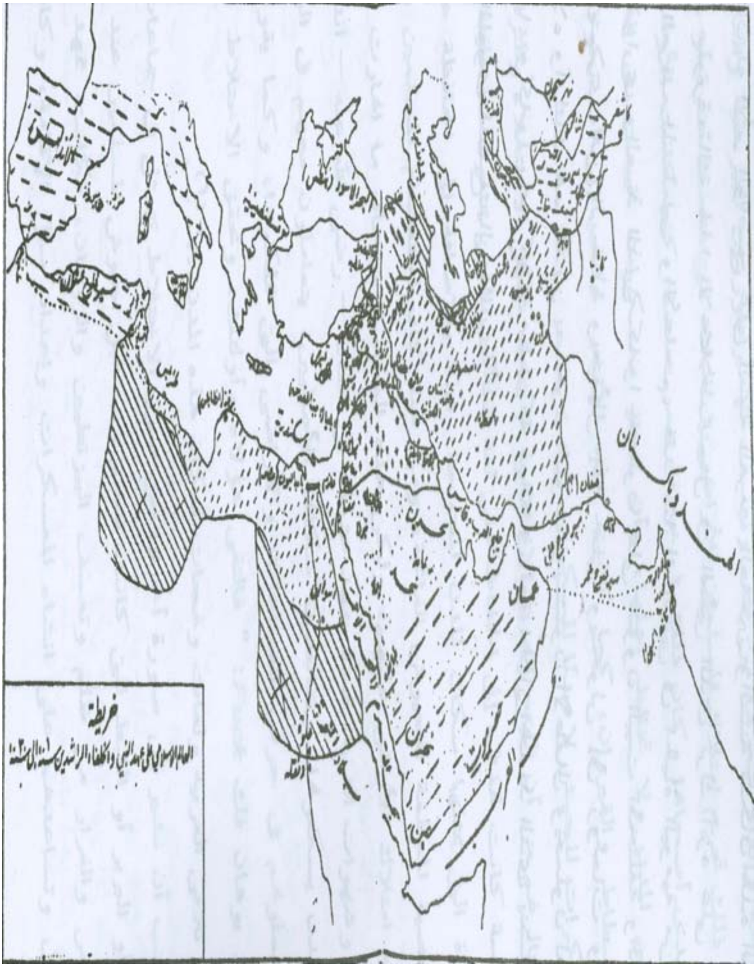
خريطة
العالم الإسلامي على عهد النبي والخلفاء الراشدين سنة ١ إلى ٤٠ سنة
عمان

الباب الثالث

العربية: تعريب الأمصار الإسلامية

الفصل الأول

العربية في العراقَين

الفصل الأول

العربية في العِراقَين

كان الشام والعراق الامتداد الطبيعى للجزيرة العربية في شمالها الغربي والشرقي، كما كانت باديتهما متممتَين لصحرائهما، مما سهل اندفاع بدو الجزيرة إِلَيهما في شكل هجرات مختلفة.

شهدت الشام كما سبق أن ذكرنا قيام ثلاث دول عربية على حدودها الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون قبل الإسلام، وهي: دول الأنباط، وتدمر، والغساسنة. ظهرت دولة الأنباط العربية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، اتخذت "بترا" عاصمة جنوبية و"بصرى" بالقرب من دمشق عاصمة شمالية، وقد كانت عاملاً هاما لتعريب المناطق التي سيطرت عليها شمال الجزيرة وشرقي الأردن وجنوب فلطسين وسوريا، وكما سبق أن عرفنا أن الأنباط أخذوا من الآرامية أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم واشتقوا الخَط النبطي المنسوب إليهم من الخَط الآرامي الذي تفرع منه الخَط العربيّ[1] .

---

[1] انظر : ص من الدراسة.

تكونت دولة تدمر بعد سقوط دولة الأقباط من القبائل العربية الشمالية في القرن الثالث الميلادي، بلغت أوج مجدها في عهد ملكها أذنية الذي بسط سلطانه على الشام، وخلفته زوجته التي حاولت الاستقلال عن الرومان، الذين قضوا على الدولة عام ٢٧٣م التي خرجوا منها بعد خراب سد مأرب، واستقروا في شرق الأردن في منطقة حران جنوب دمشق، اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي وأهم ملوكهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ – ٥٦٩) الذي كان حليفًا للدولة البيزنطية ضد الفرس، ومنحته لقب بطريق، امتدت هذه المملكة حتى عهد الحارث الرابع في أوائل القرن الأول الميلادي إلى أن استولى الرومان على عاصمتهم دمشق ١٠٦م [١] .

وكانت لهم حروب مع المناذرة أشهرها يوم حليمة ٥٥٤هـ الذي هزم فيه الحارث بن جبلة المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة، وأيضا مع عرب الجزيرة الذين كانت صلتهم مقطوعة عنهم، تخبرنا المصادر عن اتصال بعض

---

[١] انظر : ص من الدراسة.

شعراء الجاهلية بهم مثل النابغة الذبياني الذي مدح الحارث، وحسان بن ثابت الذي مدح أخاه عمرو بن الحارث [١].

كان المناذرة مثل الغساسنة من سلالة يمنية، هاجروا إلى شمال الجزيرة بسبب سيل العرم، واحتفظوا بمظاهر حضارتهم اليمنية، اتخذهم أكاسرة الفرس درعا لهم يحميهم من غارات البدو، وجنودا يقفون في صفوفهم في حروبهم مع البيزنطيين والغساسنة عرب الشام.

عاش المناذرة واستقروا في منطقة خصبة يرويها نهر الفرات وهي الحِيرة (تحريف لكلمة حِيرتَا في السريانية، وتعني المخيم أو المعسكر) وقد هيأ لموقعها أن تكون مركزا مهما للتجارة، كما ساعدت خصوبة الأرض على الاشتغال بالزراعة، ولهذا كانوا أكثر تحضرا ورقيا من الغساسنة، كما عرفوا تقاليد الملك أكثر منهم وتمتعوا بسلطان قوى جعلهم يسيطرون على اليمامة والبحرين وعمان على قبائل العراق، مثل تغلب وبكر وبعض قبائل نجد[٢].

---

[١] انظر: د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:١٨٨.
د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٤٩٤.

[٢] جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨:٥١٤ – ١٥٤.

من أهم ملوكهم المنذر بن ماء السماء وابنه عمرو بن هند الذي كان طاغية مستبدا، لقبه العرب بالمحرق لأنه قتل مائة رجل من تميم حرقًا، أصبحت الحيرة في عهده مركزا أدبيا مزدهرا، وفد عليه شعراء المنذرة منهم عمرو بن قميئة، والمسيب بن علس، والحارث بن حِلزة، وعمرو بن كلثوم، ومن ملوكهم قابوس ثم المنذر الرابع وابنه النعمان بن المنذر الثاني المكنى بابن قابوس (٥٨٠ – ٦٠٢) الذي كان أول من تنصر من ملوك الحيرة الوثنين، ويشير ابن رشيق في العمدة إلى أنه كان له ديوان أشعار الفحول وما مدح به أهل بيته، وصار ذلك إلى بني مروان، كما يشير عند حديثه عن المعلقات، أن الملك كان إذا استجاد قصيدة لشاعر يقول: "علقوا لنا هذه لتكون في خزانته[١]" هكذا نرى أن دولة المناذرة لم تكن في عزلة عن الجزيرة العربية وإنما كانت على صلة دائمة بها، وكانت هذه الصلة عاملاً هاما للحفاظ على العربية أمام اللغة الفارسية، التي كانت منتشرة بينهم لوجود الفرس، كما كانت هذه الدولة تُولِي اهتماما بالشّعر العربي الذي يأتيها من الجزيرة، وكان آخر ملوكهم إياس بن

---

[١] العمدة ٦:١.

قبيصة الذي صالح خالد بن الوليد عندما دخل العراق غازيا عام ١٢ هـ.

فَتْح العِراقَين: عندما عم الإسلام شبه الجزيرة أحست الإمبراطوريتان البيزنطية في الشام والفارسية في العراق بالخَطر الذي يحدق بهما، مما جعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لنشر الدعوة في البلاد التي خشعت لهاتين الدولتين وعانى أهلها من الظلم والغبن، خرج العرب المسلمون يحملون إلى أهل الشام والعراق تعاليم الدين الجديد، كما يحملون معهم العربية التي لم تكن غريبة عليهم فقد كانوا يتكلمون الآرامية والسريانية اللتين تنتميان إلى أسرة اللغات السامية التي تنتمي إليها العربية، لهذا كان تعريب الشام والعراق أمرا سهلاً ميسورا لهذه القرابة اللغوية من ناحية، وإقبال أهلها من اعتناق الإسلام من ناحية أُخرى.

خرجت جيوش المسلمين إلى الشام في خلافة أبي بكر الصديق (١١ – ١٣ هـ) وكانت الهزيمة الأولى في موقعة أجنادين عام ١٣ هـ على يد خالد بن الوليد، ثم كانت المعركة الثانية الحاسمة في دمشق التي دخلها المسلمون من ناحيتين بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح عام ١٤

هـ، ثم انقسمت جيوش المسلمين إلى قسمين: قسم اتجه إلى الغرب للاستيلاء على حمص وحماة وحلب واللاذقية، ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس الذي دافع عنه الروم دفاعا شديدا وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسليم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخَطاب يخبره بذلك، فاستجاب عمر بن الخَطاب وخرج إلى الشام عام ١٦ هـ وعقد مؤتمرا ضم ولاة الشام وقوادها لتنظيم ديارها، ودخل القُدس وأمن النصارى على أموالهم وكنائسهم وكتب بنفسه كتاب الأمان المسمى بالعهدة العمرية[1].

خرجت جيوش المسلمين إلى العراق في العام الثاني عشر من الهجرة بقيادة المثَنى بن حارثة الشيباني ثم عززت بجيش خالد بن الوليد الذي كان على جبهة العراق وحوله أبو بكر لجبهة الشام، استطاعت جيوش المسلمين فتح الحيرة والأنبار على نهر الفرات كما استولت على الأبلةِ على الخليج الفارسي، ثم استكمل فتح العراق في خلافة عمر (١٣ – ٢٣هـ،) فكانت موقعة القادسية في العام السادس عشر

---

[1] د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ١:٤٠١.

التي انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص وقد مهد هذا الانتصار لتقدم الجيوش نحو الشرق فعبرت الفرات إلى نهر دجلة حيث تقع عاصمة الفرس المدائن التي سميت بذلك لكثرة ضواحيها؛ فبدت كأنها مدائن لا مدينة واحدة، فسقطت في أيدي المسلمين الذين توغلت جيوشهم داخل بلاد فارس، وكانت معركة نهاوند الفاصلة عام ٢٠هـ التي سميت بفتح الفتوح واستتب الأمر للمسلمين في العراق وما ورائه.

واصلت جيوش المسلمين في ولاية عثمان (٢٣ – ٣٥) الفتوحات في المدن الفارسية واستولت على الأهواز وقم وكاشان وخراسان، حيث قتل يزجرد، وبموته انتهت دولة آل ساسان الفارسية في عام ٣١ هـ.

تعريف العِراقَين: عرفنا أن الدول العربية قامت في الشام والعراق قبل الإسلام ساهمت في استعرابها، وقد ازداد هذا الاستعراب وتحقق بشكل سريع لعدة عوامل:

١- هجرة كثير من أبناء قبائل الجزيرة العربية التي ظلت تمدّ بلدان الشام والعراق منذ عهد الخلفاء الراشدين ١١ – ٤٠ ، وطوال الحكم الأموي ٤٠

– ١٣٢ بالمتحدثين بالعربية، يقول المستشرق الألماني يوهان فُك: "لقد كانت هجرة القبائل عقب وفاة الرسول ﷺ ٦٣٢/١١ إيذانًا بشروق عصر جديد للعربية، ففي مدة عشرات من السنين حملت قبائل البادية في غزوات الفتح لغتها من الشمال إلى سوريا والعراق"[(١)]

٢- لم تكن العربية غريبة على أسماع السكان الأصليين الذين كانوا يتكلمون بالآرامية والسريانية اللتين تنتميان إلى أسرة اللغات السامية التي تنتمي إليها العربية، ولهذا كان التعريب أمرا سهلاً ميسورا لهذه القرابة اللغوية من ناحية، وإقبال أهل الشام والعراق على اعتناق الإسلام من ناحية أُخرى[(٢)].

٣- الاهتمام بتعليم القرآن كتاب العربية الأول، وقد تولى هذا الأمر الصحابة والتابعون الذين خرجوا من الجيوش لإرساء تعاليم الشريعة، في رواية

---

(١) فُك: العربية ص ٧.

(٢) ظلت الأوربية تمثل جذراً لغوية تعيش إلى اليوم فى بعض قرى سوريا.

لابن سعد يذكر ابن عمر بن الخَطاب أن أباه كان يفرق علماء الصحابة وأخبارهم في البلدان، وكان لهؤلاء الصحابة تابعون يلتفون حولهم ويتلقون عنهم العلم[1] ، وكان أبو الدرداء (ت ٣٢هـ) أول من تولى القضاء في دمشق من الصحابة، وعمل على إقراء الناس القرآن، تشير المصادر إلى أنه كان يجعل الراغبين في تعلم القرآن عشرة عشرة ويعين على كل عشرة عريفًا، ويقال إنه عد من يقرؤون القرآن عنده فوجدهم ألف وستمائة ونيفًا ، ولعل هذا العدد يوضح مدى إقبال أهل الشام على تعلم القرآن، في أول عهدهم بالإسلام، ويخلفه في إقراء الناس القرآن في دمشق عبد الله بن عامر اليمنى ت ١١٨هـ الذي استطاع أن تكون له قراءة مستقلة، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين الذين اختارهم مجاهد (ت ٣٢٤هـ).

---

[1] الطبقات ٢:١١٧.

بعث عمر بن الخَطاب بن مسعود إلى الكوفة معلما ووزيرا كما قال في كتابه [1]. إلى أهلها الذين التفوا حوله يأخذون عنه القرآن ويقرئونه للناس ويتلقون عنه العلم ويذيعونه، وعرفت الكوفة خمسة من أئمة القراء هم: يحي بن وثاب، عاصم بن أبي النجود، سليمان الأعمش، حمزة الزيات، الكسائي.

كما عرفت الشام أول محاولة لتدوين الحديث الشريف التي قام بها محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) بأمر من عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) الذي قال عنه عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون امرأ أعلم بالسنة الماضية منه، كما نجد من يشتغل بالحديث في العراق مثل الأعمش (ت ١٤٨هـ)، سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ)، عبد الله بن موسى العبسي (ت ٢١٣هـ).

٤- إهتمام الدولة بأمر اللغة العربية، وكما يقول المستشرق الألماني وُك أن الأمويين برهنوا على أنهم حماة العربية، وكما سبق أن أشرنا أن نقط

[1] الطبقات ٦:٧.

الإعراب الذي قام به أبو الأسود ٦٩هـ ونقط الإعجام الذي قام به نصر بن عاصم (ت ٨٩هـ) كان بتوجيه من العاملين في الدولة، إلى جانب قرار تعريب الدواوين الذي أصدره عبد الملك بن مروان[١] (ت ٨٦هـ)، ويروى عنه أنه كان يحذر أبناءه من اللحن قائلاً: إن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه، وأقبح من الشق في ثوب نفيس[٢]، كما يروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان دقيق الإحساس في شؤون اللغة، لا يطيق أن يسمع في محيطه خطأ لغويا أيا كان، وكان يصلح ما يعترضه من الأخطاء ويحب الواضح السهل من العربية حتى في الشعر[٣] .

٥- إهتمام غير المسلمين بتعلم العربية من المسيحيين القائمين على شؤون الخراج والمال والإدارة لكي يتمكنوا من القيام بأعمالهم، وكان بعض هؤلاء المسيحيين قد استعربوا قبل الإسلام وازدادت

---

[١] انظر ص ١١٦ من الدراسة.

[٢] البيان ٤:٢.

[٣] وُك: العربية ص ٢٨.

رغبتهم في تعلم العربية للتقرب من الحكام وأولي الأمر، خاصة أن الدولة الأموية لم تجد حرجا في الاستعانة بهم، فتذكر المصادر أن أسرة سرجيوس المسيحية كانت تعمل لدى البيت الأموي عند معاوية الذي اتخذه مستشارا له في الشئوون المالية مع بقائه على الديانة المسيحية كما كان حفيد يوحنا الدمشقي مشرفًا على الشؤون المالية في عهد عبد الملك بن مروان، وظل الأمر كذلك حتى تعريب الدواوين، ومن أهم الأدلة على استعراب هؤلاء المسيحيين اهتمامهم بترجمة العلوم اليونانية إلى العربية على نحو ما يذكر صاحب الفهرست[١]

---

[١] الفهرست ص ٣٣٨.

البصرة: كانت البصرة[1] ميناء ومدينة تجارية تنتهي إليها الطرق الآتية من إيران والهند، وتقطعها الطرق الأخرى الصاعدة من بلاد العرب لتنتهي في الشمال، تمصرت عقب موقعة القادسية في العام السادس عشر للهجرة، على يد عتبة بن غزوان، الذي اتخذها معسكرا للجيوش المقاتلة في المشرق على مقربة من مصب دجلة في خلافة عمر بن الخَطاب، استقر العرب الفاتحون ومن هاجر بعدهم في البصرة، واختلطوا بالأجانب الذين كانوا يتولون بها من الفرس والهنود والزنج إلى جانب الأنباط السكان الأصليين كان القرآن الكريم هو نقطة البدء في كل نشاط لغوي وأدبي، فتذكر المصادر أن عمر بن الخَطاب كلف أبا موسى الأشعري بإقراء أهل البصرة كتاب الله، وقد حمل

---

[1] الاسم مشتق من البصرة بمعنى الحجارة الرخوة البيضاء أو الصلبة السوداء، "اللسان – مادة (بصر) يروي ياقوت أن البصرة تعريب "بسى راه" لأنها ذات طرق كثيرة تشعبت منها إلى أماكن عدة، معجم البلدان ٢:١٩٣ انظر: ما كتبه عنها د. أحمد كمال زكي، فى دراسته، بعنوان "الحياة الأدبية فى البصرة" . ط. دار المعارف ١٩٧١.

طريقته في القراءة قوم أشهرهم أبو الرجاء العطاردي أستاذ الحسن البصري[1] (ت ١١٠ هـ).

كان العمل على صيانة كتاب الله من التصحيف والتحريف وراء نشأة الدرس اللغوي، الذي بدأ على يد القراء منهم: أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ)، ونصر بن عاصم (ت ٨٩هـ)، وعبد الله بن أبي إسحاق (ت ١١٧ هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، وعيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) الذين ساهموا في وضع أسس قواعد العربية التي تبلورت عند سيبويه في كتابه الذي حكاه عن أستاذه الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) وتلميذه يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) الذي سمع عن الكتاب فأنكر ذلك، ولما نظر فيه قال: صدق الخليل فيما حكاه، كما صدق فيما حكى عني[2]

كانت البصرة أول مدينة عنيت بالنحو واللغة وتدوينها، يقول أحد الباحثين: "قد سبقت البصرة نحو مائة عام حين أتت الكوفة لتؤسس مذهبا خاصا يضاهي مذهب البصرة"[3].

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١:٢٥٧.

(٢) السيرافي: طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٥.

(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام ٢:٢٨٣.

نجد الكوفيين يقصدون البصرة لتلقي العلم على يد أساتذتها كالكسائي (ت ٨٩ هـ) النحوي الذي التقى بالخليل ويونس بن حبيب خليفة الخليل في البصرة، ودرس كتاب سيبويه على يد الأخفش، وكذلك فعل تلميذه الفَراء فرحل إلى البصرة. ولهذا نجد ابن النديم يقول: "قدمنا البصريين على الكوفين لأن علم العربية عنهم أُخِذَ"[١].

حين ينظر إلى الدور الذي ساهمت به مراكز الثقافة الإسلامية في العراق نلاحظ أن البصرة كانت أسبق هذه المراكز إلى تدوين اللغة ووضع قواعد النحو، في حين كانت الكوفه أكثر اهتماما وأوسع نشاطًا في رواية الشعر والأخبار ، ربما كان السبب في ذلك يرجع إلى أن العناصر الأجنبية في البصرة كانت أكثر اختلاقًا وتنوعا، وذلك نظرا لموقعها الجغرافي على ساحل البحر، الأمر الذي هيأها لتكون مرفأ للسفن التجارية القادمة من مختلف البلاد، ومن هنا كانت الحاجة إلى تعلم العربية وقواعدها في البصرة أقوى منها في الكوفة التي كان مجتمعها يقوم على العنصر العربي من الأنباط والمهاجرين من شبه الجزيرة، لهذا ندرك السر في

---

[١] الفهرست ٩٦.

اهتمام الكوفة برواية الشعر والأخبار لأنهما يمثلان تراث هذه القبائل[1]

كانت المساجد أهم معالم مدينة البصرة – مثل بقية الأمصار الإسلامية – من أهم مراكز العلم، يتقلى فيها المتعلم مبادئ القراءة والكتابة إلى جانب قراءة القرآن ودراسة علوم اللغة والشريعة، عرفت هذه المساجد حلقات العلماء الذين سبق ذكرهم، وتحول المسجد في عصر الأمويين والعباسيين إلى معهد كبير تُروى فيه الأحاديث وتُروى فيه القصص وتُعقد فيه المناظرات، ومكانًا يجذب الأمراء والخلفاء "ويروي الزجاجي: أن هارون الرشيد حين زار البصرة قصد مسجدها الكبير وجاس إلى يونس بن حبيب في حلقته[2]، إلى جانب المسجد الكبير في البصرة، وكان يمثل سوق المربد – أهم أحياء البصرة – مركزا هاما للثقافة العربية، فقد قصده الشعراء والعلماء لا ليحكموا بين الشعراء فقط، ولكن ليأخذوا اللغة عن الوافدين ويدونوا ما يسمعون، ويحفظون أخبارهم وأقاصيصهم ويتباهوا بما يجري على ألسنتهم من غريب،

---

[1] انظر ص ١٣٩ من الدراسة.

[2] مجالس الزجاجي ١٩٥.

ويروى عن الأصمعي أنه قال: "جئت إلى أبي عمرو بن العلاء فقال لي: من أين أقبلت يا أصمعي؟ فقلت: جئت من المربد، قال: هات ما معك، فقرأت عليه ما كتبت في أَلْوِحِي"[1] .

لقد وجد الأدباء أن من شروط أحاديثهم اتصالهم بعرب المربد الوافدين، يروي ياقوت عن الجاحظ أديب العربية الأكبر: أنه أخذ النحو عن الأخفش، وأخذ علم الكلام عن النظام وتلقن الفصاحة من العرب شفاها في المربد"[2] ، بقى المربد إلى القرن الثالث في العصر العباسي لذلك كان أهل البصرة أعرق في الفصاحة من غيرهم.

الكوفة: عندما خرج العرب الفاتحون تجاه الحدود الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة رأى عمر بن الخَطاب بثاقب نظره ألا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا، فأمر أن يبنَى لهم معسكرات على الحدود الشرقية حتى يظل اتصالهم بالجزيرة، وكانت هذه المعسكرات (البصرة

---

[1] آمال القاني ٣:٢٨٢.

[2] معجم الأدباء ٦:٥٦.

والكوفة)[1] قاعدة إمداد للجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي في المشرق.

نزلت الجيوش العربية منطقة الكوفة(٢) التي كانت غير مأهولة بالسكان وأشبه بالبيئة الصحراوية التي خرجت منها الجيوش في العام السابع عشر الهجري، تأسست الكوفة على بعد أميال من الحيرة التي كانت إمارة عربية أسسها المناذرة تحت سيطرة الفرس، كان العنصر العربي في هذه المنطقة هو المؤسس لهذه المدينة، فلم يكن العرب عنصرا وافدا أوثانيا كما نرى في أمصار أُخرى في فارس والشام ومصر[٢] .

وإلى جانب هذا العنصر العربي نجد العنصر الفارسي الذي كان في صحبة الجيش من أسرى الحرب، وقد أخذ هذا العنصر الفارسي يزداد عددا مع الأيام بحكم الموقع الجغرافي للكوفة من ناحية وبحكم الواقع التاريخي من ناحية أُخرى

---

[١] تركزت فى هاتين المدينتين مدنية وحضارة العراق، حتى إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة، وكان يطلق عليهما أحيانًا العراقين أو المصرين.

[٢] انظر ما كتبه عن الكوفة أستاذنا د. يوسف خليفة فى دراسته بعنوان "حياة الشعر فى الكوفة" ط. دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٨.

حتى أصبح العنصر الفارسي هو الغالب على المدينة والأكثرية العظمى لسكانها.

ونجد عنصرا ثالثًا يمثله الأنباط وهم عرب خُلص، كان لهم قديما دولة في شرق الأردن[1] ثم سكنوا الشام والعراق وتكلموا الآرامية إلى جانب العربية، كان لفظ النبطي في العصر الإسلامي يطلق على هؤلاء الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية إلى جانب العربية، نجد اسم هؤلاء الأنباط يتردد في المصادر العربية حيث تقرأ على سبيل المثال أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول لأهل الكوفة: لكم حذلقةُ النبط وصلَفُهم"[2].

يشكل السريان الذين كانوا منتشرين في العراق قبل الفتح الإسلامي في الحيرة وغيرها من المدن مثل "الرها" و"نصيبين" و"حران"، العنصر الرابع في الكوفة التي أنشئت كما سبق أن ذكرنا على مقربة من مدينة الحيرة، وهؤلاء السريان بعضهم على ديانته المسيحية النسطورية وبعضهم اعتنق الإسلام.

---

(1) انظر ص ١٣٩ من الدراسة.

(2) الجاحظ: الحيوان ٢:١٠٦.

وكما سبق أن أشرنا، بدأت الكوفة أولى خطواتها معسكرا عربيا ثم أخذت في التحول بخُطى سريعة إلى مدينة مكتملة المقومات تختلط فيها هذه العناصر البشرية الأربعة، وقام على تمصيرها طائفة من الصحابة، فقد هبط إلى الكوفة مع جيوش الفاتحين سبعون بدريا وثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وترجم ابن سعد [1] في طبقاته لمائة وخمسين صحابيا نزلوا بها، ويقول عن الكوفة "أن بها بيوتات العرب كلها وليست البصرة[2]، كان على رأس هؤلاء الصحابة ابن مسعود الذي لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه القرآن الكريم، فقد بعثة عمر بن الخَطاب إلى الكوفة معلما ووزيرا كما قال في كتابه إلى أهلها[3]، والتف حوله أصحاب له وصفوا بأنهم سرج الكوفه يأخذون عنه القرآن ويقرئونه للناس ويتلقون عنه العلم ويذيعونه بينهم، ونجد من يتخصص في القراءة، ويتفرغ لها في الكوفة التي عرفت خمسة من أئمة القراء هم: يحيى بن وثاب، عاصم بن أبي النجود،

---

(1) ابن سعد : الطبقات ٦:٤.

(2) المصدر نفسه ٦:٤٣.

(3) المصدر نفسه ٦:٧.

سليمان الأعمش، حمزة الزيات، الكسائي [1]، وثلاثة منهم هم: عاصم (ت ١٢٧هـ)، حمزة (ت ١٥٦هـ)، الكسائي (ت ١٨٩هـ) يعدون من أئمة القراء السبعة الذين اشتهروا، كان هؤلاء من الموالي الذين شاركوا العرب في العلم وتعليمه، فعاصم مولى بني أسد، وحمزة مولى لآل عكرمة، والكسائي مولى لبني أسد أيضا، ومثله الفَراء تلميذه.

وإلى جانب دور ابن مسعود الهام في القرآن نجد دروه في التشريع فقد حفظ عنه الفُتيا التي كان ينحى فيها منحى عمر في الاجتهاد وتبعه في ذلك تلاميذه علقمة بن قيس (ت ٦٢هـ)، وإبراهيم النخعي (ت ٩٦هـ)، وأشهر تلاميذ الأخير حماد بن أبي سليمان (ت ١٢٠هـ) أستاذ أبي حنيفة الذي لازمه ثماني عشرة سنة، وجلس في مسجد الكوفة يفتى ويعلم بعد موت أستاذه وهو في الأربعين من عمره، لقد تُوجتْ مدرسة الرأي في التشريع بأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) التي تقابل مدرسة الحديث التي توجت بمالك في المدينة.

---

[1] السيوطي: الإتقان ١:٧٣.

كانت مدينتا البصرة والكوفة أسبق المدن الإسلامية إلى تدوين اللغة، وتقعيد النحو، ورواية الشّعر والأخبار، ويعود ذلك إلى سببين:

١- ما كان للبصرة والكوفة من حضارة وثقافة ورثتهما عن الأمم القديمة، وكما يقول أحد الباحثين: "فلما دخل أهل هذين البلدين الإسلام فعلوا في العلوم العربية على قياس أُممِهم السابقة، فما كان منهم إلا أن طبقوا ما عرض في الإسلام على ما جرى عليه آباؤهم"[١]

٢- اعتناق العناصر الأجنبية الإسلام وطموحهم للتقرب إلى الطبقة الحاكمة وتولي الوظائف الإدارية والدواوين؛ فرأوا الحاجة إلى تعلم لغة دينهم الجديد من ناحية، ولغة الحكام من ناحية أُخرى، ومن هنا نشأت الحاجة إلى جمع اللغات وتدوينها؛ ليجدوا أمامهم المادة الأولى التي يتكلمون ويتعبدون بها، وإلى وضع قواعد النحو ليهتدوا بها إلى صحة التعبير وسلامته في تلك

---

[١] أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢:٢٧٨.

الصحراء العربية، وإلى رواية الشعر والأخبار ليتزودوا منها بما ينير لهم السبيل وهو اكتساب الحس اللغوي ويصلهم بالتراث العربي الضخم.

بدأت مدرسة الكوفة في اللغة والنحو بأبي جعفر الرؤاسي (ت ١٩٣هـ) الذي تخرج في مدرسة البصرة، وتتلمذ على عيسى بن عمر أستاذ الخليل، وتذكُر كتب الطبقات أنه كتب مصنفًا في النحو[١] ، ومن الذين درسوا في البصرة الكسائي الذي قرأ كتاب سيبوية على الأخفش، ويتتلمذ عليه الفَراء مؤسس مدرسة النحو الكوفي، الذي كان أقرب إلى طبيعة اللغة العربية، وأشد تمثيلاً لها من النحو البصري الذي اعتمد على مقاييس العقل والمنطق في تقعيد قواعد العربية، نرى في النحو الكوفي لهجات القبائل ولغاتها وأساليبها، ممثلة فيه أكثر مما نراه في النحو البصري، كما أن النحو البصري من جهة أُخرى أقرب إلى روح التعاليم، وأقرب إلى العقلية الأجنبية من النحو الكوفي، لعل هذا يفسر لنا أن كُتُب النحو التعليمية وغير التعليمية التي وصلت إلينا كانت من نتاج المدرسة البصرية.

---

[١] نزهة الألباب ٦٦، الفهرست ٦٤.

إلى جانب اهتمام الكوفة بالدراسات الدينية التي تمثلت في قراءة القرآن والتشريع الإسلامي، والاهتمام باللغة العربية وقواعدها، كان الاهتمام برواية الشعر والأخبار وأيام العرب، ونجد علماء الكوفة يهتمون بذلك، ومن هؤلاء أبو عمرو الشيباني، الذي جمع أشعار العرب حسب قبائلها، كل قبيلة في كتاب مستقل ، للأسف لم تصل هذه الأشعار. ومن العلماء الذين اهتموا برواية الشعر المفضل الضـبي وحماد الراوية، وتميزت الكوفة برواية الشعر الذي كان أشد ازدهارا من البصرة.

بغداد: رأى أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي أن يبتعد بحاضرة الدولة العباسية عن الكوفة مركز العلويين، فاتخذ القرية المسماة بغداد[1] عاصمة للدولة، التي أصبحت أهم مدينة في العالم الإسلامي، وبلغت أوج مجدها العلمي والثقافي زمن الخلفاء العباسيين، حيث كانت قبلة العلماء وبفضلها ازدهرت مراكز ثقافية أُخرى في دمشق والقاهرة وقرطبة؛ لأن العلماء الوافدين إليها من هذه البلاد عادوا إلى

---

[1] اختُلف فى اسمها ، فقال البعض أنه فارسي أو آرامي، وسماها المنصور دار السلام.

بلادهم حاملين العلم والثقافة، وقد هاجر إليها علماء البصرة والكوفة بعد انتقال الخلافة إليها، وصار للبغدادين مذهبا، يقوم على انتخاب بين آراء البصريين والكوفيين في النحو[١].

استطاعت بغداد أن تفرض نفسها على كلتا المدرستين، وتجتذب علماءهما وشعراءهما بحكم أنها حاضرة الدولة ومدينة الخلفاء والأمراء، كان الكوفيون أقرب إلى قصور البغداديين من البصريين؛ حيث كانت لهم الحظوة لدى الخلفاء والأمراء، فالمفضل الضـبي يعهد إِلَيهِ الخليفة المنصور بتأديب ولى عهده المهدي، والكسائي أستاذ المدرسة الكوفية يعهد إِلَيهِ المهدي بتأديب ولي عهده الرشيد، ثم يعهد إِلَيهِ الرشيد بتأديب ولده الأمين، والفراء تلميذ الكسائي يعهد إِلَيهِ المأمون بتعليم ابنيه، ويتعهد ابن السكيت تلميذ الفَراء أولاد المتوكل بالتعليم.

عرفت بغداد المدرسة النظامية التي تعتبر أول مدرسة تقوم على التعليم المنظم، أنشأها نظام الملك وزير مِلِكْشَاه السلجوقى (ت ٥٠٢هـ)، وأصبحت نموذجا للمدارس التي انتشرت بعد ذلك في الأمصار الإسلامية لنشر الثقافة

---

(١) انظر الفصل الخامس بهذه المدرسة: د. شوقي ضيف: المدارس النحوية.

العربية[١]، كما عرفت بغداد علماء مشهورين في النحو واللغة، من هؤلاء الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) الذي قرأ النحو على الزجاج البصري، ومنه اتخذ لقبه، ويعتبر كتابه "الجمل" من أشهر الكتب التعليمية في النحو[٢]، وأبو على الفارسي (ت ٣٩٢هـ) الذي عرف عنه حب الرحلة، والتنقل بين مدن وحواضر العالم الإسلامي للتدريس. ويشهد على ذلك مصنفاته التي تُنسب إلى هذه البلاد مثل المسائل الحلبية والدمشقية والشيرازية، ومن هؤلاء أيضا ابن جِني الذي لزم أبا علي الفارسي أربعين سنة، وصاحبه في بعض رحلاته والزمخشري (ت ٥٣٨هـ) الذي كتب في النحو المفصل، وفي اللغة معجم أساس البلاغة، وفي التفسير الكشاف، وفي الأدب ربيع الأبرار. كما عرفت بغداد علماء متأخرين مثل ابن الأنباري أبو البركات (ت ٥٧٧هـ) والعكْبرى (ت ٦١٦هـ) وابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ)، والاستراباذي (ت ٦٨٦هـ).

---

(١) انظر ص ١٦٤ من الدراسة.

(٢) انظر ص من الدراسة.

حلب : مضت الشام طوال القرنين الأول والثاني تُعنَى بالثقافة العربية، وكانت حلب في ظل الحمدانيين تنافس بغداد في النهضة العلمية التي انبثقت من بلاط سيف الدولة، الذي ضم مشاهير الشعراء وعلماء اللغة والنحو؛ فسيف الدولة لا يذكر إلا ومعه شاعره المتنبي الذي أُعجب به ابن جِني، وجمعهما بلاط سيف الدولة، وابن خالوية اللغوي النحوي (ت ٣٧٠ هـ) معلم سيف الدولة وأولاده، وهو بغدادي تلقى العلم في الكوفة والبصرة، وتشهد على ذلك كتبه مثل المقصور والممدود ، والمُذكر والمؤنث، وليس في كلام العرب، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن ، والإرشاد في القراءات السبع، لم يتورع يوما أن يلْكُم وجه المتَنَبي بمفتاح من حديد وهو شاعر الأمير، ويعرف بلاط سيف الدولة أبا علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) الذي طوفَ في بلاد فارس والعِراقَين، ومؤلفاته الإيضاح في النحو، والتكملة في الصرف، والحجة في القراءات السبع ، والتذكرة وغيرها. تشير مصادر اللغة إلى المناظرة المشهورة بين أبي علي وابن خالوية التي تذكرنا بالمناظرة المشهورة بين الكسائي وسيبويه، حول أسماء السيف؛ فقد قال ابن خالوية إني أحفظ

للسيف خمسين اسما، فابتسم أبو علي قائلاً: ما أحفظ إلا اسما واحدا وهو السيف، فقال: أين المهند والصارم، وكذا فقال: أبو علي: هذه صفات، كأنه لا يفرق بين الاسم والصفة، ولم يبق أبو علي طويلاً في بلاط الحمدانيين فالقصر لا يتسع لمتشاكسين، أحدهما مستند للأمير وهو ابن خالويه، والثاني مدّل بعلمه لا يلين، ولا يعرف تواضع العلماء، ولم يترك مكانًا لأحد غيره. من هؤلاء اللغويين والنحاة الذين عرفهم البلاط أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) ، من مؤلفاته مراتب النحويين، شجرة الدار، الفروق، والإبدال.

والزجاجي (ت ٣٣٧هـ) أقام في دمشق وحلب، أملى هناك على طُلابه الأمالي وله كتاب مجالس العلماء، والإيضاح في علل النحو، وكتاب الجمل في النحو الذي ظل مرجعا في النحو، في العِراقَين، إلى أن ظهر اللمع لابن جِني والإيضاح لأبي على الفارسي، ولكنه لا يفقد مكانته ككتاب تعليمى في النحو، يظل يدرس في مصر والمغرب والأندلس.

عرفت الشام نُحاة مشهورين في القرن السابع منهم ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) الذي يرتبط اسمه بشرح المفصل للزمخشري، وابن الحاجب (ت ٦٤٣هـ) الذي يرتبط اسمه

بالكافية والشافية، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) الذي رحل من الأندلس إلى دمشق، صاحب الألفية المشهورة.

الفصل الثاني

العربية في فارس وبلاد ما وراء النهر

الفصل الثاني

العربية في فارس وبلاد ما وراء النهر

فتح فارس وبلاد ما وراء النهر:

سبق أن عرفنا أن جيوش المسلمين عبرت أراضي العراق بعد موقعة القادسية عام ١٦ هـ ، غرب نهر الفرات إلى العاصمة الفارسية المدائن، التي تقع شرق نهر دجلة، التي بدت للعرب كأنها مدائن لا مدينة واحدة، وكان سقوط هذه المدينة في العام نفسه مقدمة لانهيار الإمبراطورية الفارسية، كما كان هذا الانتصار سببا في توغل جيش المسلمين إلى داخل بلاد الفرس، ثم إلى نهاوند جنوب بحر قزوين، التي هزمت فيها جيوش الفرس هزيمة منكرة عام ٢٠ هـ، وسميت هذه الموقعة بفتح الفتوح، وواصلت جيوش المسلمين الزحف في الأراضي الفارسية؛ فاستولت على الأهواز وأصفهان وشيراز جنوب نهاوند عام ٢١هـ ، ثم اتجهت شرقًا إلى خراسان ومدنها، وبمقتل كِسرى الفرس يزدجرد عام ٣١هـ، تنتهي دولة آل ساسان الفارسية، وقد كانت هذه الفتوحات التي تمت في عهدي عمر وعثمان تدار من العراق.

تواصلت الفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين إلى بلاد ما وراء النهر، التي تقع شرق وشمال شرق إيران، التي تُسمى بالتركستان، وتقع بين نهري جيحون وسيحون، وبلاد السند، بدأت هذه الفتوحات في عهد معاوية ٦٠ – ٦٤، حيث وصل المسلمون إلى بخارى وسمرقند اللتين تقعا بين نهري جيحون وسيحون، وكان ذلك بتخطيط الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) الذي عين المهلب بن أبي صفرة، ثم ابنه يزيد، لقيادة هذه الجيوش.

ثم توالت الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك ٨٧ – ٩٦ بقيادة قُتيبة بن مسلم، الذي استطاع أن يغزو كل المدن التي تقع حول النهرين، بالإضافة للمدن التي تقع جنوب بحر قزوين وجيلان، وطبرستان، وجرجان.

تطلع المسلمون إلى غزو البلاد المحيطة بنهر السند، التي تمتد غرب إيران، وتكون هذه البلاد جزءا كبيرا من دولة باكستان الحالية، وجزءا من بلاد الهند، وتم ذلك بقيادة أسد بن عبد الله القسري، ونصر بن سيار اللذين وليا خُراسان في عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ – ١٢٥، واستطاع المسلمون عبور نهر السند والاستيلاء على المدن السندية

مثل كابول، غزنة، سجستان، وتوغلوا حتى حدود الصين، وكانت مدينة كاشغر آخر ما وطئت أقدام المسلمين في هذه البلاد.

تعريب فارس وبلاد ما وراء النهر:

هكذا رأينا كيف امتدت فتوحات المسلمين التي شملت إيران وتركيا والهند الحالية، ولم تكن هذه الفتوحات نتيجة للقوة العسكرية فقط، وإنما كانت نتيجة لمعاناة أهل هذه البلاد التي وجدتْ في هذه الجيوش خلاصا من ظلم واستبداد الحكام، كما وجدت في الدين الجديد مبادئ المساواة والعدل، التي لم تعرفها الديانات التي كانت في هذه البلاد، مثل الزرادشتية في إيران، والهندوكية في الهند، لقد سارع أهل هذه البلاد في الدخول في دين الله أفواجا ، وأسرع من أسلم منهم إلى تعلم لغة القرآن والحديث النبوي حتى يتمكن من أداء الشعائر الدينية من جهة، والتواصل مع الفاتحين من العرب والوافدين عليهم من جهة أُخرى، ولم يمض قرن من الزمان حتى أخذت العربية تسود في هذه البلاد ليس فقط بين من أسلم، ولكن أيضا بين من بقي على دينه.

أقبل الفرس وغيرهم من أهل هذه البلاد على التعرب وأكبوا على العربية حتى أتقنوها، واتخذوها وسيلة للتعبير عما في عقولهم ووجدانهم، وقد عرفت هذه البلاد مشاهير الكتاب والشعراء والعلماء في علوم اللغة والشريعة، مثل سيبويه وابن المقفع، وبشار، والزمخشري، والجرجاني، والفارابي، وابن سينا، والبخاري، والترمزي، وغيرهم.

لقد ارتبط انتشار العربية في هذه البلاد بعدة عوامل هي:

(١) العامل الديني: الذي يمثل أقوى الدوافع التي مكنت للعربية هذا الانتشار، فهي لغة الدين الجديد، وأداته التعبيرية الأولى، يتعلمها الآحاد العاديون من عامة الناس لكي يؤدوا بها الشعائر، ويتعلمها خاصة الناس بقصد إتقانها لكي يتعمقوا في فهم تعاليم الشريعة من القرآن الكريم، والحديث الشريف ويعلّمونها للآخرين، ومن هؤلاء الخاصة كان علماء علوم الدين واللغة، إلى جانب العلوم الأخرى كما أشرنا.

(٢) العامل البشري: الذي تمثل في هجرة العرب؛ فقد شهدت بلاد فارس ـ مثل خراسان ومرو وكرمان وبخارى وسمرقند وبلخ ـ هجرات متتابعة للعرب، يشير إليها البلاذري، فقد بلغ عدد الجنود الفاتحين في خلافة سليمان بن عبد الملك ٩٦ – ٩٩[١] خمسين ألفًا، ووراثهم أضعاف هذا العدد من الوافدين الذين امتزجوا بأهل البلاد، إلى جانب أفراد القبائل المهاجرة التي كانت تمت بصلة القرابة لهؤلاء الفاتحين، وقد تم هذا الامتزاج عن طريق التسري بالإماء والمصاهرة، وإلى جانب هذا الامتزاج الدموي بين العنصر العربي والعناصر الأجنبية، نجد الامتزاج الروحي عن طريق الولاء الذي شرعه الإسلام، ويتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم، فقد يكون الشخص فارسيا أو هنديا، أو تركيا، ويصبح عربيا بالولاء[٢]، وهكذا استطاع الإسلام بتعاليمه أن يحدث امتزاجا

---

[١] البلاذري: ٤٠٩ – ٤١١.

[٢] انظر كريم حسام الدين: اللغة والثقافة ص ١٥٠ وما بعدها.

بين العناصر، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأراضي المفتوحة، وإنما بلغة بامتلاك القلوب، وقد عرفت الحضارة الإسلامية من هؤلاء الموالي اللغوي والنحوي والفقيه والمفسر وغيرهم [١] .

(٣) العامل السياسي: يتمثل هذا العامل في مقولة ابن خلدون المشهورة "ولع المغلوب بتقليد الغالب"، وما ذكره في المقدمة قائلاً: ".. لما كان لِسان القائمين بالدول الإسلامية عربِيا، هجرت اللغات الأعجمية في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللِسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجرت الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللِسان العربي لِسانهم، حتى رسخ ذلك اللغة في جميع أمصارهم، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة"[٢].

---

[١] انظر ص من الدراسة.

[٢] ابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٥، انظر ص من الدراسة

كما تمثل العامل السياسي في تقرب أهل البلاد المفتوحة من الطبقة الحاكمة الجديدة، ورغبتهم في الالتحاق بالإدارات والدواوين التي تقوم على شئون الدولة، ولا يتحقق ذلك لهم إلا بتعلم العربية.

(٤) العامل اللغوي: فلم تكن العربية غريبة على أهل فارس، فقد تجاورت اللغتان نتيجة لتجاور العرب والفرس في شمال الجزيرة بأرض العراق وجنوب الجزيرة في أرض اليمن، تروي بعض كتب التاريخ أن بهرام كور الملك الساساني نشأ في الحيرة، في كفالة المنذر أحد المناذرة[١] ،وكان يعرف العربية وينظم بها الشعر ، ويذكر الطبري أن مهران بن باذان أحد قادة الفرس كان ينظم الشعر بالعربية ويستطرد قائلاً: "فأنكرت ذلك حتى حدثني من لا أتهم من أهل العلم أنه كان عربيا، نشأ مع أبيه باليمن إذ كان عاملاً لكسرى، قال: فلم أنكر ذلك حتى بلغني:[٢] كما يروى أن الملك

(١) انظر ص ١٤٠ من الدراسة، دولة المناذرة.

(٢) الطبري ١:٢٢٠.

سابور الفارسي صالح العرب، ومكن بعض القبائل مثل تغلب وعبد القيس وبكر ووائل من سكْنَى كرمان والأهواز، وكذلك دخلت ألفاظ فارسية العربية، وعرف بعض العرب الفارسية، وكان عدي بن زيد وابنه زيد بن عدي يكتبان بالعربية والفارسية[١]

كما يتمثل العامل اللغوي في علاقة الفارسية بإحدى اللغات السامية التي تنتمي إليها العربية، وهي اللغة الآرامية، لقد كانت لغة الفرس أيام الساسانيين تُسمى الفهلوية، وتكتب بخط مأخوذ من الخَط الآرامي، واشتملت على كثير من الألفاظ السامية لاسيما الآرامية منها، وكان ذلك نتيجة لاستعمال هذا الخَط فقد كان الكاتب بالخَط الإيراني إذا خشي أن تُبهم كلمة ما بالفارسية، كُتب مكانها كلمة آرامية لضمان وضوحها، فإذا أراد أن يكتب كلمة "نان" وتعني خبزا في الفهلوية كتب "الخما" بالآرامية وقرأها نان، وإذا أراد أن يكتب كوشت بمعنى لحم بالفهلوية كتب سرا بالآرامية وقرأها

---

[١] د. عبد الوهاب عزام: الأدب العربي فى بلاد فارس، مجلة المجمع العلمي العربي ص ٤٩٢.

"كوشت"، وهذا يعني أن الكاتب باللغة الفارسية كان لا يعرف الخَط فقط ، وإنما كان يعرف الآرامية ويستعين بها في مواضع اللبس[١].

لقد صارت العربية لغة القرآن ولغة الدولة ولغة العلم والأدب في فارس، يستعملها العربي الأعجِميّ في علوم الدين وغيرها زهاء ماءتين وخمسين عاما، منفردة بالعلوم والآداب، لا تشاركها لغة أُخرى إلا كُتب دينية قليلة كتبها المجوس بالفهلوية، وصارت العربية كذلك لغة الخطاب بين المثقفين، وفي الأمصار الكبيرة لا سيما في خراسان وغربي فارس[٢].

ومن الدلائل على أن العربية كانت ذات المكانة الأولى في دواوين هذه البلاد، وإن كانت لغة العامة فارسية، أن أحد وزراء الغزنويين اتخذها لغة الدواوين، ولو أن العربية كانت غريبة في تلك الأقطار لوجد هذا قبولاً، ولاستمرت الدواوين بالفارسية لغة البلاد، ولكن الوزير أحمد بن حسن اليمندي رد الدواوين إلى العربية، ومن الممتع في هذا أن نقرأ ما كتبه

---

(١) د. عبد الوهاب عزام: الأدب العربي فى بلاد فارس، مجلة المجمع العلمي العربي ص ٤٩٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦٤.

في هذا الصدد العتبي، الذي كتب تاريخ محمود الغزنوي بالعربية مسجوعا قائلاً: ".. وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة في الصناعة لم يعتن بها في سالف الأيام، ولم يرض بنانُه بخدمة الأقلام، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية، حتى كسدت سوق البيان، وبارت بضاعه الإجادة والإحسان، استوت درجات العجزة والكفاءة، والتقى الفاضل والمفضول على خُطى الموازاة، ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل، فجزم على أوشحة ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية، إلا عن ضرورة من جهل من يكتب إِلَيهِ وعجزه عن فهم ما يتعرب به عليه"[1].

لقد ظلت العربية حتى القرن العاشر الهجري لغة العلم، ولم تستطع الفارسية أن تستولي على ألسنة العلماء الإيرانيين، فقد كان يكتب بها ابن سينا والبيروني في القرن الخامس، ونصر الدين الطوسي والقزويني في القرن السابع، وسعد الدين التفتازاني وعضد الدين الإيجي في القرن الثامن، والسيد الشريف الجرجاني في القرن التاسع ، طوال هذه القرون لم تستطع الفارسية أن تتغلب على العربية، ربما كتب

---

(1) المصدر نفسه ص ٤٩٧.

بعض هؤلاء رسالة أو ترجم عملاً إلى الفارسية كما نجد عند ابن سينا والبيروني والغزالي، ولكن تظل العربية هي اللغة الأساسية، التي تذيع بها المعرفة والعلم، يرجع ذلك إلى تفوق العربية على الفارسية في القُدرة على التعبير العلمي، لقد أصبحت العربية لغة علمية تزخر بمصطلحات العلم فكان من الصعب أن تحل محلها الفارسية ويصور لنا ذلك البيروني (ت ٤٤٠ هـ)قائلاً: "..إلى لِسان العرب نُقلت العلوم إلى أقطار العالم، فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها إلى الشرايين والأوردة.. والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية، ويعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علمٍ قد نُقل إلى الفارسية فسيرى أنه قد ذهب رونقُه، وكسف بالُه، واسود وجهه وزال الانتفاع به، إذًا لا تصلح هذه اللغة الفارسية إلا للأخبار الكسروية، والأسحار الليلية، كما يذكر أن الكتاب إذا ُألف بالفارسية ذهب بهاؤه، وأن لغة الخوارزمية، وأن الفارسية والعربية سواء لديه، ليست إحداهما لغته، ولكنه يرى أن الفارسية لا تصلح للتأليف[١] .

---

[١] د. على الشابي : كتاب الأدب الفارسي والعصر الغزنوي ص ٣٣٨، نقلاً عن د. عبد الوهاب عزام الأديب العربي فى بلاد فارس ص ٤٩٩.

لم تكن العربية لغة العلماء والمثقفين فقط، وإنما كانت أيضا لغة العامة من الناس، خاصة في المجال الديني، ويدل على ذلك ما رواه السبكي قائلاً: ".. من أن فقهاء الشاش كتبوا إلى ابن سريج (ت ٣٠٦ هـ) من أئمة المذاهب الشافعي وقاضي شيراز يعلمونه أن الناس في ناحيتهم بأرض الشاش وفرغانه مختلفون في فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب والفُتيا، يسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وأبي حنيفة وداود والأصبهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي فكتب القاضي لهم الرسالة.."[١]

وكما سبق أن ذكرنا، أن الفارسية لم تستطع طوال هذه القرون أن تتغلب على العربية، ربما كتب بعضهم رسالة أو ترجم عملاً إلى الفارسية، ولكن تظل العربية هي اللغة الأساسية، ونجد كثيرا من الأدباء يكتب باللغتين شعرا ونثرا وسمي كل منهم ذا اللِسانين (دو زبار) مثل عطاء بن يعقوب الذي له ديوانان عربيّ وفارسي، ومن هؤلاء أيضا الباخرزي وسعدي الشيرازي، لقد كان معظم شعراء الفرس يعرفون

---

[١] طبقات الشافعية ٣:٤٥٧.

العربية على اختلاف حظهم منها، وكثير منهم أنشأ بها كثيرا أو قليلاً، وإذا نظرنا إلى كبار العلماء ذوي الأصول الفارسية مثل الغزالي، والرازي، البيروني، والبيضاوي ، والزوزني والطوسي ، وابن سينا، الذين ينتمون إلى القرون الرابع والخامس والسادس والسابع، ووجدنا لغة التأليف عندهم العربية؛ فلم يكتبوا بالفارسية إلا كُتبا صغيرة لا تقاس بما كتبوا بالعربية[1].

ولقد تأثرت اللغة الفارسية طوال هذه القرون باللغة العربية وأول مظاهر هذه التأثير أنها كتبت بالخَط العربي، واشتملت على كثير من الألفاظ العربية، وقد يجد القارئ ألفاظًا عربية متوالية ليست للفارسية فيها إلا التراكيب والصلات، وقد استمرت هذه إلى يومنا هذا، ولا تزال العربية في هذا العصر تمد الفارسية بألفاظ جيدة، إلى جانب الألفاظ التي أمدتها بها في العصور الخالية[2] .

لم يسِر التعريب في طريقه المرجو، حتى يبلغ الغاية، مثل الذي بلغه الإسلام في هذه البلادن، ولم يحقق التعريب

(1) المصدر نفسة ص ٤٩٩.

(2) المصدر نفسه ص ٥٠٠.

النجاح الذي حققه في العراق والشام ومصر والمغرب، فقد شرع الفُرس في النصف الثاني من القرن الثالث في الاستقلال عن الخلافة العباسية، وظهرت دويلات قويت بمقدار تأخرها زمنًا وبعدها عن دار الخلافة مكانًا، امتد نفوذ هذه الدويلات من شرق إيران إلى الغرب، حتى قاربت العراق.

من هذه الدويلات الطاهريين في خراسان، والصفاريون في سجستان شرق إيران، والسامانيون شمال إيران، وفيما وراء النهر في بخارى، والزياريون في طبرستان، والبويهيون في غرب إيران التي ظهرت عام ٣٣٠هـ وامتد نفوذها إلى العراق واستولت على بغداد بعد أربعة عشر عاما من ظهورها، ودام لها السلطان على الخلافة أكثر من مائة عام، ويعتبر عضد الدولة من أهم حكامها.

تميزت هذه الدولة بانضوائها تحت لواء الثقافة العربية الإسلامية، لم يهتم حكامها بإحياء الفارسية وآدابها مثل الدويلات الأُخرى، وقد عملت على اجتذاب العلماء من النحاة واللغويين ، فنجد أبا علي الفارسي يؤلف كتاب الإيضاح في

النحو، والتكملة في الصرف لعضد الدولة، ويتلقى العلم إسماعيل بن عبد الله بن ميكال، أحد كُتاب الدولة على يد بن دريد اللغوي، كما كان وزراء هذه الدولة من كبار الأدباء في مقدمتهم ابن العميد الذي بلغ حبه للعربية أن أغرى علماء العراق مثل السيرافي، والرماني للقدوم إلى الدولة، وابن عباد المعروف بالصاحب مؤلف معجم المحيط، ومعجم الجوهرة الذي اختصر فيه جمهرة ابن دريدان، وله رسالة في مساوئ المتنبي، وألف له ابن فارس كتاب الصاحبي في فقه اللغة، ومن وزرائها المشهورين الوزير المهلبي وأبي إسحاق الصابي.

ومن هذه الدويلات الدولة الغزنوية وعاصمتها غُزنة، وهي دولة تركية النسب، امتد سلطانها إلى إيران الشرقية والشمالية ، أهم ملوكها محمود الغزنوي (٣٨٨ – ٤٢١ هـ)، وإليهِ أهدى الفردوسي الشاعر الفارسي المشهور كتاب "الشاهنامة" عن منظومة طويلة تضمنت تاريخ فارس وأساطيرهم، وكتب البيروني كتاب "التفهيم في التنجيم" بالفارسية، وكانت هذه الدولة تمثل أهم مراكز العلم والأدب في الشرق الإسلامي.

ثم قامت دولة السلاجقة ٤٢٩ هـ فاستولت على ما بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية، واعترف الخليفة العباسي بتلك الدولة، وهي مثل الدولة الغزنوية تركية النسب سنية المذهب، أهم ملوكها ألب أرسلان (ت ٤٦٥هـ) الذي امتد نفوذه إلى مدينة كاشغر على حدود الصين، ولا تُذكر هذه الدولة دون ذِكر أشهر وزرائها نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ) الذي كان سياسيا حكيما محبا للعلم والثقافة العربية، يرتبط اسمه بمدارسه المعروفة باسم "المدارس النظامية" التي أنشأها في بغداد واستقدم لها العلماء مثل: الغزالي، والتبريزي، وأبي إسحاق الشيرازي. كما يرتبط اسم عمر الخيام بهذه الدولة، وهو الذي بنى لها مرصدا عظيما خُلد فيه اسمه.

لقد تنافس حكام هذه الدويلات في ضم العلماء المشهورين إلى قصورهم، وخير من يمثل ذك عضد الدولة، الذي كان يجري الرواتب على الفقهاء والأدباء والقراء، ورغب الناس بالعلم وصنف له العلماء الكتب كما فعل أبو علي الفارسي، وقد ألف الفَراء كتاب البهاء للأمير عبد الله بن طاهر، وجاء بعده ثعلب ليرث وظيفته في بلاط

الطاهريين، ويصنف كتابه الفصيح على شاكلة البهاء ويتولى تأديب أولاد الأمير عبد الله، كما كان العلماء والأدباء بدورهم يجوبون عواصم ومدن هذه الدويلات، ويهدون إلى الحكام والأمراء مؤلفاتهم فالثعالبي يهدى كتابه المبهج والتمثيل والمحاضرة إلى أمير طبرستان، والنهاية في الكفاية واللطائف والظرائف لأمير خوارزم، ولطائف المعارف للصاحب بن عباد، وسحر البلاغة وفقه اللغة للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدباء في نيسابور.

وإذا كانت العربية لم تستطع أن تفرض نفسها، بوصفها لغة تواصل لأهل هذه البلاد، فإنها ظلت لغة العلم والثقافة، قام عليها علماء ينتسبون إلى بلاد مختلفة وأخذوا على عاتقهم حماية العربية من التشويه واللحن، وأحاطوها بأسوار من الصحة لضمان استمرار نقائها وفصاحتها.

عرفت فارس مدنًا وأقاليم كانت العربية فيها هي اللغة الرسمية للدولة واللغة العلمية التي يكتب بها مؤلفاتهم، واللغة الدينية التي يؤدي بها أفراد الشعب الشعائر الدينية، كما ظهر فيها علماء العربية المشهورون، نجد إقليم الري في الشمال وأهم مدنها: جرجان، همدان أصفهان، وقزوين، ودينور،

ومن علماء هذا الإقليم: ابن فارس الذي نشأ في قزوين ورحل إلى بغداد والكوفة، والإسكافي الذي نشأ في أصفهان وعاش في الري، ونجد من هؤلاء أبا هلال العسكري صاحب كتاب الفروق معجم جمهرة الأمثال من عسكر مكرم من ضواحي أصفهان والراغب الأصبهانى صاحب معجم ألفاظ القرآن ، وحمزة الأصبهاني (ت ٣٥٠ هـ) صاحب كتاب الأمثال الدّرة الفاخرة.

وإقليم شيراز في جنوب فارس، وأهم مدنه:ـ سيراف، اصطخر، ونيسابور وفيروزباد، وشهرستان ومن العلماء المشهورين في هذه المدن السيرافي النحوي والفيروزآبادى صاحب قاموس المحيط، والشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل.

وإقليم خراسان وأهم مدنه:ـ مرو التي كانت عاصمة الإقليم في عصر المأمون، ومن أعلام هذه المدينة اليزيدي اللغوي (ت ٢٠٢ هـ) معلم أولاد المأمون، ومؤرخ السدوسي والنضر بن شميل (ت ٢٩٤ هـ)، وهراه.. ومن علمائها:ـ الأزهري صاحب معجم التهذيب، وأبو عبيد الهروي صاحب كتاب الغريب في القرآن والحديث،

ونيسابور، وقد شهدت خراسان ظهور الكتب القيمة قبل أن تظهر في العراق مركز الثقافة العربية، فمعجم العين أول معجم للعربية، عرف ونُشر في خراسان، كما يذكر صاحب الفهرست على يد الليث بن المظفر حفيد نضر بين سيار حاكم خراسان، والذي رحل إلى العراق، وأخذه عن الخليل.

نلاحظ أن علماء هذه الأقاليم والمدن قد اهتموا بصناعة المعجم، فمعجم الجمهرة صنفة ابن دريد (ت ٣٢١هـ) عندما استدعاه عبد الله بن ميكال والي الأهواز لتأديب ابنه، ومعجم تهذيب اللغة وصنفه أبو منصور الأزهري الهروي (ت ٣٧٠ هـ)، ومعجم ديوان الأدب صنفه أبو إسحاق الفارابي (ت ٣٥٥هـ) من قزوين، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) صاحب معجم المحيط، والجوهري (ت ٣٩٥هـ) صاحب معجم الصحاح وهو ابن أخت الفارابي ، أقام في نيسابور ومات بها، والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي صنف معجم أساس البلاغة، ومعجم الفائق في غريب الحديث والمفصل في النحو، والكشاف في التفسير من مدينة زمخشر.

ربما نختم هذا الفصل بما ذكره الزمخشري، الذي عاش بين منتصف القرن الخامس الهجري ومنتصف القرن

السادس، في تلك البلاد في مقدمة كتابه المفصل في العربية، مما قد نسمعه اليوم مرة أُخرى، يقول الزمخشري: ".. ولعل الذين يغضون من العربية، ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خيرة رسلِه وخيرة كتبه في عجم خَلْقِه، ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيغًا عن سواء المنهج، ويشير الزمخشري إلى أن هؤلاء الذين يضعون من العربية كانت كراهيتهم في صميمها للنحو، لا للغة العربية نفسها"، ثم يقول عن هؤلاء: "وهذا اللِسان (يعني العربية) مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامها فهم متلبسون بالعربية أية سلكوا، غير منفكين عنها أينما وجهوا، كلٌ عليها حين سيروا، ثم أنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها، ويدفعون خصلها، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلمها وتعليمها ويمزقون أديمها، ويمضغون لحمها، فهم في ذلك على المثل السائر: "الشعير يؤكل ويذم" ويدعون الاستغناء عنها، وإنهم ليسوا في شيء منها، فإن صح ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأسا

والإعراب، ولا يقطعون بينها وبين الأسباب فطمسوا عن تفسير القرآن آثارهما وينفضوا من أصول الفقه غبارهما"، ويستطرد قائلاً: "وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلَق المناظرة، ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأُبهة، وهل أصبحت الخاصة بالعامة مشبهة، وهل انقلبوا هزأةً للساخرين وضحكةً للناظرين..".

تبين كلمات الزمخشري أن هناك من يتبرم من العربية، على الرغم من أنها لغة العلم والتعليم والأدب والقضاء، وأن التدريس بغيرها يذهب بجمال العلم[١]، ويجعل الخاصة كالعامة، فلغة الخاصة العربية، ولغة العامة الرطانة العجمية، وما أشبه اليوم بالبارحة!

---

[١] انظر كلام البيروني، ص ١٦١ من الدراسة.

الفصل الثالث

العربية في مصر

الفصل الثالث

العربية في مصر

فتح مصر:

لم يشعر المسلمون بالاستقرار في سوريا وفلسطين بينما الجيش الروماني يقبع على مقربة منهم، ومن هنا كان التوجه إلى مصر التي كانت تعاني بدورها مما عانته سوريا وفلسطين من ظلم الرومان وعسفهم، وكان من رأي عمرو بن العاص، الذي هزم الرومان في موقعة اليرموك بالشام، أن هذا النصر لن يعزز إذا لم تُفتح مصر الخاضعة للرومان، فطلب من عمر بن الخَطاب الإذن بالسير إلى مصر، فأذن له.

سار عمرو بن العاص على رأس جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل، وعبر بوابة مصر شبه جزيرة سيناء في آخر عام التاسع عشر الهجري، وتقدم إلى بلبيس واستولى عليها، ثم التقَى بجيش الروم، في موقعة عين شمس شمال القاهرة التي هزم فيها الرومان هزيمة منكرة، وتقدم جنوبا إلى حصن بابليون في منطقة حلوان، الذي تم حصاره شهورا، وبدأت مفاوضات انتهت بعقد الصلح مع المقوقس حاكم

مصر، على دفع الجزية التي كانت أول كثيرا مما يأخذه الروم من المصريين.

لم يوافق هرقل على هذا الصلح الذي وقعه المقوقس مع عمرو بن العاص، كان ذلك عام ٢٠ هـ - ٦٤٠م، فتقدم عمرو لفتح الإسكندرية عام ٢١هـ وعقد صلحا ثانيا مع المقوقس بشروط أهمها:

١- دفع الجزية

٢- حرية العبادة.

٣- أن ترحل الحامية الرومانية، وأن يتبقى لدى المسلمين رهينة منهم، حتى لا يهاجموا مصر مرة أُخرى، وبهذا أصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية في عهد عمر بن الخَطاب[١].

قد يظن البعض أن دخول العرب مصر كان حدثًا مفاجئًا يحدث لأول مرة، ولكن الأدلة التاريخية تشير إلى أن مجئ العرب إلى مصر كان حلقه جديدة من سلسلة الأدلة التاريخية تشير إلى أن مجئ العرب إلى مصر كان حلقة جديدة من سلسلة الحلقات التي ربطتهم بها منذ فترات بعيدة

---

[١] انظر: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ١:٤١٤ – ٤١٥.

قبل الفتح الإسلامي، كما أن اللغة العربية لم تكن غريبة أيضا عن مصر فقد عرفتها منذ تاريخ طويل، فقد ذكر المؤرخ اليوناني استرابو: أن بعض القبائل العربية عبرت البحر الأحمر في القرن الأول الميلادي واستقرت في مدينة "قَفْط" الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وكانت لهم جِمال ينتقلون بها كوسيلة للتجارة بين مصر والجزيرة[1] .

يذكر المقريزي، أن بعض عرب قبائل غسان وجذام وعاملة الذين اعتنقوا المسيحية نزلوا شمال سيناء، وأقطعهم حاكم مصر الروماني ولاية تانيس (صان الحجر)، وكانوا برئاسة رجل من بني عامر بن صعصعة يسمى بأبي ثور، ولما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز لهم العرب المنتصرون والقِبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه[2] .

يشير بعض المؤرخين العرب إلى أن عمرو بن العاص قائد جيوش الفتح، كان على معرفة بمصر قبل

(١) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ١:١٧٢.
(٢) الخطط ١:٢٨٦.

الإسلام، فقد قدم إلى الإسكندرية للتجارة [1] مع شماس مصري من بيت المقدس[2]

عرفت مصر قبل الفتح الإسلامي جنسيات ولغات مختلفة، فقد كان بها بعض الإغريق منذ الحكم اليوناني إلى عهد الرومان، الذين يتحدثون اليونانية التي كانت لغة العلم والثقافة والإدارة في مصر والشام شرقًا، في بلاد المغرب العربي غربا، وكان بها الرومان المختلون ولغتنم اللاتينية، أما عامة الشعب من القبط فكانوا يتحدثون باللغة القبطية بلهجاتها المختلفة البحرية في الشمال، والصعيدية ولهجات أُخرى في أحميم والفيوم ومنف، إلى جانب هذه اللغات الثلاث كان بالإسكندرية بعض السريان المسحيين الذين يتكلمون السريانية، وبعض اليهود الذين يتكلمون العبرية.

لقد كان دخول العرب المسلمين بدينهم ولغتهم إلى مصر ضرورة حضارية، أملتها الظروف التاريخية

---

(1) أسس الإسكندر مدينة الإسكندرية عام ٣٣٣ ق.م، وأقام بها قائده بطليموس الذي أسس دولة البطالمة التي أنشأت بها جامعة كبرى ألحقوا بها مكتبة ضخمة، وأصبحت اليونانية لغة الدولة والعلم، ويغزو الرومان الإسكندرية بقيادة يوليوس قيصر وويحرق المكتبة وتصبح مصر ولاية رومانية حتى فتحها المسلمون.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣.

والسياسية والفكرية التي كانت تمر بها تلك الفترة من تاريخها، كما أنها كانت بموقعها الجغرافي متأثرة بالمتغيرات التي كانت تحدث بالقرب منها، فما من دعوة دينية أو حدث سياسي إلا وتأثرت به مصر بشكل أو بآخر، فهي لم تكن بعيدة عن القوى السياسية في العالم القديم، نعني بذلك الإمبراطوريات الثلاث الفارسية واليونانية والرومانية، ولم تكن بعيدة عن الديانتين اليهودية والمسيحية والاتجاهات الفلسفية المعاصرة.

هذا إلى جانب أنها تمتعت بقوة ذاتية، قادرة على تمثل وتذويب كل ما يأتي إليها من موجات بشرية، أو يفد عليها من فكر وثقافة ودين، ولعل هذا يفسر اتخاذ مصر للإسلام دينًا، والعربية لغة، لكي تقوم بدورها الحضاري المنوط بها، ولقد تم هذا الاتصال التدريجي بين العرب المسلمين الذين ذابوا بين سكان مصر وجددوا شبابها دينًا ولغةً.

سياسيا التسامح: كان المصريون ينتظرون الخلاص من ظلم الرومان، فرأوا في مجئ المسلمين خلاصا لهم من هذا الظلم ، ويدل على ذلك كتاب عمرو بن العاص لبنيامين بطريرك القبط، الذي كان مختفيا ثلاثة عشر عاما خلال حكم

المقوقس لمصر أن يحضر آمنا مطمئنًا يدير حالة بيته وسياسة طائفته، "كما شملت الدعوة كل الذين فتنوا عن مذهبهم أو الذين هربوا من ديارهم"[1] .

ونجد من مظاهر هذا التسامح الذي شعر به أقباط مصر بناء الكنائس والأديرة، وإصلاح ما تهدم في عصر المقوقس، يروي لنا ابن عبد الحكم: أن أول كنيسة بنيت في فسطاط مصر كانت في ولاية مسلمة بن مخلد ٤٧(– ٦١ هـ [2])، ويحدثنا سعيد بن بطريق في تاريخه أن عبد العزيز بن مروان آذن في ولايته على مصر (٦٥ – ٨٨هـ) ببناء عدد من الكنائس بعضها للملكانية، وبعضها لليعاقبة قائلاً: ".. وكان له فراشون نصارى ملكية، فاستأذنوه في بناء كنيسة لهم، فأذن لهم، فبنوا كنيسة مارجرجس بحلوان، وهي كنيسة صغيرة، وكانت تُسمى بكنيسة الفراشين، وكان له كاتب يعقوبي فاستأذنه في أن يبني كنيسة في قصر الشمع فأذن له بذلك، فبنَى كنيسة ماري جرجس وكنيسة أبي قير التي بداخل القصر عند أصحاب الريسات" [3] . ويذكر الكندي أن الوليد

---

[1] فتوح مصر وأخبارها ص ٣٣.

[2] المصدر نفسه ص ٣٢.

[3] سعيد البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ٢:٤١.

بن رفاعة والي مصر ١٠٩(– ١١٧ هـ) أذن للنصارى ببناء كنيسة بالحمراء تعرف بأبي مينا[١] .

ومن مظاهر هذا التسامح ما جاء في شروط الصلح، التي رواها ابن عبد الحكم قائلاً: ".. فُرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ومن يبلغ الحلم منهم، وليس على الشيخ الفاني، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم منهم، ولا على النساء شيء "، كما تنص شروط الصلح على أن للأقباط أرضهم وأموالهم، لا يتعرض لهم بشئ منها، وأنهم لا يخرجون من ديارهم ولا من أراضيهم[٢] ، وأن لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص[٣].

ويؤكد المؤرخ الإنجليزي بتلر هذا التسامح بقوله: ".. لعل أكبر ما حمل المصريين على الرضا بحكم العرب، رفع ما كان يثقل كاهلهم من الضرائب الباهظة، فقد كان الرومان يجبون أموالاً يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت

---

[١] الكندي: الولاة والقضاة ص ٧٧.

[٢] فتوح مصر وأخبارها ٦٣ – ٧٧.

[٣] تاريخ الطبري ١:٢٧٥.

بلا شك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة، شديدة الأذى، فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض، ومهما يكن مقدارها فقد كانت بسيطة، وكانت ثابتة المقدار محدودة الأصل[1]،

ومن مظاهر هذا التسامح أيضا أن المسلمين عهدوا بوظائف الدولة وإدارة الجهاز الحكومي للأقباط، وكان ذلك من منطلق سياسة المسلمين العامة في أن يستقل المصريون بأرضهم وأموالهم وأعمالهم، وقد مكنت هذه السياسة للأقباط حرية التجارة التي كانت مقاليدها بيد الرومان واليهود في الإسكندرية خاصة.

لقد أدت سياسة التسامح هذه إلى امتزاج الأقباط والمسلمين في حياة واحدة، ومن مظاهر هذا الامتزاج، كما يذكر المقريزي الاحتفال بالأعياد والمناسبات المسيحية إلى جانب الأعياد والمناسبات الإسلامية، مثل: عيد الغطاس وميلاد المسيح، وخميس العدس، الذي يأكل فيه المسيحيون العدس، وعيد الزيتون وأحد السعف، وغير ذلك.

---

(١) الفريد بتلر: فتح العرب لمصر ص ٢٩٢ – ٢٩٣، ترجمة محمد فريد أبو حديد. ط.: لجنة التأليف والترجمة.

ونتيجة لسياسة التسامح هذه أنه لم يكد ينتهي القرن الأول للهجرة حتى أحس والي مصر كثرة دخول الأقباط في الإسلام من أثر نقص في قيمة الخراج، فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز(٩٩ – ١٠١ هـ)، كتب إلى والي مصر أيوب بن شرحبيل يشكو كثرة دخول الناس في الإسلام، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر في نقص قيمة الخراج، ثم استأذنه في فرض الجزية على من أسلم؛ فرد عليه رده المشهور "قبح اللهُ رأيك، إن الله إنما محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا، فضع الجزية عمن أسلم"[(١)].

تأسيس الفسطاط: اختط عمرو بن العاص الفسطاط، وشيد المسجد الذي عرف باسمه فيما بعد، وكان علامة على استقرار جيوش المسلمين في كل أرض نزلوا بها، ثم مضى بعد ذلك في تخطيط الخُطط.

أراد عمرو بن العاص أن تكون الفسطاط معسكرا، كما حدث في مدينتي البصرة والكوفة في العراق، ولكن الذي حدث هناك حدث في مصر أيضا، فقد جاوز الفسطاط أن يكون معسكرا إلى أن يكون مدينة، كما حارب كل مظاهر

---

(١) خُطط المقريزي ١:١٤٣.

الترف في البناء، ولكن الترف في البناء غلب عمرو ووصاياه، فاتخذ المنبر في مسجده، فكتب إليه الخليفة عمر: "بلغني أنك اتخذت منبرا ترقّى به على رقاب المسلمين، أو ما بحسبك أن تقوم قائما، والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لما كسرته"[١].

لم تمض حياة المسلمين على هذا الأسلوب القبلي الذي بدأ عند التخطيط أول عهدهم بالنزول، فتحول المعسكر إلى مدينة، وبعد هذا التحول كان سببا ونتيجة لتطور الحياة القبلية إلى الحياة المدنية، فهذه القبائل كانت تتجاور وتتلاحم وتتصاهر وتتزاوج، وكان يجمع بينهما السوق والمسجد، فكانت الخُطَط بداية التعامل والتواصل والتأثير والتأثر بين المسلمين وأهل البلاد، يقول المقريزي في الخُطط: ".. اعلم أن الخُطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التي هي اليوم بالقاهرة، فقيل لتلك في مصر خُطة، وقيل لها في القاهرة حارة" [٢].

---

[١] فتوح مصر وأخبارها ص ٩٢.

[٢] الخُطط ١:٣٩٦.

يذكر القلقشندي أن الخُطة كانت تأخذ اسم القبيلة التي تنزلها، وأن هناك جماعة متفرقة من القبائل لم يكن عددهم يسمح لهم أن ينحازوا بخطة مستقلة، فتضامنوا بينهم وأن عمرا بنى أول ما بنَى المسجد ثم توزعت القبائل في الخُطط، وقُسمت بأسمائها"[1].

لم يخط المسلمون الفسطاط فقط، وإنما اختطوا الجيزة التي نزل بها عرب همدان ومن والاهم، وليس بين أيدينا ما يشير إلى تخطيط الجيزة، ولكن نزول قبيلة واحدة مع من والاها في هذه المنطقة، كان يعني نشأة مدينة جديدة ليست فيها هذه التقسيمات التي تتوزعها القبائل المختلفة، ومن المؤكد أن ما بين الجيزة والفسطاط لم يكن بعيدا.

تشير كتب التاريخ إلى أن نظام الخُطط داخله كثير من التغيير، فانتقصت أطرافه، واستُبدلت معالمه، وحرفت صوره، ونشأت عمائر وقصور، حتى أصبح الفسطاط في أواخر القرن الأول غير الفسطاط في أول عهده بالعرب عندما نزلوا ، على أن شيئًا آخر توفر لمدينة مثل الكوفة لم يتوفر للفسطاط، وهو أن الكوفة وجدت في البصرة منافسا

---

[1] صبح الأعشى ٣:٣١ – ٣٣.

لها واختلافًا عنها، أما الفسطاط فلم تجد في الإسكندرية التي غاب عليها الطابع البيزنطي وعاشت حياة علمية في العهدين اليوناني والروماني منافسا لها.

مراحل انتشار العربية: عرفنا أن العربية خرجت من شبه الجزيرة واستطاعت أن تتغلب على أخواتها من اللغات السامية الآرامية والسريانية والعبرية في الشرق ، كما استطاعت – كما سنرى – أن تنتشر غربا في مصر وما ورائها من بلاد، وتتغلب على لغات أُخرى مثل القبطية واليونانية والبربرية، ويعود هذا النجاح الذي حققته العربية إلى العامل الديني في المقام الأول، فالذي اعتنق الإسلام كان لابد أن يمارس الشعائر الدينية بالعربية، والذي لم يعتنق الإسلام واستوظفه المسلمون في الدواوين والإدارة كان عليه أن يتعلم العربية ليتواصل مع الحكام والرؤساء. ويشير بتلر إلى ذلك قائلاً: ".. إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمرا أعجب من أن القبط انقسموا قسمين: قسم امتزج كل الامتزاج بالإسلام، والقسم الآخر بقي على دينه، ويعود السبب في ذلك إلى سماحة الإسلام[١].

[١] بتلر: فتح العرب لمصر ص ٤٢٥.

لقد استطاعت العربية بفضل هذا العامل وعوامل أُخرى ـ سنذكرها فيما بعد ـ أن تنتشر في مصر تدريبجيا، ونلاحظ أن هذه الانتشار اتخذ مظهرين:

الأول: لغة تفاهم مبسطة لتحقيق التواصل وقضاء الحاجات. -[١].

الثاني: لغة الكتابة لتدوين العقود والاتفاقات والمعاملات، التي كان يكتبها الفاتحون ووصلتنا نماذج منها على أوراق البردي، التي تعود إلى سنوات الفتح الأولى، كُتب بعضها بالعربية واليونانية، ولا شك أن هذه البرديات عظيمة الدلالة على الطريق الذي شقته العربية على المستوى الرسمى في الدواوين والمستوى الشعبي على ألسنة أهل البلاد.

لقد تم هذا الانتشار أو التعريب عل ثلاثة مراحل[٢]:

المرحلة الأولى: تمتد هذه المرحلة منذ فتح حتى نهاية القرن الأول الهجري، وتميزت بالتعاون اللغوي، فقد كانت العربية تسير جنبا إلى جنب مع القبطية اليونانية، كما تدل

---

[١] انظر ص ١١٧ من الدراسة.

[٢] انظر د. أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٣١، وما بعدها.

على ذلك أوراق البردي التي ترجع إلى هذه الفترة، وتشير إلى أن ٨٥% من الوثائق كانت تُكتب بالقبطية، و٩% بالعربية، إلا أن استمرار استعمال اللغتين القبطية واليونانية كلغة رسمية قد انتهى (عام ٨٧هـ - ٧٠٥م)، عندما أصدر والي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان قراره بتعريب الدواوين[١] ، أي تحويل الكتابة فيها من اليونانية إلى العربية، ولم يكن من المعقول أن يتم التعريب دفعة واحدة، وعلى هذا يرى كثير من الباحثين أن اللغة العربية أصبحت في السنوات العشر الأولى من القرن الثاني الهجري لغة الدواوين الحكومية أو كلغة أولى، في الوثائق ذات اللغتين العربية واليونانية، ومع ذلك فقد وجدنا بعض الوثائق التي يرجع تاريخها إلى ٢٢ هـ ٦٤٢م كُتبت باللغتين اليونانية والعربية، ضمن الوثائق التي نشرها المستشرق النمساوي جروهمان Grohmann [٢] . ويمكن أن ننقل إحداها كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أخذه عبد الله بن جابر وزملاؤه

---

[١] الكندي: الولاة والقضاة ٥٨ – ٥٩، انظر ص ١١٦ من الدراسة.

[٢] كان أستاذاً للساميات بجامعة القاهرة، وقد نشرت له دار الكتب سنة ١٩٣٤م هذه الوثائق التي قام بتحقيقها وترجمتها.

المحاربون من النعاج للذبح في هيراكليوبولس

لقد أخذنا من أحد وكلاء تيودوراكس النجل الثاني لآباقيوس

ومن نائب خريستوفورس

أكبر أنجال أباقيوس خمسين نعجة للذبح

وخمس عشر نعجة أُخرى

وقد أعطاها لإطعام رجال مراكبه وفرسان قوات مشاته

تحرر في شهر جمادى الأول سنة ٢٢ وكتبه ابن حديد[١] .

يمكن أن نستنبط من هذه الوثيقة، أن استعمال العربية لغة ثانية في الوثائق قد بدأ مع الفتح، أما أول وثيقة كُتبت كاملة باللغة العربية فقط؛ فيرجع تاريخها إلى عام ٩٠هـ - ٧٠٩م[٢] لقد كان الوضع الوظيفي للمصريين من أهم العوامل التي حققت العدل اللغوي بين العربية واللغتين القبطية واليونانية، فقد كان المصريون يتولون إدارة البلاد

---

[١] انظر : جروهمان: أوراق البردى العربية، السفر الأول ص ٢٨.

[٢] يرجع تاريخ آخر ورقة بردية كتبت باليونانية فقط فى مجموعة جروهمان إلى سنة ١٦٤ هـ - ٧٨٠م.

ويشغلون كثيرا من الوظائف العامة، وكانت سياسة العرب تعمل على إبقاءهم في وظائفهم ، مما جعل هؤلاء الموظفين يتعاملون مباشرة مع العرب بلغتهم العربية، ويحرصون على تعلمها لتحقيق هذا الاتصال من جهة، والعمل على الاحتفاظ بوظائفهم من جهة أُخرى خاصة بعد أن تم تعريب الدواوين في أواخر القرن الأول، والذي كان له أكبر الأثر في تعلم كثير من المصريين العربية.

المرحلة الثانية: تمتد هذه المرحلة من نهاية القرن الأول إلى بداية القرن الثالث، أي أنها تشمل المائة الثانية، وتميزت هذه المرحلة بأن العربية قد تجاوزت مرحلة التعادل مع اللغتين القبطية واليونانية إلى مرحلة التفوق والتميز، وقد ساعد على هذا عوامل منها: إقبال المصريين على تعلم العربية؛ لأنها تضمن لهم الوظائف في الدولة خاصة بعد تعريب الدواوين ومن ناحية أُخرى لأنها لغة الدين الذي زاد عدد من اعتنقه منهم اقتناعا بمبادئه، أو رغبه للتمتع بالامتيازات الممنوحة للمسلمين ، أو رغبة لتحقيق التواصل مع المسلمين الوافدين لقضاء الحاجات، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم عن القاضي غوث بن سليمان الذي

جاءته امرأة من الريف تشكو إِلَيهِ أمرها، وأخبرته بحاجتها وهو في طريقه إلى المسجد، فنزل عن دابته ولم يبلغ المسجد حتى كتب لها بحاجتها فانصرفت المرأة وهي تقول:

أصابت والله أمك حين سمتك غوثًا، أنت غوث عند أمك.. -[1].

لقد أدت زيادة عدد من تعلم العربية من المصريين على اختلاف الدوافع إلى تأكيد مكانة العربية وانتشارها، كما أدت هذه الزيادة في عدد المتكلمين بالعربية أيضا إلى تحقيق قدر من التفوق والتميز للعربية، بوصفها لغة خطاب على المستوى الشعبي ولغة الدولة على المستوى الرسمي.

لقد ساهمت الهجرات العربية كما سنرى بعد قليل – في تحقيق هذه الزيادة أيضا، وبلغ عدد القبائل إلى تتابعت هجراتها إلى مصر في الفترة من ١٣٣ – ٢٤٢ هـ أكثر من ثلاثين قبيلة، وقد لعبت هذه القبائل دورا كبيرا في تقوية مركز العربية وانتشارها[2].

---

[1] فتوح مصر وأخبارها، ص ٨٩.

[2] د. عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر.

مع نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث أصبحت العربية اللغة الرسمية، فتُكتب بها الوثائق والمكاتبات والعقود، كما يظهر من الوثائق البردية التي حققها المستشرق النمساوي جروهمان، ومن هذه الوثائق التي كتبت في المائة الثانية التي تمثل المكاتبات الرسمية المتبادلة بين الخليفة هشام بن عبد الملك والقاسم بن عبيد الله بن الحباب، عاملة على خراج مصر في الفترة من ١١٦ – ١٢٤ هـ ما يلي[١]،[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

قل هو الله احد الله الصمد

محمد رسول الله بالهدى ودين الحق

عبد الله هشام أمير المؤمنين أصلحه الله

هذا ما أمر به القاسم بن عبيد الله

في سنة ـ ـ ـ ـ عشرة وماية

---

[١] جروهمان: أوراق البردي العربية، السفر الأول ص ٥٤.

[٢] انظر بعض هذه الوثائق التي نقلناها من كتاب جروهمان ص ١٨٠، ١٨١.

المرحلة الثالثة: تشمل هذه المرحلة القرنين الثالث والرابع، وقد تميزت بانتصارات العربية التي أصبحت لغة العلم والثقافة العربية، بفضل عوامل منها:

ازدياد عدد الأفراد من القبائل المهاجرة إلى مصر، وانتشار هذه القبائل شمال مصر وجنوبها، ويقابل هذه الزيادة في عدد العرب تناقص عدد الأقباط، نتيجة لدخول عدد كبير منهم في الإسلام[(١)].

تمثل هذه المرحلة نهاية تفوق اللغتين القبطية واليونانية، بعد أن أصبحت العربية لغة من أسلم ومن لم يسلم من المصريين، ومما يؤكد هذا مؤلفات الأقباط مثل كتاب: "سير الآباء البطاركة" الذي ألفه سويرس المقفع المسيحي الذي كان أسقفًا لكنيسة الأشمونين حوالي ٩٨٥م. ويشير بعض الباحثين إلى الأقباط الذين كتبوا بالعربية مثل ابن الراهب، أبو الفضائل، ومكين وغيرهم، وقد اهتم هؤلاء بترجمة التوارة والإنجيل للعربية[(٢)] ، كما نجد رجال الدين يعظون في الكنائس باللغة العربية التي أصبحت مفهومة

(١) انظر خطاب عمر بن عبد العزيز لوالي مصر، ص ١٧٢، ١٧٣ من الدراسة.

(٢) انظر : د. أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٥٢ – ٥٣.

للسواد الأعظم من المصريين، وبهذا نرى أن العربية جمعت بين المسلمين والأقباط في بيئة ثقافية واحدة.

*ـ نموذج لوثيقة عقد بيع كتب في شهر ذي القعدة سنة ٢٣٩هـ

جروهمان – أوراق البردي العربية – السفر الأول – ص ١٤٧

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- هذا ما اشترت يونة ابنت حليصا من زوجها يزيد الدباغ منزلا له في علا

٣- بمدينة ادفعوا بما علق عليه بابه، وأحاطت به جدرانه، داخل فيه وخارج منه بجميع حقوقه وحدوده.

٤- وأرضه وسمائه وأركانه الأربع، جماعة هذا المنزل حده القبلي منزل سواد بن بقوفس الدباغ، ومعصرة النصر الزيات

٥- شراكة، حده الغربي منزل يلتوس الطبيب، والممر بينهما حده البحري يلي منزل قيس

٦- بن هارون النجار والممر بينهما، وحده الشرقي يلي منزل سواد الحراث، وباب هذا

٧- المنزل مفتوح إلى البحري، اشترت يونة ابنت حليصا من زوجها يزيد الدباغ هذا

٨- المنزل المحدود الموصوف في هذا الكتاب بجميع حقوقه وحدوده بد نيروزن

٩- القاسم حدوده، وحده المثاقيل الجديد، قد نقدت يونه ابنت حليصا زوجها يزيد الدباغ

١٠- الدنير ثمن المنزل، وسلم يزيد الدباغ إلى زوجته يونه ابنت حليصا المنزل كله

١١- بجميع حقوقه وحدوده ومرافقه، وابرته يونه ابنت حليصا من الدنير وقبضت

١٢- يونه المنزل وصار مال من مالها وفي ملكها بالثمن المسما في هذا الكتاب

١٣- وهو دنير مثقال، بعد تعرف من يونه ابنت حليصا بما اشترت قبل الاشترا

١٤- ومعرفة من يزيد الدباغ بما باع قبل البيع، وتعرفهما جميعا بما في هذا الكتاب

١٥- بعد البيع عن تراض، فإن لحق يونه ابنت حليصا درك من أحد الناس فعلى يزيد

١٦- الدباغ انفاذ بيعه وخلاصه على بيع الاسلم وعهدة الاسلم شهد على ذلك.

١٧- البيع ابن عيش وهو كاتب الكتاب وشهادته في ذى القعدة سنة تسع وثلثين وما يتين.

*ـ نموذج لوثيقة عقد زواج كتب في شهر ربيع الأول سنة ٢٥٩هـ

جروهمان – أوراق البردي العربية- السفر الأول – ٧٣

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- هذا ما أصدق اسمعيل مولى أحمد بن مروان القرشي بمدينة أشمون عايشة

٣- ابنت يوسف الساكنة(........)عندما خطبها إلى نفسها وهي مرأة أيم بالغ بعد أن فوضت

٤- أمرها إلى جدها يعقوب بن اسحق الـ....... وأشهدت له شهود

٥- بتوكيلها إياه، نقبل وكالتها، وأنفذ نكاحها، وأصدقها اسمعيل مولى

٦- أحمد بن مروان القرشي أربعه دنانير مثاقيل طراجياد وأزانه يعجل لها

٧- اسماعيل دنيرين متتالين نقدا حالاً معجلاً ويبقى لعايشة ابنت يوسف

٨- على زوجها اسمعيل مولى أحمد بن مروان دينرين مؤخرين إلى خمسة سنين

٩- أولهم شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومايتين وشرط اسمعيل مولى

١٠- أحمد بن مروان لامرأته عايشه تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة

١١- كما أمر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على

١٢- الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان وشرط اسمعيل

١٣- مولى أحمد أن كل امرأة يتزوجها على مرأته عايشة ابنت يوسف

١٤- فأمر تلك المرأة بيد عايشة تطلق كيف شات من الطلاق

١٥- وولى عقدة هذا النكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وأنفذ

١٦- النكاح ورضي اسمعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط والسمات

١٧- في هذا الكتاب وألزم ذلك نفسه في صحة عقله وبدنه وجواز

١٨- أمره لا علة به من مرض ولا عِزة في شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومايتين.

لقد ساهمت خمسة عوامل رئيسية خلال هذه المراحل الثلاث في نشر العربية في موطنها الجديد، وتحقيق التعريب الكامل لمصر وهي:

١- تتابع هجرات القبائل العربية: بلغ عدد الفاتحين الذين دخلوا مصر في ٢٠ هـ بقيادة عمرو بن العاص حوالي اثني عشر ألفًا أثناء خلافة عمر بن الخَطاب ، ونجد هذا العدد يرتفع في خلافة معاوية (٤٠- ٦٠ هـ) ويصل إلى أربعين ألفًا، ثم يتضاعف في خلافة مروان بن الحكم (٦٤ – ٦٥

هـ) إلى ثمانين ألفًا، وبصرف النظر عن صحة هذه الأرقام، فإننا نجد أن عدد المهاجرين من العرب يتضاعف سبع مرات في أقل من نصف قرن.

لقد ظلت هجرة القبائل مستمرة منذ القرن الأول حتى القرن الخامس للهجرة، الذي هاجرت فيه بنو هلال، في عهد الدولة الفاطمية، ولقد كان تتابع هذه الهجرات نتيجة لأسباب اقتصادية وسياسية ودينية، كما كانت حركات الهجرة تشهد مزيدا من أفراد القبائل العربية، الذين كانوا يأتون مع الولاة الجدد، فقد كان تعيين والٍ أو أميرٍ جديد يصاحبه عادة هجرة عدد كبير من أبناء قبيلته يصل إلى الآلاف منهم، كما كانت هناك عمليات الإلحاق لأسباب مختلفة، فقد ألحق أيوب بن شرحبيل أمير مصر خمسة آلاف بأهلها بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، وألحق صالح بن علي العباس ألفي مقاتل بأهل مصر[١].

---

[١] نلاحظ أن عدد المهاجرين العرب القحطانيين يكون ثلاثة أضعاف المهاجرين من العرب العدنانيين، فبينما نجد أكثر من مائة بطن من القبائل القحطانية، نجد عدد بطون القبائل العدنانية يصل إلى ستين، وعدد القبائل العدنانية ثلاثين فقط، وبينما نجد قبائل عريب أكثر القبائل القحطانية عددا، نجد قبيلة قريش أكثر القبائل العدنانية عددا فى مصر.

إلى جانب هذه الهجرات كانت زيادة النسل نتيجة المصاهرة التي تمت بين جنود وقواد جيوش الفتح والنساء المصريات[1]. من أهم زيادة عدد المتكلمين بالعربية رغم خُطة عمرو بن العاص التي حظر فيها من كثرة النسل قائلاً: ".. إياكم وكثرة العيال" بل لم يمنعهم الحظر من الزواج بأكثر من واحدة، وإنجاب الكثير من الأولاد، مما يتفق وعاداتهم القبلية.

لقد أدت ظاهرة تضخم عدد القبائل، سواء بالهجرة أو الإلحاق أو زيادة النسل، إلى إعادة تدوين الدواوين[2]. ثلاث مرات متقاربة بعد التدوين الأول الذي قام به عمرو بن العاص عام ٤٣هـ ، فقد دون عبد العزيز بن مروان التدوين

انظر: د. عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر ص ٥٩.

انظر أيضاً: بعض المصادر القديمة مثل الخطط للمقريزي، وحسن المحاضرة للسيوطي، إلى جانب بعض المصنفات التي عالجت موضوع هجرة القبائل لمصر منها: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب للمقريزي، قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان للقلقشندى.

[1] سمى لنا ابن عبد الحكم طائفة من أبناء المصريات منهم عون بن خارجة القرشى، عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، خارجة بن معاوية، فتوح مصر ص ٧٦.

[2] بدأ عمر بن الخطاب بتنظيم ديوان الجند عام ٢٠هـ على أساس القبائل. وتتمثل مهمة الديوان فى حصر أسماء الجنود المقيمين بالمصر المفتوح لصرف نصيبهم، انظر : الخطط ١:٩٤.

الثاني في سنة ٨٦ هـ، ودون قرة بن شريك التدوين الثالث عام ٩٥هـ، ودون بشر بن صفوان التدوين الرابع في عام ١٠٢هـ.

ولقد استمر أمر المهاجرين العرب على هذا المنوال لما يقرب من قرنين من الزمان، حتى أمر الخليفة المعتصم واِليهِ على مصر في عام ٢١٨هـ بإسقاط كل من في الديوان من العرب، وقطع العطاء عن الجيش وتسريحه[1]، وبهذا الإجراء تجرد العرب من صفتهم الحربية التي كانت تميزهم كطبقة أرستقراطية تتمتع بامتيازات خاصة، وتحولوا إلى مواطنين عاديين اشتغلوا بالزراعة والتجارة، وتزوجوا من المصريات، ولم نجد من العرب من يثور أو يغضب لهذا إلا قلة قليلة لم تؤثر في سير الأمور أو السياسة العامة للدولة، لأن العربي لم يعد يستمد مكانته من الوجود العسكري، بل من وجوده الاقتصادي، وأصبحت مصالحه الاقتصادية تحتل المرتبة الأولى، بعد أن تحول من محارب إلى مزارع أو صانع أو تاجر، وذاب في هذه البيئة الجديدة، وهو ما عبر

---

[1] الكندي: الولاة والقضاة: ص ١٩٣، المقريزي ١:١٧٣.

عنه المقريزي بقوله عن العرب بأنه قد أبادهم الدهر، يعني بهذا ذوبان دماء العربيّ[1] في عروق المصريين.

٢- اختلاط العرب بالمصريين.

إذا كنا قد رأينا ذوبان العرب في المصريين بعد قرن من الزمان، فقد كان هذا بسبب الاختلاط الذي حدث منذ فترة مبكرة من تاريخ الفتح، فلم يأت العرب المسلمون إلى مصر جيوشًا غازية، وإنما جاءوا برسالة سامية جعلتهم يختلطون بأهل البلاد الذين رحبوا بهم ، ودليلنا على ذلك قول الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدي اليونانيين وقسوة الرومان وشرورهم"، وقول الأسقف ساويرس بن المقفع الذي يصف شعور الأقباط بقوله: "كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا لألبان أمهاتهم"[2]، لقد ساعد هذا كله على سرعة الاختلاط بين العرب الوافدين وأهل البلاد، واتخذ هذا الاختلاط أشكالاً متعددة.

لم يكن الجيش العربي الذي قُسم على أساس قبلي متمركزا طوال الوقت في الفسطاط، بل كان يسمح له

---

[1] انظر: البيان والإعراب: ص ٦٥، الخطط ١:١٧٣.

[2] نقلاً عن جاك تاجر: أقباط ومسلمون ص ١٨.

بالحركة داخل البلاد خاصة في شهور الربيع حيث كانت القبائل العربية تتحرك إلى القرى المصرية في دلتا مصر للارتباع، وقد كان ذلك بتوجيه وإرشاد من عمرو بن العاص الذي نقل ابن عبد الحكم خطابه لجنوده كما يلي: "يا معشر الناس: إنه قد تدلت الجوزاء، وذكت الشعرى، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقل الندى، وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل، فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القِبط خيرا، وتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود وسخن العمود، وكثر الذباب، وحمض اللبن، وانقطع الورد من الشجر، فحي على فسطاطم على بركة الله.." [1].

نجد ابن عبد الحكم يعقد في كتابه فصلاً بعنوان "ذكر مرتبع الجند" يتحدث فيه عن الأماكن التي تعودت القبائل العربية الخروج إليها في الدلتا بصفة خاصة في فصل الربيع، والتى أصبحت فيما بعد منازل لإقامتها بصفة خاصة

[1] فتوح مصر وأخبارها : ١٤٠ – ١٤٢.

هي: بنها، منوف، سخا، طِما، أوسيم، إتريب، عين شمس، الفيوم، وهكذا كان الارتباع فرصة للاتصال المباشر بين العرب النازلين والمصريين والمقيمين، كما كان حجر الأساس في تعرب المصري، وتمصر العربي وظهور المصري الجديد المسلم دينًا العربي لغةً.

كما سبق أن أشرنا إلى أن الجيش العربي لم يتمركز في العاصمة الجديدة الفسطاط، بل ذهب بعضه إلى الثغور، ففي ساحل البحر المتوسط وأهمها الإسكندرية التى رابطَ فيها بعض قوات الجيش منذ الفتح لتأمينها ضد الرومان ، وقد كان يعزز الخليفة عمر بن الخَطاب هذه القوات المرابطة[1] كل عام بقوات إضافية، وسار الخليفة عثمان على نفس المنوال، حتى وصل عدد الجيش المرابط في الإسكندرية عام ٤٤ هـ إلى اثني عشر ألفًا وهو يساوي عدد جيش الفاتحين عام ٢٠ هـ ، لم يرابط هؤلاء الجنود في معسكرات خاصة بهم كالفسطاط، وإنما اختلطوا بالمصريين وسكنوا معهم،

---

[1] المرابطة: مصطلح عسكري يعني وجود الجند فى مكان ما لحمايتها، أو فى الثغور بصفة خاصة.

وكان لهذا أثره في اختلاط العرب في الإسكندرية وغيرها من الثغور مثل رشيد، والبرلس، والسويس.

كانت الضيافة مظهرا آخرا من مظاهر الاختلاط والاتصال بين الفريقين منذ اشتراط العرب على المصريين عند الصلح، أن المسلمين إذا نزلوا على أهل البلاد فلهم حق الضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وكان للعرب بموجب هذا الاتفاق ثلاثة أيام يتمتعون بكل ما يجب للضيف من حق الضيافة، وكان هذا يتم على المستوى الفردي أو الجماعي، ويذكر ابن عبد الحكم أن هذا الشرط كان مؤقتًا في مرحلة الفتح ولم تذكره كتب الشارع الأخرى[1]، كما نجد أن علاقات الحياة اليومية تمثل شكلاً ثالثًا من أشكال الاتصال والاختلاط. خاصة بعد أن اعتمد العرب على المصريين في تصريف شؤون حياتهم في أعمال الإدارة بالديوان، وأعمال الزراعة والتشييد والبناء، وغير ذلك مما جعل الاتصال بين الفريقين بشكل وثيق[2].

٣- انتشار الإسلام:

---

[1] انظر: فتوح مصر ص ٦٤.

[2] نلاحظ أنه نتيجة لهذا الاختلاط ازدادت نسبة المصاهرة بين المصريين والعرب.

اعتنق المصريون المسيحية بعد ما يقرب من نصف قرن من ميلاد المسيح، ووجدوا فيها شبها من ديانتهم القديمة، فالمسيح وأمه يشبهان حورس الطفل وأمه إيزيس في حياتهما، وصراعهما بين قوى الشر والخير.

لم تكن المسيحية التي صادفت هوى في نفوس المصريين مجرد دين جديد يعتنقونه، بل كانت كيانًا سياسيا وتأكيدا للذات المصرية في صراعها السياسي مع الرومان، الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب المونوفيستي اليعقوبي، وأرغموا المصريين على اعتناقه أيضا، ولكن المصريين أصروا على مذاهبهم النسطوري[1] وتعرضوا لاضطهاد الدولة الرومانية، وفر كثير منهم بدينهم إلى الصحراء وعاشوا في الصوامع والأديرة، ومن هنا ساد نظام الرهبنة الذي ازدهر في مصر، وانتشر خارجها، كما لعبت كنيسة

---

[1] حدث الانقسام المشهور حول طبيعة المسيح، ونشأ عن هذا المذهبان المشهوران اللذان ارتبطا بالمجمع الخلقدوني ٤٥١م، نسبة إلى خلقدونية الواقعة بالقرب من مضيق البسفور الآن، فقد قال اليعاقبة أصحاب يعقوب البردعي أو البارادوسي Jacob Barodos بطبيعة واحدة للمسيح وسموا أنفسهم باليعاقبة، أما النساطرة الملكانيين فهم أتباع نسطوريس Nostories القائل بازدواجية طبيعة المسيح اللاهوتية الناسوتية.

الإسكندرية التي كانت تمثل الزعامة الدينية للشرق المسيحي دورا كبيرا في نشر المسيحية وتدعيمها، بما في ذلك بلاد العرب[1].

قد يبرز هنا سؤال هام هو: إذا كان أمر المصريين كذلك، وأنهم لم يرضوا بتغيير مذهبهم الديني واتباع مذهب الدولة الرومانية، فكيف تحولوا إلى دين جديد؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نشير إلى حالة الإنسان في ذلك العصر الذي كان يعاني من التناقض الاجتماعي، والمادية التي علت على مجتمعات وعواصم العالم القديم، لقد كانت مدينة مكة مثل أثينا وروما والإسكندرية وغيرها من العواصم نموذجا للفساد الذي عم، والانحلال الذي استشرى، ومثالاً للمجتمع الاقتصادي والقائم على احتكار الثروة واستغلال السادة العبيد، وكما صادف الإسلام هوى في النفوس الحائرة في مكة، فقد صادف هوى في النفوس الحائرة في مصر وغير مصر، ولو لم يذهب الإسلام إليها لذهبت هي إليه.

---

(١) يذكر المؤرخون أن الناسك موسى المصري عين أسقفًا لمسيحيي العرب عام ٣٧٢.

يقول المؤرخ الإنجليزي أرنولد: "إن كثيرا مسيحيي مصر تركوا النصرانية بمثل السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية"[1]. كما يقول بتلر: "كانت هناك طبقة من المفكرين تعاني من ويلات الانقسام المذهبي والاضطهاد الديني[2]، وبدا لهؤلاء المفكرين ـ وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ من جراء الجدال القائم حول طبيعة المسيح ـ أن يعتصموا بعقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة فوجدوا في الإسلام الحماية والطمأنينة"[3] ، أما طبقة العامة من أهل مصر فكانوا مثل هذه الطبقة؛ فوجدوا في الإسلام النجاة والخلاص لهم مما لحق بهم"، ويستطرد بتلر: "دخل هؤلاء الإسلام حتى تصبح لهم حقوق العرب المسلمين، وكان ذلك باعثًا قويا للكثير منهم ولاسيما قد طحن المقوقس الحاكم الروماني عقيدتهم طحنًا [4].

---

[1] توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٩٣، ترجمة د. حسن إبراهيم وزميليه.
[2] من هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير نستيا، وحاكم الصعيد، فى ولاية عبد العزيز بن مروان – القبطي الذي اعتنق الإسلام.
[3] انظر: فتح العرب لمصر ص ٣٨٥.
[4] المصدر نفسه ص ٢٤٣.

لقد كان الإسلام رسالة، وكان العرب هم حملةُ هذه الرسالة، وكانت سياستهم مع أهل مصر من القِبط سياسة الأمن والأمان، لأن العرب يرتبطون بهم بصلة الرحم التي تعود إلى هاجر زوجة إبراهيم وأم اسماعيل، ومارية زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وأم ولده إبراهيم، لَقَد مس هذا الشعور قلوب المصريين منذ اليوم الأول للفتح؛ حينما وقف عمرو بن العاص خطيبا في جيشة قائلاً :استوصوا بمن جاورتم من القِبط خيرا، فقد حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله سيفتح عليكم من بعدي مصر فاستوصوا بِقبطِها خيرا، فإن لكم منهم صهرا وذمة، وقد مر بنا كلام بطريرك اليعقوبيين والأسقف ساويرس الذي يعكس روح التسامح الذي شعر به المسيحيون فأقبلوا على الإسلام.

ونجد ساويرس بن المقفع يذكر هذه الأعداد الكبيرة، التي اعتنقت الإسلام في القرن الثاني للهجرة، فقد اعتنق ما يقرب من أربعه وعشرين ألفًا الإسلام في الفترة من ١٢٤ – ١٢٨ هـ ، وكما سبق أن أشرنا فإن هذا الاعتناق لم يكن مرتبطًا بالإيمان بالدين الجديد فقط، بل ارتبط أيضا بالرغبة

المادية للإعفاء من الجزية، والحصول على وظائف في الدولة، والتمتع بالامتيازات والمساواة بالفاتحين العرب، وأن الإسلام سيجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين في كل شئ[١] .

لَقَد شهد القرن الثالث – كما سبق أن عرفنا – تحول المجتمع المصري إلى الإسلام وساعد ذلك على انتشار العربية وتمكنها في مصر، ومما لا شك فيه أن اكتساب المصريين الذين أسلموا كما يقول المستشرق الإنجليزي أوليرى Oleary : "إن انتشار الإسلام بلا شك كان عاملاً من عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية[٢]" . وهذا ما تؤكده أوراق البردي التي ترجع إلى هذه الفترة التي حقق بعضها ونشرها جروهمان[٣] .

٤- التفوق اللغوي للعربية:

ظلت اللغة اليونانية منذ الاحتلال الروماني إلى بداية الفتح العربي لغة للتعليم والتخاطب بين الحكام

---

(١) انظر: ص ١٧٠ من الدراسة وما بعدها.

(٢) Orleary: Notes on The Coptice Language, Orientaila ١٩٣٤

(٣) انظر : ص ١٨٠ ، ١٨١ من الدراسة.

والمحكومين[1]، ولدينا وثائق من أوراق البردي يرجع تاريخها إلى تلك الفترة كتبت باليونانية فقط، أو باللغتين اليونانية والقبطية أو اليونانية والعربية.

وقد بلغ تأثير اللغة اليونانية إلى حد أنها كانت تستعمل في الكنيسة، التي يتكلم أبناؤها القبطية، بل إن اللغة القبطية نفسها قد تأثرت باليونانية عندما تخلى الأقباط في القرن الخامس الميلادي عن أبجديتهم واختاروا الأبجدية اليونانية، وأضافوا إليها سبعة رموز من الكتابة الديمقراطية؛ للتعبير عن الأصوات التي لا توجد في اللغة اليونانية، هذا بالإضافة إلى عشرات الكلمات اليونانية التي دخلت لغة التخاطب القبطية[2].

---

[1] انتشرت اللغة اليونانية منذ غزو الإسكندر الأكبر سواحل البحر المتوسط شرقاً وغرباً، وقد امتزجت الثقافة اليونانية بثقافات الأمم المفتوحة، وتكون عن هذا الامتزاج ثقافة جديدة هي الثقافة الهيلينية، التي كان لها مدارس مختلفة فى الإسكندرية والرها و(ح.......) وقد ازدهرت اللغة اليونانية فى الإسكندرية فى عهد البطالمة فكانت لغة العلم والتعليم.

[2] يجب أن نشير هنا إلى أن بعض العرب المسلمين تعلموا القبطية، يذكر الكندي أن القاضي خبير بن نعيم الذي ولي قضاء مصر من ١٢٠ – ١٢٧هـ كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطب بها، وأن عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج والي الشرطة على الفسطاط كان يتكلم القبطية، الولاة والقضاة ٣٤٩ ص ١٤٤، وتشير بعض المصادر إلى أن أحمد بن طاهر تغير على أحد رجاله؛ ففر منه؛ فأرسل من يتتبعه من رجاله

ولكن بالرغم من هذا فقد حرص المسيحيون على إحياء القبطية التي كانت لغة التخاطب في الحياة العامة لكثير منهم، وعملوا على استخدامها على المستوى الأدبي الذي اقتصر على كتابة قصص حياة الأولياء والقديسين وترجمة العهدين القديم والجديد من اليونانية.

استطاعت العربية أن تحقق الانتشار والنجاح في القضاء على اللغتين اليونانية والقبطية، لما تمتعت به من التفوق اللغوي الذي يعد من أهم العوامل التي تؤدي إلى انتشار اللغات، فالقُدرة على الانتشار التي نشاهدها في بعض اللغات الأوربية الحديثة مثل الإنجليزية تعود بلا شك إلى أسباب مختلفة، ولكن القيمة الذاتية للغة الحديثة في ذلك نصيب[1].

إن مقولة ابن خلدون المشهورة: "إن المغلوب يولع دائما بتقليد الغالب" حقيقة ثابتة في تاريخ الشعوب، التي اتخذت لغة الغالب، فقد سبق أن أشرنا إلى أن كثيرا من

ويبحث عنه، ليس فى داره بالفسطاط، ولكن فى الديارات وعند النصارى لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها.

انظر البلوي: سيرة أحمد بن طولون ص ١٣٠، نشر محمد كرد علي.

[1] فندريس: اللغة ص ٣٤٨.

المصريين الذين أسلموا والذين لم يسلموا حرصوا على تعلم العربية، ونجد من يجيدها مثل القس بنيامين الذي كان يلازم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، ويترجم ويشرح له فصولاً من الإنجيل، والقديس شنودة اضطر إلى ترجمة مؤلفاته للعربية؛ لكي يفهمها الأقباط. ويؤكد ذلك ما ذكره القس ساويرس بن المقفع من علماء الدين المسيحي في القرن الرابع الهجري في مقدمة كتابه "سير الآباء البطاركة" قائلاً:.. فاستعنت بمن أعلم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي في نقل ما وجدناه منها؟ (يعني سير الآباء) بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر.

ونجد منذ القرن الرابع الهجري أن علماء الأقباط قد اتخذوا العربية لكتابة مؤلفاتهم، كما نرى عند ساويرس بن المقفع، وسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية الذي له كتاب في تاريخ البطاركة والخلفاء، وذكر له ابن أبي أُصيبعة كتابا في الطب بالعربية، وأبي صالح الأرمني وغيرهم، ولَقَد كانت كتابة هؤلاء بالعربية قريبة من العامية الدراجة ونرى مثالاً لهذا في سير الآباء البطاركة كما يلي: "فشال الدبوس

ليضرب أبي علَى رأسه فقدم رأسه ِإِلَيهِ وأمر أيضا بإحضارنا وتسليمنا إلى قوم آخرين غير الذين جابونا من الإسكندرية" كما نرى في تاريخ أبي صالح الأرمني قوله: "ورجع طلع إلى الأب البطرك، فقال له البطرك: ايش رجع جانبك إلى عندي يا محروم بهذا الزي المعبر عن صنعتنا"[١] وكل هذه الشواهد تؤكد أن أقباط مصر وبطاركتها ورهبانها قد تعربوا، بل نجد السواد من الأقباط أصبحوا يجهلون لغتهم القبطية، فنجد القس ساويرس أسقف الأشمونيين الذي عاش في القرن الرابع الهجري يشكو من ندرة اللِسانين القبطي واليوناني، وهذا يدل على زوالهما، من لغة التخاطب اليومي، ويشير إلى ذلك المسعودي المؤرخ (ت ٣٤٥هـ) الذي زار مصر وسأل أحد الأقباط عن معنى كلمة فرعون فلم يجد إجابة عنده، فيقول: "سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير كلمة فرعون؛ فلم يخبروني عن معنى ذلك"[٢]

٥- انتشار الثقافة العربية الإسلامية:

---

[١] نقلاً عن د. أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٩٢.

[٢] مروج الذهب: ١:٢١١.

لَقَد كان دخول العرب المسلمين مصر نقطة تحول في تاريخها، فقد أصبحت منذ القرن الثاني من أهم المراكز العلمية المشهورة للثقافة العربية الإسلامية، بفضل حلقات الدرس والعلم، التي عقدت في جامع عمرو بن العاص الذي أسسه في عام ٢٠ هـ ، وجامع أحمد بن طولون الذي أسسه عام ٢٦٣هـ ، والجامع الأزهر الذي أسسه جوهر الصقلي عام ٣٦١هـ وغيرها من المساجد التي كانت دورا للعِلم، فضلاً عن كونها دورا للعبادة.

وقد بدأت الثقافة العربية الإسلامية بالصحابة الوافدين وعلى رأسهم عمرو بن العاص وابنه عبد الله، يقول المقريزي في الخُطط: "إن أهل الكوفة كانوا يتبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر، وإن أهل مصر كانوا يتبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص[1]. لقد كانت حلقة أو مدرسة عبد الله بن عمرو بن العاص أول مدرسة دينية قامت بمصر بعد الفتح، وأصبح تلاميذه معلمين يروون عنه. يروى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه جعل الفُتيا في مصر إلى ثلاثة رجال: رجلان من الموالي ورجل من

---

[1] نقلاً عن د. سيد إسماعيل الكاشف: مصر فى فجر الإسلام: ص ٣١٧.

العرب، فأما العربي فجعفر بن ربيعة، وأما المواليان: فيزيد بن أبي حبيب، وعبد الله بن أبي جعفر، وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك! فقال عمر: "ما ذنبي إن كانت الموالي تَسموا بأنفسها صعدا وأنتم لا تُسمون؟"[1]

وإلى جانب عمرو بن العاص وابنه عبد الله كان بمصر من الصحابة الوافدين عبد الله بن عمر بن الخَطاب، وعبد الرحمن ومحمد ابنا أبي بكر وأبناؤهما، وأبو ذر الغفاري، وأبو هريرة وغيرهم.

جاء بعدهم جيل من التابعين حقق السيوطي فصلاً لتعداد أسمائهم في كتابه حسن المحاضرة، ولقد كان هؤلاء أولئك النواة الأولى للحركة التي كان قوامها القرآن والسنة، ووجدنا هذه النواة تثمر جيلاً من المصريين ممن يقوم على أمر هذه الحركة العلمية.

اهتم المصريون بقراءات الذكر الحكيم منذ أن وفد عليها الصحابة والتابعونـ ورحل كثير من المصريين للمدينة في القرن الثاني، لحمل قراءة إمامها نافع التي اشتهرت في العالم الإسلامي، ومن أشهر هؤلاء عثمان بن سعيد ت

---

(1) نقلاً عن د. سيد إسماعيل الكاشف: مصر فى فجر الإسلام: ص ٣١٧.

١٩٧هـ أول قارئ مصري من أصل قبطي من موالي آل عبد العزيز، رحل إلى المدينة وتعلم القراءة على يد نافع الذي لقبه بورش لشدة بياضه، وانتهت إِلَيهِ رئاسة الإقراء بمصر، وحمل أهل المغرب والأندلس عنه قراءته، وتميزت مصر بفضل هذا القارئ بعلم القراءات، وقد أحصى السيوطي عددا هائلاً من أعلام هذا العِلم بمصر إلى عصره[1] ، ومن أعلام علم القراءات في مصر الإمام الشاطبي (ت ٥٩٠هـ) وقصيدته مشهورة في هذا العلم باسم "حرز الأماني" المعروفة بالشاطبية، وشرحها كثيرون ومنهم تلميذه السخاوي (ت ٦٢٣هـ)، ومن الذين ألفوا في هذا العلم شهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) الذي صنف "لطائف الإشارات لفنون القراءات" جمع فيه طرق القراءات الأربع عشرة.

أما تفسير القرآن، فقد عرفت مصر مفسرين منهم: أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) القرطبي الذي نزل مصر واستقر بها (ت ٦٧١ هـ)، وصنف تفسيره المشهور جامع أحكام القرآن، وأبو حيان الأندلس الذي وفد إلى مصر،

---

[1] حسن المحاضرة :١:٢٩٢.

وصنف تفسيره البحر المحيط (ت ٧٤٥ هـ)، والسيوطي (ت ٩١٩ هـ) الذي صنف تفسيره "الدر المنثور في التفسير بالمأثور".

أما علم الحديث فقد اشتغل به من المصريين عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) صاحب كتاب الجامع في الحديث الذي عثر عليه مكتوبا على ورق البردي في أدفو، ويعد من أقدم المخطوطات الموجودة لدينا، ويعود إلى القرن الثالث الهجري، ومن هؤلاء المحدثين المصريين أسد بن موسى (ت ٢١٢هـ) الذي اعتمد عليه أصحاب الكُتُب الستة في رواية بعض الأحاديث، ولاشتهار مصر بحفاظ الحديث نزلها في طلبه أصحاب الصحاح الستة، واتخذها النسائي دار مقام (توفي بها عام ٣٠٣ هـ). كما نزل بالقاهرة الدارقطني حافظ العراق المشهور (وتوفي بها عام ٣٨٥هـ)، وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) شارح صحيح البخاري.

أما الفقه، فيقابلنا يزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨هـ) الذي سبق أن أشرنا إليه[1] .وهو أول فقيه مصري مجتهد، تولى منصب الإفتاء، روى عنه الليث بن سعد (ت: ١٧٥

---

[1] انظر ص ١٩٢ من الدراسة.

هـ) ، المعاصر للإمام مالك، والذي يعد أول فقيه مصري له منهج في الفقه ينافس به أصحاب المذاهب الأربعة ، وهو يعد أيضا من أوائل العلماء الذين أرسوا الحياة التشريعية في مصر، ومهد السبيل للإمام الشافعي الذي قال عنه: "إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به "أي تلاميذه من المصريين لم يحملوا عنه، ولو حملوه لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة [1] .

نزل الإمام الشافعي مصر (ت ٢٠٤هـ) ، اكتمل له فيها مذهبه موفقًا بين رأي أهل الرأي الحنفي وأهل الحديث المالكي، وهو الذي أسس علم أصول الفقه في مصنفه "الرسالة"، ومن مصر انتشر المذهب الشافعي.

أما الدراسات اللغوية والنحوية في مصر فلم تقل أهمية عن الدراسات الدينية، تبدأ هذه الدراسات بمجيء الوافدين

---

[1] ولد الليث (٩٤ – ١٧٥هـ) فى قلقشندة تلقى العلم من أبيه، توجه إلى الفسطاط فبنى بها داراً لتكون قريباً من جامع عمرو بن العاص، الذي لقى فيه يزيد بن حبيب مفتي مصر، وأول من أظهر علوم الدين والفقه بها، ثم رحل إلى الحجاز وروى عن ابن شهاب الزهري، ونافع مولى ابن عمر، وله مع الإمام مالك سالف لقاء ومراسله، سمع به الخليفة أبو جعفر المنصور فاستدعاه، وعرض عليه ولاية مصر، فاعتذر عن ذلك.

إلى مصر، ومن أوائل هؤلاء عبد الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي (ت ١١٧ هـ) ، ومحمد بن يحيى اليزيدي (ت ٢١٤هـ) الذي كان لغويا مثل أبيه، وأحمد بن جعفر الدينوري (ت ٢٨٩هـ) الذي أصهر إلى ثعلب وقرأ كتاب سيبويه على المبرد وحمله إلى مصر، وألف للطلاب كتاب "المهذب في النحو"، والأخفش الأصغر علي بن سليمان (ت ٣١٥هـ).

نجد المدرسة المصرية في النحو تنشأ على يد أسرة آل ولاد، التي بدأت بالوليد بن محمد المشهور بابن ولاد الجدّ الذي رحل لطلب العلم في البصرة، وأدرك الخليل وأخذ عنه، ويأتي بعده ابنه محمد بن ولاد الابن (ت ٢٩٨هـ) يأخذ عن أبيه العلم، ويرحل مثله إلى البصرة ويقرأ كتاب سيبويه على المبرد، ويعود للتدريس في الفسطاط ويؤلف كتاب المنمق في النحو، ويخلفه ابنه ابن ولاد الحفيد أحمد بن محمد (ت ٣٣٢هـ) الذي حمل عنه كتاب سيبويه الذي قرأه على المبرد، وألف كتاب الانتصار لسيبويه من المبرد ردا على كتابه "مسائل الغلط"، وخلفه في حلقته بالفسطاط أخوه عبد الله

ابن محمد، فهؤلاء الأربعة من آل ولاد بدأت بهم مدرسة النحو في مصر.[1]

ومن نجاة مصر المشهورين أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) الذي عاصر أحمد بن ولاد ورحلا معا إلى البصرة، وتتلمذ على الزجاج (ت ٣١٦هـ) الذي كان يفضل بن ولاد عليه، وعندما عادا إلى مصر كانت بينهما مناظرات ومنافسات، ومن أهم مؤلفاته "معاني القرآن، التفاحة في النحو، المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين، شرح أبيات سيبويه، وشرح المعلقات".

من هؤلاء أيضا كُراع النمل علي بن الحسن الهنائي (ت ٣٢٠هـ)، لم تأت ترجمة له في طبقات النحويين واللغويين، وأقدم ترجمة له في الفهرست لابن النديم، وصلنا من مؤلفاته المنتخب والمنجد والمنضد، أنجبت مصر نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ) رحل إلى بغداد، وأخذ عن علمائها، وأُسندت إِليه وظيفة المراجعة في "ديوان الإنشاء" في العصر الفاطمي، له كتاب "المقدمة في النحو"،

---

[1] حمل معجم العين عن أبن ولاد مسعود بن سعيد قاضي الجماعه بالأندلس، فمصر هي التي أذاعت المعجم فى الأندلس والمغرب، وحمل محمد بن يحيى الرباعي، عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه ودرسه لطلابه في قرطبه.

شرح كتاب "الجمل" للزجاجي، كما أنجبت ابن بري (ت ٥٨٢ هـ) الذي قصده الطلاب من الأندلس منهم من قرأوا عليه في جامع عمرو في مقدمتهم الجزولي الذي دون عنه شرحه لكتاب "الجمل" المعروف باسم "الجزولية"، ومن نُحاة مصر المشهورين ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) له مصنفات "الكافية في النحو" و"الشافية في الصرف"، اللتين كثرت عليهما الشروح أهمها شرح الاستراباذي.

تبلغ المدرسة النحوية في مصر أوج مجدها على يد ابن هشام (ت ٣٦١هـ) الذي قالوا إنه أنحى من سيبويه، له مصنفات كثيرة أهمها "مغني اللبيب، شذرات الذهب، قطر الندى، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك"، ومعاصره ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ) الذي يرتبط اسمه بشرح الألفية.

وفد على مصر نُحاة ولغويون منهم: ابن القطاع الصقلي (ت ٥١٤هـ) يحيى بن معط من المغرب، توفي بمصر عام ٦٢٨هـ ، أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، ووفد عليها أبو الحسن على بن محمد الهروي صاحب كتاب الأزهية في معاني الحروف، والتبريزي الذي روى شعر أبي العلاء، والقزاز القيرواني، والطبري والقرطبي والبخاري،

ومن الشعراء أبو نواس، وأبو تمام والمتنبي، جميل بثينة، وكُثير عزة، وغير هؤلاء كثيرون، ونجد الكندي (ت ٣٥٠هـ) يؤلف كتابا في فضائل مصر يذكر فيه من دخلها من العلماء والشعراء والفقهاء، بالإضافة إلى كتابه عن ولاة مصر وقُضاتها.

نهضتْ مصر بدور هام في حماية العلوم وحفظ التراث، تميزتْ بتصنيف دوائر المعارف الكبرى مثل كتاب نهاية الأرب للنويري (ت ٧٣٣هـ)، ومسالك الأمصار لابن فضل العمري (ت ٧٤٩ هـ) وهو كتاب في جغرافية العالم العربي وأعلامه، والسيوطي (ت ٩١١هـ) العالم الموسوعي الذي حفظ لنا كثيرا من التراث في اللغة والنحو والحديث والفقه والتفسير، وعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) صاحب خزانة الأدب وهي شرح لشواهد الكافية في أربعة مجلدات تعتبر دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية والإسلام، السيد المرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)الذي شرح قاموس المحيط للفيروزابادى باسم تاج العروس، وهكذا نجد مصر تصنع أكبر معجمين في العربية "لِسان العرب"

لابن منظور في عصر المماليك و"تاج العروس" في عصر العثمانيين.

ونجد الأزهر الشريف يقوم على حفظ العربية على يد علمائه مثل الدماميني (ت ٨٣٥هـ) له حاشية على المغني، الكافيجي الذي اشتغل بالكافية (ت ٨٧٩ هـ) ، والشيخ خالد الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، والأشموني (ت ٩٢٩هـ) ، محمد الأمير (ت ١١٨٨هـ)، الصبان (ت ١٢٠٦ هـ) الذين شرحوا ألفيه ابن مالك وغيرها من متون النحو.

لقد كان جامع الأزهر الشريف ومن قبله جامع بن طولون وجامع عمرو معاهد أو جامعات علمية حفظت العربية وتراثها، وإلى جانب هذه المساجد الكبرى التي قامت بدور الجامعات عرفت مصر الدور المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم وتدر عليهم الأرزاق، ويتولى تدريسهم من العلماء.

بدأت هذه المدارس من أواخر القرن الرابع الهجري، عرفت دمشق أول هذه المدارس التي أسسها الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله، وسميت باسم المدرسة الصادرية، ولم يسبق الشام إلا بغداد بالمدرسة النظامية التي أنشأها

السلطان نجم الدين أيوب (ت ٦٤١هـ) ، كما أنشأ السلطان الكامل (ت ٦٢٢هـ) أول مدرسة تعني بالحديث تسمى بدار الحديث الكاملية، وكانت مثل هذه المدارس تعني بالدراسات الإسلامية إلى جانب علوم اللغة والنحو والبلاغة، يصف لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٤هـ) الذي زار مصر عام ٥٧٨هـ ما شاهده من أمر هذه المدارس في القاهرة قائلاً: ".وما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس، ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعم جميع من يأوي إليها، ويلازم السكْنَى فيها، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال"[1].

كما يصف لنا ما شاهده في الإسكندرية التي كانت مركزا للدراسات العربية والإسلامية قائلاً.. ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقَى كل واحد منهم سكنًا يأوي إِليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه،

---

[1] رحلة ابن جبير: ص ٥٢ ط: دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة ١٩٦٨.

وإجراء يقوم به في جميع أحواله"[١]، وإذا انتقلنا من عهد الأيوبيين إلى عهد المماليك نجد ازدياد عدد المدارس التي يعددها المقريزي ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التي رصدت لها[٢]

---

(١) المصدر نفسه: ص ٤٦.

(٢) المقريزى: الخطط ٣:٣٤٠.

الفصل الرابع

العربية في بلاد المغرب

الفصل الرابع
العربية في بلاد المغرب

فتح بلاد المغرب: سبق أن وقفنا على الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة والدولة الرومانية الشرقية في الشام ومصر[1]، ونجاح المسلمين في تمصير هذين الإقليمين وتعريبهما فيما بعد، وعندما تم لعمرو بن العاص فتح مصر رأي أن يؤمن حدودها الغربية ضد الدولة الرومانية التي كانت تحكم شواطئ شمال إفريقية، الممتدة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي منذ القرن السادس الميلادي[2] ، وقد كانت مصر قاعدة ومجازا لعبور جيوش الفاتحين[1] والقبائل المهاجرة إلى هذه البلاد[2].

---

(1) انظر ص ١٤١ من الدراسة وما بعدها.

(2) استطاع الفينيقيون فى القرن العاشر الميلادي أن يجوبوا بسفنهم التجارية سواحل شمال إفريقية، وأسسوا ثلاثة مدن متقاربة على ساحل ليبيا سماها اليونانيون Tripolis أى : المدن الثلاثة التي أصبح أسمها طرابلس، كما استطاعوا أن يؤسسوا مدينتين؛ واحدة غرب تونس الحالية باسم قرطاجة، والأخرى على المحيط الأطلسى باسم قادس. وقد حاول الرومان إضعاف نفوذهم، فدارت حروب بينهما وانتهت بسقوط قرطاجة الفينيقية، وأقام الرومان قرطاجة الجديدة، وبسطوا سلطانهم على ساحل البحر المتوسط الإفريقي، وعينوا حاكماً يلقب بالبطريق واتبعوا سياسة الظلم

أعد عمرو بن العاص جيشه في عام ٢٢هـ ٦٤١هـ لفتح برقَة المجاورة لمصر على الساحل، وأرسل ابن خالته عقبة بن نافع لفتح الصحراء، ثم اتجه إلى طرابلس لفتحها عام ٢٣هـ /٦٤٢م في خلافة عمر بن الخَطاب.

يستكمل المسلمون فتح الشمال الإفريقي في خلافة عثمان بن عفان، بقيادة والي مصر عبد الله بن أبي السرح الذي سار بجيش تعداده عشرون ألف جندي على رأسه بعض أبناء الصحابة مثل: عبد الله بن عمر بن الخَطاب، عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، عبد الله بن جعفر، عبد الرحمن بن أبي بكر، ولذلك سمى بجيش العبادلة، ووصلت طلائع الجيش إلى

والتعسف مع سكان البلاد الأصليين، وفرضوا الضرائب الفادحة عليهم، حتى جاءت جيوش المسلمين لإنقاذهم من هذا الظلم والتعسف.

(١) يرى المؤرخون القدماء والمحدثون أن العرب عرفوا شمال إفريقية قبل الإسلام بزمن طويل، حوالى ٣٥٠٠ ق.م، ووفدوا وأقاموا هناك كما وفد العرب على مصر والشام قبل الفتح، واختلط العرب المهاجرون بالسكان الأصليين ولكن العربية لم تنتشر مع العرب الذين هاجروا قبل الإسلام، ويذكر ابن خلدون أن ملوك اليمن غزوا شمال إفريقيا مرارا، قبائل البربر صنهاجة وكتامة ولواته بطون من حمير وهوارة من كِندة وزناته من التابعية.

(٢) انظر على سبيل المثال الهجرة الكبيرة التي قامت بها قبائل بني هلال وسليم، ص ٢١١ من الدراسة.

إفريقية التونسية أو قرطاجنة في ٢٨هـ/ ٦٤٨ التي كان يحكمها البطريق الروماني جريجوريوس ويسميه العرب جرجير، وهزم جيشه وقتله عبد الله بن الزبير، ويتولى معاوية بن حديج التجيبي ولاية إفريقية التونسية في خلافة عثمان[١] ويواصل الجيش الإسلامي تقدمه بقيادة معاوية بن حديج، وعبد الله بن الزبير في خلافة معاوية بن أبي سفيان في عام ٤٥هـ / ٦٦٥م الذي عزم على القضاء على الحكم الروماني نهائيا في شمال إفريقية، يولي معاوية عقبة بن نافع على المغرب الأدنى والأوسط عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م، ويمده بعشرة آلاف مقاتل، وكان عقبة قائدا عظيما، خبيرا بمفازات إفريقية[٢] ، استطاع أن يتوغل من برقة غربا حتى المغرب

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٨٣ – ١٨٥، محمد بعد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:١٤-١٦.

[٢] أطلق القدماء اسم إفريقية على الأمصار الواقعة شمال إفريقيا، ذكر ياقوت فى معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: إفريقية وتمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر، والثاني المغرب الأدنى ويشمل الجزائر، والثالث المغرب الأقصى من غرب الجزائر إلى المحيط الأطلسي يشمل مراكش وفارس وطنجة، كما كان اسم إفريقية يطلق أيضا فى العصور الوسطى على إقليم تونس وما يليه.

الأوسط وهزم جيوش الروم والبربر في مواقع عديدة[1] ، ثم اختار موقعا داخل إفريقية التونسية لكي يؤسس مدينة عربية تكون معسكرا للجيش العربي، الذي تغلغل في إفريقية، وسماها القيروان أي المعسكر، وشيد فيها الجامع المنسوب إليها في وسطها، واستغرق بناء المدينة خمس سنوات، وأصبحت فيما بعد من أكبر المدن الإفريقية ثقافة وحضارة، وكان تخطيطها على نمط تخطيط الأمصار الإسلامية في البصرة والكوفة والفسطاط.

تخبرنا كتب التاريخ أن معاوية عزل عقبة بمجرد إتمامه لمدينة القيروان، وعين أبا المهاجر مكانه، وعندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة أعاد عقبة مرة أُخرى إلى الولاية عام ٦٢هـ ، وسار عقبة بجيش ضخم اقترب به من المغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسي، فكان أول من تعمق في البلاد المغربية مجاهدا في سبيل الله، ويقال أنه دفع بقوائم فرسه في ماء المحيط، ورفع وجهه إلى السماء مناجيا ربه قائلاً: "اللهم إني أشهدك أني وصلت براية الإسلام إلى

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:١٩.

آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك"[1] ، ويستشهد عقبة عندما غدر به زعيم قبيلة أوربة البربرية بالقرب من تلمسان بالجزائر عام ٦٢٢هـ ، ويدفن في مكان لا يزال يحمل اسمه سيدى عقبة وبنى على ضريحه مسجد يعد من أقدم آثار العمارة الإسلامية في القيروان.

يولى معاوية زهير بن قيس البلوي على القيروان عام ٦٣هـ فيستأنف ما بدأه عقبة، ويتولى عبد الملك بن مروان الخلافة في ٦٥ – ٨٦ هـ لاستعادة القيروان التي سقطت في أيدي الرومان، ومد زهيرا بجيش ضخم زحف به على القيروان عام ٦٩هـ / ٦٨٨م، ويهزم ويقتل في معارك ضارية بينه وبين الرومان.

ويولى عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغساني على إفريقية، الذي سار في جيش ضخم واستولى على قرطاجنه عاصمة إفريقية الرومانية، واستطاع أن يستعيد النفوذ العسكري للمسلمين من برقة شرقًا حتى طنجة غربا، ويقضي على النفوذ الروماني نهائيا، ويوطد سلطان حكم الدولة الإسلامية على شواطئ البحر المتوسط، ويجدد مدينة

[1] بن عبد الحكم: فتوح مصر ١٩٩.

القيروان، وينشئ بها المسجد الجامع، اختار قرية على شاطئ البحر المتوسط بالقرب من قرطاجنة الفينقية وجعـل منهـا ميناء ودار صناعة لإنشاء أسطول ضخم، يحمي الشـواطئ الإفريقية من غارات الرومان، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية لإنشاء دار الصناعة لبناء أسـطول بحـري، وسـمى الميناء "تونس" التي أصبحت من أمهات المـدن الإفريقيـة، وبنَى بها جامع الزيتونة لزيتونةٍ كانت فيه، واتخذها عاصمة له، إلا أن الولاة بعده تركوها إلى القيروان التي بناها عقبة ، وتُعد ولايته خاتمة الفتح الذي بدأه عمرو بن العـاص عـام ٢٢هـ[١] .

ظل حسان في منصبه حتى وفاة عبد الملك بن مروان عام ٨٦هـ / ٧٠٥م، وخلفه ابنه الوليد، وولى عمه عبد الله بن مروان مصر فعزل حسانًا عن ولاية إفريقية واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمي ٨٩ – ٩٦هـ الذي يعد من أعظم القواد الذين وجهتهم الدولة الإسلامية إلى بلاد المغرب[٢]، فإلى جانب مهارته في ميدان الحرب كان ماهرا

---

[١] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٢١.

[٢] استطاع موسى بن نصير أن يعبر بالمسلمين إلى القارة الأوربية لأول مرة من جهة الغرب بعد أن أخفق المسلمون فى عبور أوربا من جهة الشرق عن طريق

في شؤون الإدارة، يظهر ذلك في تقسيمه بلاد المغرب إلى ولايات جعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة، والمغرب الأوسط عاصمته تلمسان، والمغرب الأدنى عاصمته القيروان، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها، وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوب المغرب الأقصى وهي ولاية السوس في الصحراء وجعل عاصمتها سلجماسه وولى عليها طارق بن زياد البربري ثم نقله إلى طنجة، وابتنى دارا عظيمة لصناعة السفن على مقربة من أطلال قرطاجنة، وأنشأ أسطولاً ضخما لحماية الثغور، وسير ابنه عبد الله في السفن إلى جزر البليار شرقي شواطئ إسبانيا، كما سير حملات أُخرى إلى صقلية،

القسطنطينية، ولد عام ١٦هـ فى خلافة عمر، أبوه نصيراً ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر ١٢ هـ ، قيل أنه نسب بطريق الولاء إلى بني لخم، وأن أباه كان على حرس معاوية، كما كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان والي مصر ت ٨٥ هـ فأعتقه وكان قريباً منه، تقلب موسى فى المناصب الحربية وقاد الحملات البحرية فى عصر معاوية، يذكر المؤرخون القدماء أن سليمان بن عبد الملك تنكر لدوره العظيم ولم يقدر بطولته فأمر بعزله، لأنه لم يطع أوامره بالتريث فى عودته بغنائم فتح الأندلس ريثما يموت الوليد بن عبد الملك الذي كان على فراش الموت، كما أمره سليمان، وقد بالغ سليمان بن عبد الملك فى إهانته وألقاه فى السجن.

وسردانية وهكذا بسط المسلمون في عهده سلطانهم على شمال إفريقيا كله في البر والبحر ولم يبق من الثغور بعد فتح طنجة إلا ثغر سبته شرق طنجة[١].

عزم موسى بن نصير على فتح الأندلس، فأرسل حملة استطلاعية في رمضان ٩١هـ/ يولية ٧١٠م بقيادة طريف وهو قائد بربري أيضا، نزل في موضع يقابل طنجة في الأندلس، وعاد يحمل معلومات تمهد لعبور جيوش المسلمين للأندلس، وما زال المكان الذي نزل به في الأندلس يحمل اسمه إلى الآن مع تحريف في النطق[٢]. ويرسل موسى في العام الثاني في ٥ رجب ٩٢هـ / ٢٣ أبريل ٧١١م طارق بن زياد الليثي على رأس جيش كبير من العرب والبربر لفتح الأندلس، ولا يزال الجبل الذي عبره يحمل اسمه حتى الآن

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٢٣.

(٢) زرت هذه المدينة أثناء زيارتي لجنوب إسبانيا.

وهو جبل طارق[1]، .

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ٩٩ – ١٠١هـ، وأدخل إصلاحات كبيرة في شؤون الإدارة والحكم، وأمر بالتسوية المطلقة بين العرب والبربر في الخراج وجباية الأموال[2]، واهتم بنشر الإسلام وترسيخ تعاليمه في نفوس أهل البلاد، فاختار لذلك عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس ويعلمونهم القرآن ، وشؤون دينهم وعلى رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وموسى بن نصير، وحسان بن النعمان، وعقبة بن نافع، فقد تولاها بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ولاة ساموا أهل البلاد من الظلم والتعسف ما أدى إلى ثورات متعددة من البربر.

---

(١) يعود طارق بأصله ونسبه إلى البربر، كان جندياً شجاعاً ظهرت مهارته وبراعته فى القتال، اختاره موسى حاكماً لطنجة وقائدا للجيش الذي عبر به إلى الأندلس عبر سبتة ونزل إلى المنطقة الجبلية التي مازالت تحمل اسمه، تنسب إليه خطبته المشهورة أثناء العبور: أيها الناس.. أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام.. يرى كثير من المؤرخين أن هذه الخطبة من إنشاء بعض المتأخرين (........) على لسان طارق، لا تذكر المصادر شيئاً عن مصير طارق بعد أن قام بهذا الدور العظيم، أين عاش؟ ومتى مات!!

انظر : محمد عبد الله عنان ١:٤٧ – ٤٨،

(٢) انظر: موقفه من أداء الجزية بالنسبة لأقباط مصر، ص ١٧٢ من الدراسة.

الدويلات الحاكمة بالمغرب: سقطت الدولة الأموية ١٣٢هـ ، وقامت الدولة العباسية التي أقرت عبد الرحمن بن حبيب آخر ولاة الأمويين على ولايته لبلاد المغرب لأنه أعلم بشؤونها، ودار جده عقبة بن نافع، عندما سئم الخليفة العباسي هارون الرشيد من كثرة الثورات والاضطرابات في بلاد المغرب، أشار عليه قائده هرثمة بن أعين الذي تولى ولاية المغرب من قبله عام ١٧٩ – ١٨١ هـ أن يمنح إبراهيم بن الأغلب التميمى حكمها هو وأولاده.

دولة الأغالبة: نشأ إبراهيم بن الأغلب مؤسسة الدولة في مصر، وحضر حلقات الليث بن سعد، كتب له الرشيد بولاية إفريقية عام ١٨٤هـ - ٨٠٠م، وتعهد بإرسال أربعين ألف دينار سنويا لبيت المال ببغداد، وبذلك وفرت الدولة العباسية النفقات الباهظة التي تنفقها في بلاد المغرب، وأصبحت دولة الأغالبة دولة مستقلة تدين بالولاء نسبيا للعباسيين استمرت حتى عام ٢٩٦هـ ، ويؤسس إبراهيم مدينة قرب القيروان باسم العباسة، ينقل إليها المستعربين من البربر إلى جانب الصقالبة والزنوج، ويتوفى إبراهيم عام ١٩٦/ ٨١١ يخلفه ابنه ابو العباس ويتوفى بعده في عام

٨١٦/٢٠١، فيخلفه أخوه زياد الله، الذي يرسل الفقيه أسد بن الفرات قاضي القيروان لفتح صقلية المقابلة لها عام ٢١٣/ ٨٢٧، وتم الاستيلاء على ما بقي من الجزيرة عام ٢٣٨/٢٢٤، ثم فتحت بعد ذلك جزيرة مالطة عام ٦٦٨/٢٥٥ وظلت تابعة للقيروان حتى استولى عليها روجار الأول ملك صقلية عام ١٠٩٣/٤٨٥.

دولة العبيدية: قضت دولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة عام ٢٩٦، وبايع أهل القيروان عبد الله المهدي أميرا للمؤمنين[١]. وأسس مدينة المهدية عام ٩٢٠/٣٠٨، ثم يتوفي عام ٣٢٢ ويخلفه ابنه القائم الذي يتوفى بدوره عام ٣٣٤، ويخلفه ابنه المنصور ويؤسس مدينة المنصورية بالقرب من

---

[١] يبدأ أمر قيام هذه الدولة بأبى عبد الله الصنعانى الذي تعرف على جماعة من قبيلة كتامة البربرية فى الحج وقدم معهم إلى ديارهم بالجزائر، كان لسناً جدلاً فلما اجتمعوا معه أعلن بينهم أن آل البيت الأحق بالأمامة، ولما استتب له الأمر، أرسل إلى عبيد الله المهدي يستقدمه من سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية فقدم إلى القيروان عام ٢٩٧:٩٠٩ وبايعه أهل القيروان أميراً للمؤمنين وتسلم مقاليد الحكم، وعرفت تلك الدولة بالعبيدية تميزا لها دولة أحفاده فى مصل الدولة الفاطمية.

القيروان، ثم يتوفى عام ٣٤١ ويخلفه ابنه المعز لدين الله الذي يدين له المغرب على يد قائده جوهر الصقلي[١]

الدولة الصنهاجية: يترك المعز عاصمة ملكه، وملك أجدادة والمغربين الأوسط والأقصى بعد أن وقع اختياره على بدكين بن زيدي الصنهاجي زعيم قبيلة صنهاجة البربرية ليخلفه على الإقليم التونسي ويؤسس الدولة الصنهاجية، وهكذا أتيح للبربر تأسيس دولة مغربية إسلامية لأول مرة[٢]، كما استطاعوا تأسيس مملكة لهم بغرناطة، ظلت الدولة على ولاء للفاطميين إلى أن قرر المعز بن باديس الصنهاجي الرابع ٤٠٦/ ٤٥٤ قطع الدعاء للخلفاء الفاطميين في القاهرة، والانضواء تحت لواء الخلافة العباسية في بغداد، لأنه كان لا يؤثر المذهب الشيعي، مما أثار حنق الخليفة

---

[١] بلغ المعز أمر اضطراب الأحوال فى مصر بعد موت كافور الإخشيدي فأرسل قائده جوهر الصقلي عام ٣٥٨:٦٩٨ فدخل الفسطاط دون مقاومة، خطب فى جامع عمر باسم المعز وأعلن قيام الدولة الفاطمية فى مصر وأرسل للمعز الذي دخل القاهرة فى شوال عام ٣٦١: ٩٧١ التي بناها له جوهر عام ٣٦٢ وظلت مقرا لخلافته حتى نهاية الدولة الفاطمية.

[٢] ازدهرت الثقافة العربية فى زمن هذه الدولة، وظهر لها شعراء كثيرون صنف لهم ابن رشيق القيرواني ت ٤٥٦هـ كتابه "أنموذج الزمان فى شعراء قيروان" ضمنه مائة ترجمة لشعراء قيروان فى زمانه.

المستنصر الفاطمي، فأشار عليه وزيره وهو لا يملك من الجند ما يقضي به على تمرد ابن باديس، بأن يتخلص من القبائل النجدية البودية التي نزلت بشرقي النيل في صعيد مصر، وأخذت تعيث فيها الفساد[١]، ويدفعها إلى الغرب ليضرب بها ابن باديس ويقضي على سلطان الصنهاجية، لم يقدر ابن باديس على الصمود أمام موجات بني سليم وبني هلال وفروعهما التي جاءت كالجراد المنتشر عام ٤٤٣، واضطر إلى إخلاء القيروان والانسحاب إلى المهدية عاصمة الفاطميين عام ٤٤٩ التي استولى عليها بعد ذلك روجار الثاني ملك صقلية عام ٤٥٣، ثم استردها أمير الموحدين عبد المؤمن عام ٥٥٥ هـ ، وتوفي ابن باديس عام ٤٥٤.

---

[١] سبق أن خرجت هاتان القبيلتان مع قرامطة نجد، وانضمت إلى الجيش الفاطمي فى حربه ضد القرامطة، الذين ارتدوا إلى البحرين، فنقلهم العزيز بالله إلى المنطقة الشرقية على النيل بأقصى الصعيد، ولكنهم أصبحوا مصدر قلائل واضطرابات لأهل الريف الصعيدي مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبيرة للحاكم الفاطمي فوجد هذه الفرصة للتخلص منهم، لم يكن أعراب هاتين القبيلتين مثل عرب الأجيال العربية الأول الذين فتحوا الأمصار الإسلامية شرقاً وغرباً وأقاموا دولة الإسلام، ولم يكونوا جيوشاً نظامية، وإنما كانوا بدوا لا حضارة لهم ، ولم تكن هجرتهم إلى المغرب لهدف ديني أو قومي كما كان شأن القبائل العربية التي شاركت فى الفتوحات الإسلامية.

دولة الموحدين: قامت دولة الموحدين على يد ابن تومرت المصلح الديني المغربي الذي زار المشرق وتتلمذ على الأشعرية وغيرها ورجع إلى المغرب وأخذ في تنظيم ثورة واسعه ضد دول المرابطين وفقهائهم المالكية، وسمي أصحاب هذه الثورة بالموحدين وإليهم نُسبت الدولة، ويعد عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي للدولة، خلفه ابنه يوسف (ت ٥٨٠ هـ) ويأتي بعده حفيده يعقوب ويلبي نداء ملوك الطوائف بالأندلس؛ فيهزم ملك قشتالة بالاستعانة بأعراب بني هلال وسليم في موقعة الأرك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م.

الدولة الحفصية: استخاف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بن تومرت أحد وزرائه، وهو الشيخ عبد الواحد الحفصيين (ت ٦٨١هـ) على تونس، وكان ذلك تمهيدا لقيام الدولة الحفصية عندما دب الضعف في دولة الموحدين، قطع أبو زكريا يحيى الحفصي الدعاء أمير الموحدين من خطبة الجمعة، وأعلن قيام الدولة الحفصية في تونس ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، وظلت قائمة حتى القرن العاشر الميلادي عندما هاجمها الإسبان عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م

فاحتلوا تونس دون مقاومة في عام ٨٣٦هـ/ ١٥٣٠م، وسلم شارل الخامس ملك إسبانيا المدينة إلى فرسان مالطة المعروفين باسم فرسان القديس يوحنا، إلى أن جاء العثمانيون واستطاعوا طردهم منها عام عام ٩٥٨هـ/ ١٥٧١م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية.

تعريب بلاد المغرب: كان التركيب السكاني عندما دخلت جيوش المسلمين بلاد المغرب يتكون من ثلاثة طبقات، طبقة الرومان البيزنطيين، وطبقة الأفارقة سكان المدن الساحلية الذين كانوا على صلة بالرومان، وطبقة البربر الذين يمثلون السكان الأصليين لهذه البلاد.

تمثل اللغات في بلاد المغرب هذا التقسيم الاجتماعي للسكان، فاللغة اللاتينية اللغة الرسمية لدولة الرومان الحاكمة سادت واستمرت مع احتلالها لهذه البلاد، إلى جانب اليونانية لغة المعرفة والعلم التي انتشرت على سواحل البحر المتوسط شرقًا وغربا.

اللغة البربرية: اللغة الأم التي يتكلمها البربر في المناطق الداخلية وكانت قاصرة عليهم، ولم تكن عند الفتح العربي الإسلامي لغة حضارة، ولم نعثر على أي أثر كتابي

نتعرف من خلاله على ثقافة البربر وتاريخهم، تنتمي البربرية إلى أسرة اللغات السامية وتشترك معها في بعض الظواهر اللغوية منها؛ أن بنية الكلمة تقوم على الصوامت والأوزان كما نرى في العربية، كما تعرف البربرية تاء التأنيث ونون الجمع، كما تميز بين الضمائر المتصلة والمنفصلة، وتعرف أداة التعريف ال، ويبدو أنها استعارتها من العربية لأن أداة التعريف مختلفة في اللغات السامية[١].

اللغة البونية: هي لهجة قرطاجة تكلمها السكان الأصليون في شمال إفريقيا، وتمثل اللغة الفينيقية في امتدادها على الساحل الإفريقي[٢]، قسم اللغويون هذه اللغة إلى مرحلتين:

البونية القديمة: التي ارتبطت بانتشار الفينيقيين في الساحل الإفريقي في القرن التاسع ق.م، وانتهت بسقوط

---

[١] انظر: د. محمود حجازي: أسس علم اللغة ص ١٧٣، ١٧٤.

[٢] تعني كلمة بونية punic اللاتينية فينيقي وهى تسمية أطلقها الرومان على أهل قرطاجة وجميع من ينتسب إليهم، أما المدينة نفسها فاسمها الأصلي بالفينيقية قرت حدثت: أى القرية الحديثة، وقد حرف الرومان هذا الاسم إلى قرتاجر ومنها أخذت كلمة قرطاجة Cartage ، وهو تحريف يعكس عن نطق الحاء فى البونية الحديثة.

قرطاجنة وخضوع البونيين للرومان، وتتميز هذه المرحلة، بتأثر البونية الحديثة باللغة اللاتينية، وقد ظهر هذا التأثر في دخول ألفاظ لاتينية، وسقوط بعض أصوات الحلق كالعين والحاء[1]، وقد ظلت هذه اللغة تعيش بألفاظها وأصواتها على ألسنة السكان حتى الفتح الإسلامي.

كانت سياسة المسلمين الفاتحين لهذه البلاد لا تختلف عن سياستهم التي تقوم على التسامح فتوحاتهم لفارس والعراق والشام ومصر، ولم يكن العرب الفاتحون غزاة يجمعون الغنائم وينهبون البلاد، وإنما كانوا ناشرين للدين الإسلامي وتعاليمه، عاملين على تخليص الشعوب من الظلم والاضطهاد مما جعلهم يقبلون على الإسلام، وهكذا نرى الفرق بين الفتح الإسلامي والاحتلال الروماني الذي كان نوعا من الحصار الذي حال بين سكان البلاد واندماجهم مع المحتلين، الذين عملوا على أن يظل السكان الأصليين في مكانهم من حياتهم الأولى.

لقد استطاع الإسلام في نحو ثمانين عاما أن ينتشر في بلاد المغرب الأدنَى والأوسط والأقصى، وأن يمتلك من

---

(1) انظر: كريم حسام الدين: الفصائل اللغوية.. أصولها وفروعها ص ٢٠٦.

البربر قلوبهم وأفئدتهم فأصبحوا مخلصين له، يعملون على الدفاع عنه ونشره، واتخذوا لغته لغة قومية لهم، بينما ظل الرومان يحكمون هذه البلاد زمنًا طويلاً، محاولين نشر لغتهم اللاتينية وعقيدتهم المسيحية دون جدوى، وهكذا استطاع الإسلام أن يحقق في سنوات قلائل ما لم تستطيعه المسيحية في عهد الرومان واليونانيين من جميع البربر تحت لوائها.

كما نجد حرص العرب الفاتحين على تعليم البربر القرآن الكريم وتعاليم الإسلام، حتى إذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ – ١٠١ هـ نجده يختار إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر واليا على إفريقية، ويرسل معه بعثة تعليمية، مكونة من عشرة فقهاء اختارهم ليفقهوا سكان المغرب في أمور الدين منهم إسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعبد الله بن يزيد المعافري، وسعد بن مسعود التجيبي، وعبد الرحمن بن نافع، يقول ابن عذاري: "إسماعيل بن أبي مهاجر حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقية بربر إفريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام" وإلى جانب هؤلاء المعلمين الرسميين للدولة، كان يشترك معهم آخرون في تعليم أهل

بلاد المغرب منهم يحيى بن سعيد الأنصاري الذي أرسله عمر بن عبد العزيز عاملاً على الصدقات، وكان محدثًا كبيرا روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة فقية العراق، ومالك فقيه المدينة والليث فقيه مصر، والأوزاعي فقيه الشام، نزل قيروان وأخذ عنه شبابها العلم منهم خالد التجيبي قاضي القيروان وزميلاه عبد الرحمن بن زياد، وعلي بن زياد.

مع نهاية القرن الأول الهجري عرفت المدن المغربية على سواحل البحر المتوسط طريقها للتعريب، وكانت أولى هذه المدن: القيروان التي أنشأها عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري لتكون معسكرا لجيشه، وتبعها في التعريب مدن تونس وسوسة وفاس، ولا يمضي القرن الثاني حتى تصبح العربية لغة هذه المدن الساحلية، أما المدن الداخلية التي سكنها البربر؛ فقد ظلت البربرية لغة حياتهم اليومية إلى جانب العربية التي كانت لغة الشعائر الدينية.

نلاحظ أن اللغتين اللاتينية واليونانية التي لم تكن لهما ما كان من مكانة في الشام ومصر، في الدواوين والإدارة الحكومية لم تستطع الصمود أمام العربية، فقد خرجتا مع

أصحابهما الوافدين عندما استطاع العرب الفاتحون أن يحسموا الموقف الحربي في هذه البلاد.

أما اللغة البونية فقد كانت تربطها علاقة القرابة اللغوية بالعربية؛ فكلاهما لغة سامية ترجعان إلى أصل واحد[١] . فلم يجد أصحاب هذه اللغة مشقة في الانتقال إلى العربية بأصواتها وألفاظها وتراكيبها التي تشتجر بالعربية بصلة النسب والقرابة، كما ذكرنا، وهكذا نجد عامل القرابة اللغوية يساعد على إقبال أهل هذه البلاد على العربية، كما نجد عاملاً آخر ماديا، فقد كانت هذه اللغة لغة طبقة التجار وأصحاب الصناعات التي كانت تحرص على مصالحها الاقتصادية ومكانتها الاجتماعية، فلم تر بأسا أن تتخلى عن لغتها للحفاظ على هذه المكانة من ناحية، وتعزيز هذه المكانة باقترابها من لغة الدين الجديد ولغة الحاكمين. لقد كانت انتشار الإسلام كفيلاً بتحويلهم إلى العربية لغة القرآن والحديث، وساعد على هذا التحول كما ذكرنا قرابة العربية

---

[١] تنتمي البونية إلى اللغة الفينقية إحدى لهجات الفرع الكنعاني لغة الساحل السوري واللبناني، واستطاع الفينيقيون نشر لغتهم فى سواحل البحر المتوسط فى الشمال الإفريقي.

من لغتهم وحرصهم على مصالحهم الاقتصادية ووضعهم الاجتماعي.

كانت اللغة البربرية أشد اللغات صمودا أمام العربية، فقد احتمت بنفسها داخل الصحراء خلف الجبال الوعرة، وابتعدت عن العربية التي كانت تجري على ألسنة الفاتحين والسكان الأفارقة، في السواحل والمدن التي كانت تمر عليها الجيوش في طريقها إلى الأندلس، وبالرغم من ذلك وجدنا العربية تحتوي اللغة البربرية بلهجاتها المختلفة لانتمائها – مثل العربية – لأسرة اللغات السامية من جهة وإقبال البربر على تعلمها كإقبالهم على الدين الجديد، وتحمسوا لها كما تحمسوا إلى الإسلام الذي انتشر فيهم دون عناء، وإلى جانب هذين العاملين العامل اللغوي والديني نجد العامل البيئي[١] الذي تمثل في الصحراء والحياة البدوية للعرب الفاتحين والبربر السكان الأصليين للبلاد، فقد طعمت الهجرة الأولى للقبائل العربية القبائل البربرية بمظاهر الحياة الجديدة، وبلغ الاندماج ما بين العرب والبربر أن قبائل البربر حاولت أن

---

[١] انظر : دور العامل البيئي فى نشر اللغة، ص ١٣١ من الدراسة.

تقترب بأنسابها إلى القبائل العربية[1] على أيدي النسابة من البربر الذين أرجعوا أصولهم البربرية إلى داود، كما فعلت القبائل العربية التي أرجعت نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

لقد كانت هذه الهجرة الأولى للقبائل العربية خلال القرون الأربعة الأولى هي التي مهدت لنشر العربية والإسلام إلى أن جاءت الهجرة الثانية التي لعبت دورا حاسما في تعريب بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري، وقد استخدم ابن خلدون مصطلح عرب الفتح للإشارة إلى الموجة الأولى من العرب الذين دخلوا بلاد المغرب وبدأوا عملية التعريب.

تكونت الهجرة الثانية الكبيرة في منتصف القرن الخامس الهجري من قبائل بني هلال وسليم، وبالرغم مما سببته هذه الهجرة من اضطراب وفوضى في بلاد المغرب[2]، فرب نقمة تُسبب بنعمة، فقد حملت هذه القبائل العربية إلى الأطراف النائية من بلاد البربر، وفرضوها

---

(1) انظر هامش رقم ٣ ص ١٩٩ من الدراسة.

(2) ابن خلدون: العبير ٦:٣٢. انظر: ص ٢٠٦ من الدراسة.

عليهم فرضا عن طريق الامتزاج والمصاهرة، فكانت هذه الهجرة الكبيرة عاملاً حاسما في تعريب بلاد المغرب تعريبا كاملاً، ويصور لنا ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) هذا الامتزاج قائلاً عن قبيلة هوارة البربرية: "إنهم صاروا في عداد الناجعة (الرعاة)[١] في اللغة والزي وسكْنَى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم" كما يقول موضع آخر عن هوارة: "إنهم تبدوا مع الأعراب ونسوا رطانة العجم وتكلموا بلغات العرب"، كما يقول أيضا: إن هوارة لم تتعرب وحدها بل تعربت قبائل البربر في المغرب الأدنى والأوسط والأدنى"[٢].

نستنتج من كلام ابن خلدون أن هؤلاء البربر أصبحوا بفضل بني هلال وسليم شعبا عربيا في العادات والتقاليد إلى جانب جريان العربية على ألسنتهم، يشير العبدري الرحالة المغربي إلى فصاحة عرب البربر الذين مر بأحيائهم في

---

[١] يعني بني هلال وسليم.

[٢] ابن خلدون: العبير ٦:٨.

رحلته للحج عام ٦٨٨هـ قائلاً: "كلام عرب برقّة من أفصح كلامٍ عربيّ سمعنا، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقّة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره وهم الآن على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما قُدر له بالإضافة إلى ما يعربون، وقد سألت بدويا لقيته يسقي إبله في الحصوى على ماء يقال له أبو الشمال: هل نورد على أبو الشمال، وذكرته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل المغرب، فقال لي: نعم تطئون أبا الشمال، وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول، وليس في المغرب عربيّ ولا حضري يفعل ذلك، ومررنا بأطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد منهم: يا حجاج معكم شيء تبيعونَه؟ وأثبت النون وسكن الهاء للوقفْ، ورأيت أعرابيا قد ألحتْ عليه امرأة تسأله شيئًا من طعام يأكله، فقال لها: والله ما تذوقينَه، وأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النون وسكن الهاء[1] .

---

[1] نقلاً عن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٨:٨٠.

نستنتج من كلام العبدري أن لغة هؤلاء الأعراب لم تتغير، وأنها برئت مما اعترى اللهجات العربية من إهمال الإعراب.

وبالرغم من حركة التعريب التي شهدتها بلاد المغرب، إلا أننا نجد اللغة البربرية ولهجاتها المختلفة ما زالت تعيش إلى اليوم، فيتكلم البربرية ١% من مجموع السكان في تونس، وتصل نسبتهم في الجزائر إلى ١٥%، وترتفع في المغرب إلى ٢٠% ، فضلاً عن أن هناك ١٤% ممن يتكلم العربية والبربرية من الدول الواقعة على أطراف الصحراء التي تعتبر فيها العربية أكثر انتشارا، مثل موريتانيا وتشاد، وانتشار البربرية فيها لا يقل عن انتشارها في المغرب، لأن ، اللهجات البربرية المختلفة هي وسيلة التعامل المحلية لحوالي ثلث سكان موريتانيا، بينما الغالبية تستخدم العربية. ونجد الموقف نفسه يتكرر في كل المنطقة الممتدة من السنغال ومالي إلى تشاد والنيجر[١]. وتعتبر الشلوحية أهم اللهجات البربرية التي يتكلمها أبناء جنوب المغرب، أما في الجزائر فتوجد اللهجة القبلبية خاصة في المناطق الجبلية،

---

[١] د. محمد عبد الغني سعودي: قضايا إفريقية، سلسلة عالم المعرفة ص ١٥٢.

واللهجة الشاوية في الجزائر أيضا، واللهجة التماشيكة في الصحراء الكُبرى..-[1].

البربر: شعب عريق الأصل، مثل شعوب العرب والفرس والروم، وتعود تسميتهم بالبربر إلى اليونانيين الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم[2]. اختلف المؤرخون في أصلهم ونسبتهم، هل هم ساميون أم حاميون؟ فقيل هم إفريقيون أصلاً وموطنًا، وقيل هم آسيويون، وهناك من يقول أنهم من عرب الجنوب من اليمن، أو أنهم من عرب الشمال وأن جدهم مازيغ الذي كان أخًا لفلسطين، وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيغ[3] كان ابن كنعان بن حام وهم بذلك حاميون لا ساميون، يقول ابن خلدون: "إن

---

(1) المصدر نفسه ص ١٥٣.

(2) الكلمة مشتقة من اليونانية بربروس Barbarous تعني الأجنبي أو الهمجي، الذي لا يتكلم اليونانية، وعندما فتح العرب البلاد العربية عرفوا بهذا الاسم، وتعني الكلمة فى العربية التمتمة بكلام لا يفهم، والبربري فى العربية تعني الأصوات غير المفهومة، ويستهجن سكان شمال إفريقية مصطلح البربر، ويرونه مستهجناً ولهذا نجد البربري ينسب نفسه إلى القبيلة التي ينتمي إليها مثل: صنهاجة وكتامة، أو ينسب نفسه إلى الكلمة التي تشتمل على عدة قبائل كالأمازيغ أو الشاوح.

(3) يسمي البربر لغتهم باسم آوال أمازيغ أى اللغة النبيلة وسماها العرب اللغة البربرية، ويستعمل الآن مصطلح الأمازيغية بدلاً من البربرية فى وسائل الإعلام.

نسابة البربر يزعمون أنهم من العرب مثل لواته يزعمون أنهم من حِمير، ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة ومثل زنانة يزعمون أنهم من بقايا التبابعة، وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهدت به الرطانة والعجمة في ألسنة البربر أنهم بمعزل عن العرب[1]. وقد كان البربر قبل الاحتلال الروماني يدينون بالوثنية، ولكن الرومان استطاعوا منذ أوائل القرن الرابع الميلادي فرض المسيحية على معظم القبائل ، ويشير ابن خلدون إلى أن القبائل البربرية كانت تدين باليهودية قبل الفتح الإسلامي، وأنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بني إسرائيل[2] ، وينقسم هؤلاء البربر إلى حضرٍ وبدو.

بربر البرانس: وهم سكان المدن الشمالية مثل: هوارة ونفراوة بليبيا وتونس وكتامة وصنهاجة في الجزائر، ومصمودة في المغرب الأقصى.

بربر البتر: وهم سكان الهضاب والصحاري مثل: لواته في برقة وطرابلس، وكما سبق أن عرفنا أن الولاة المسلمين في المغرب عملوا على نشر العدل والمساواة بين

---

(1) ابن خلدون: العبير ٦:٣٥.

(2) ابن خلدون: العبير ٦:١٠٧.

العرب والبربر من برقة إلى طنجة، كما عملوا على ضم جماعات من البربر إلى جيوش المسلمين، وإشراكهم في الحكم منذ فتح عبد الله بن أبي السرح لتونس عام ٢٧ هـ، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان ٧١ – ٨٥هـ حتى نجد في جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثني عشر ألفًا، كما تذكر كتب التاريخ اشتراك البربر الذين أصبحوا دعاة الإسلام في جيش طارق بن زياد لفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري ، ولا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجري حتى يصبح البربر في جميع بلاد المغرب شعبا إسلاميا، لا يؤدي شعائر الإسلام فقط، بل يعمل على نصرته ونشره.

العامية في بلاد المغرب: سبق أن أشرنا إلى أن الاختلاط بين العرب الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة أدى إلى نشأة لغة تعامل يتواصل بها هؤلاء وأولئك انحرفت عن اللغة العربية الفصحى، التي حملها العرب المسلمون إلى البلاد المفتوحة، قد بدأت هذه اللغة تشيع على الألسنة منذ أوائل القرن الثاني للهجرة في المدن العربية قيروان ، تونس ، طرابلس، طنجة، فاس، كانت مزيجا من العربية والبربرية

واللاتينية، خالية من علامات الإعراب، وقد خفت حدة هذه اللغة في منتصف القرن الخامس الهجري بتأثير الهجرة الكبيرة لبني هلال وسليم، الذين ساهموا بدور مؤثر في تعريب البربر وغيرهم من سكان المغرب، كما ساعد في ذلك هجرة الأندلسيين في أوائل القرن السابع الهجري – كما يقول ابن خلدون – إن ملَكة العربية صحت في إفريقية[(١)] بجلاء أهل شرقي الأندلس إليها".

وبالرغم من ذلك نجد ابن خلدون يحدثنا أيضا عن اللحن[(٢)] الذي شاع على ألسنة الأعراب من شعراء بني هلال وسليم في القرن السابع الهجري، ويسميهم بالقوالين، ويشير إلى ذلك في فصل خاص بأشعار العرب وأهل الأمصار لزمنه قائلاً: "فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه؛ من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون بالخروج من

---

(١) انظر: لغة التعامل، ص ١١٧ من الدراسة.

(٢) انظر : اللحن، ص ١٠٨ من الدراسة.

فن إلى فن في الكلام وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلمات، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام، لا بحركات الإعراب، فهذه عامية غير معربة كان أصحاب الشعر العامي الذين أخذوا يتكاثرون في عهد ابن خلدون ويسمون بالقوالين.

حمل العرب الفاتحون العامية المغربية إلى جزيرة مالطة عام ٢٥٥هـ والتي ظلوا يحكمونها حتى عام ٤٨٥هـ عندما انتزعها منهم روجار النورماندي حاكم صقلية، وظل المسلمون بها تحت حكم روجار ما يقرب من مائة وستين عاما، إلى أن أجبرهم فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا عام ٦٤٧ على الرحيل، وحينئذ أصبحت مالطة مسيحية خالصة، وظل أهلها إلى اليوم يتكلمون اللغة المالطية المشتعلة ، العربية المغربية التي كان يتكلمها أجدادهم العرب المسلمون[١].

العربية الفصحى في بلاد المغرب: سبق أن عرفنا أن الاهتمام بتعاليم القرآن الكريم كتاب العربية الأولى كان من

---

[١] انظر: العربية فى مالطة، ص ٢٢٧ من الدراسة.

العوامل الهامة التي حققت استعراب الأمصار المفتوحة، وبمجرد أن أُسست القيروان وتونس، وبعدها المهدية كان هناك مقرئون الناشئة في الكتاتيب ، واهتم بعض القيروانيين بحمل القراءات عن نافع قارئ المدينة، الذي حمل قراءته ورش المصري فأخذها قراء قيروان، ومنهم محمد بن عمر بن جرون ت ٣٠٦ هـ، كما عرفت القيروان إماما في القراءات هو مكي بن أبي طالب المولود بقيروان عام ٣٥٤هـ ، رحل إلى مصر ٣٧٧ هـ ثم عاد إلى قيروان فم هاجر إلى قرطبة ٣٩٣هـ ويتوفى بها عام ٤٣٧هـ، له مصنفات في القراءات منها: "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة" و"الإبانة عن معاني القراءة" وكتاب "التبصرة" في خمسة أجزاء، ومن كبار القراء في العهد الحفصي أبو القاسم اللبيدي الذي كان يدرس كتاب التيسير في القراءات السبع للداني، ومحمد البدال الذي كان يدرس قصيدة الشاطبي في القراءات حرز الأماني[١].

تعرف قيروان علماء اهتموا بتفسير القرآن مثل عكرمة (ت ١٠٥ هـ) تلميذ عبد الله بن عباس ومولاه

---

[١] انظر ص ١٤٣، ١٤٦ من الدراسة.

البربري، ويحيى بن سلام (ت ١٧٥هـ) ، وعلي بن فضال (ت ٤٧٩هـ) ، في عهد الدولة الصنهاجية، اهتم بتفسير القرآن، غادر القيروان إلى بغداد ودرس في المدرسة النظامية[1] حتى وفاته، وله تفسير بعنوان "البرهان" وآخر باسم "الإكسير في علم التفسير"، ودرس أيضا في المدرسة النظامية معاصره عبد الله بن مسلم القيرواني (ت ٤٨٨هـ)، ومن المفسرين الذين عرفتهم ابن بزيزة (ت ٦٦٢هـ) ، وله تفسير جمع فيه من تفسير بن عطية والزمخشري.

وعرفت القيروان من علماء اللغة القزاز محمد بن جعفر التميمي (ت ٤١٢ هـ) رحل إلى العراق والقاهرة ٣٦٥، (ت ٣٨٦هـ)، له معجم في اللغة باسم "جامع اللغة" رتبه على حروف المعجم، وذكره ياقوت في ترجمته، وله كتاب "المثلث في اللغة" وكتاب "العشرات" يذكر فيه اللفظ ومعانية المترادفة، و"إعراب مقصورة ابن دريد"، وكتاب "الحلى والشيات في أوصاف الآدميين"[2] وكتاب "ضرائر الشّعر" وكتاب "الحروف" يبين فيه معاني الحروف.

---

[1] انظر ص ١٥٣ من الدراسة.

[2] طبع الكتاب فى صيدا بلبنان.

ومن لغويي المغرب أحمد بن يوسف اللّبلي الأندلسي، توفي في تونس ٦٩١ هـ ، له كتاب تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح، وكتاب المثلثات، ومن الأندلسيين الذين رحلوا إلى تونس عاصمة الدولة الحفصية ابن عصفور الأشبيلي (ت ٦٦٩ هـ) درس في جامع الزيتونة وله شرح كتاب الجمل للزجاجي والإيضاح لابن الفارسي وكتاب المقرب في النحو والممتع في الصرف.

ومن لغويى المغرب في القرن الخامس الهجري ابن الأجدابي أبو إسحاق، إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي اللواتيّ من قبيلة لواته البربرية التي سكنت الساحل الليبي وأصل أسرته من أجدابية في إقليم برقة لذلك نسب إليها، له كتاب "كفاية المتحفظ" على مثال كتاب "فقه اللغة للثعالبي"، وكتاب "الأزمنة والأنواء".

من أدباء القيروان أبو إسحاق إبراهيم الحصري (ت ٤١٢هـ)، ولد بقرية الحصر بجوار القيروان نسب إليها، كان شاعرا وناقدا، ذكره ابن رشيق في العمدة مرارا واستشهد ببعض شعره، وتتلمذ عليه ابن رشيق وابن شرف، وله منتجات رائعة من الشعر والنثر جمعها في كتابين: "جمع

الجواهر في الملح والوادر، وزهر الآداب وثمر الألبان"، اختار فيهما أروع وأبدع ما للعباسيين من شِعر ونثر وأخبار ونوادر، كأنه أراد أن يكمل كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ الذي رآه يهتم بالإسلاميين والجاهليين ولا يعني بالعباسيين عناية كافية، ويذكر ابن بسام في ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة ذلك قائلاً: عارض الحصر أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وصمه بزهر الآداب".

حاول ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠هـ) أن يكون له نصيب في عالم النقد، وإنما الذي تفوق عليه ابن رشيق القيرواني الذي تُوفِى بصقلية عام ٤٥٦هـ، له كتاب "قراضة الذهب في صناعة الأدب" وهو في السرقات الشعرية وكتاب "العمدة في صناعة الشعر ونقده" يجمع فيه بين النقد والبلاغة وله كتاب "أنموذج الزمان في شُعراء قيروان، به مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، ونجد بعده الناقد البلاغي حازم القرطاجني الذي نزل تونس في عهد المستنصر بن أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية (ت ٦٨٤ هـ) له كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، يمزج فيه بين قواعد البلاغة والنقد عند العرب واليونان.

الفصل الخامس

العربية في صقلية ومالطة وجنوب فرنسا

الفصل الخامس

العربية في صقلية ومالطة وجنوب فرنسا

فَتْح صقلية ومالطة: عندما فتح العرب المسلمون بلاد المغرب رأوا أن يأمنوا هذه البلاد المفتوحة بالسيطرة على سواحل البحر المتوسط وجزره مثل صقلية ومالطة، فأرسلوا حملة استطلاعية إلى سواحل صقلية الجنوبية[١] – كما رأينا في فتح الأندلس[٢] – بقيادة عبد الله بن قيس عام ٤٥هـ/ ٦٦٥، توالت الحملات الاستطلاعية المماثلة بقيادة محمد بن أوس الأنصاري، وبشر بن صفوان الكلبي، وحبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع أحد قواد فتح المغرب البارزين[٣]، وقد نبهت هذه الحملات المبكرة التي جرت منذ النصف

---

[١] تعتبر صقلية أكبر جزر البحر المتوسط، فى منتصفه فى مواجهة تونس وطرابلس، وعاصمتها بارم Palermo إلى اليوم، استوطنها منذ القدم شعب الصيقول، Les Sicules ، ومنه اشتق اسمها، نزلها الفينيقيون الذين خرجوا من لبنان إلى سواحل البحر المتوسط، وفرضت دولة قرطاجنة سيطرتها على الجزيرة عام ٢٦٤ ق.م. إلى أن قضى الرومان على هذه السيطرة وأصبحت الجزيرة جزءا من الإمبرطورية الرومانية عام ٢٤٢م.

[٢] انظر ص ٢٠٣، ٢٣٦ من الدراسة.

[٣] انظر ص ٢٠١ من الدراسة.

الثاني من القرن الأول الدولة الرومانية لخطورة الغزو العربي فأحالتها إلى قاعدة حربية.

استطاعت دولة الأغالبة التي حكمت بلاد المغرب منذ بداية القرن الثالث أن تمتلك أسطولاً بحريا قويا[1] أدخل الرعب في قلوب الرومان ، وغزت به جزيرتي صقلية ومالطة، بقيادة أسد بن الفرات القاضي وشبح فقهاء المالكية في القيروان الذي أقلع من سوسة عام ٢١٣هـ /٨٢٨م واستشهد بعد معارك ضارية[2]، ويعود الأغالبة مرة أُخرى بقيادة محمد بن أبي الجواري عام ٢١٦هـ/ ٨٣١م الذي يستشهد بدوره، ثم يأتي زهير بن عوفي مرة ثالثة، واستطاع أن يحسم الأمر، ويطرد الروم، ويدخل عاصمة الجزيرة عام ٢٢هـ/ ٨٣٥م، واستطاع خفاجة بن سفيان الذي تولى ولاية صقليه فيما بعد عام ٢٤٨هـ/ ٨٣٦م أن يغزو مالطة عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، ويقضي على الحامية الرومانية التي كانت

---

[1] انظر ص ٢٠٣ من الدراسة.

[2] تشير المصادر إلى أن أحد القواد البيزنطيين يسمى أوفيموس Euphemuis وتسميه المصادر العربية فيمى، حنق عليه قسطنطين بطريق صقلية، وعزم على القبض عليه وتعذيبه، فاستنجد بالأمير زياد الله الأغلى حاكم تونس؛ فاستجاب له ورآها فرصة مناسبة للاستيلاء على صقلية فأعد حملة بحرية بقيادة أسد بن الفرات.

تتمركز فيها، وجعلها تابعة لصقلية، وظلت مالطة تابعة لها نحو مائتي وعشرين عاما إلى أن استولى عليها الرومان عند استيلائهم على صقلية عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

تعريب صقلية ومالطة:

كانت سياسة المسلمين مع السكان المسيحيين في جزيرتي صقلية ومالطة مثل سياستهم في البلاد المفتوحة، تعتمد على التسامح والعدل طبقًا لتعاليم الإسلام، فقد حفظ المسلمون لهم ديارهم وكنائسهم، ولم تؤخذ الجزيرة التي كانت بمثابة ضريبة دفاع من الرهبان والقسس والنساء والأطفال، وضمنت لهم حرية العبادة وإقامة شعائرها الدينية، يقول آماري في كتابه "المسلمون في صقلية" :"إن من غُلبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا في راحة وسرور على عهد أمراء المسلمين، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين، الذين كانوا يرزحون تحت نيران الفرنجة".

أكثر المسلمون من بناء الجوامع والمساجد التي كانت مدارس تعاليم الإسلام والعربية بين أهل الجزيرتين، وكان للمهاجرين المسلمين في كل مدينة من مدن الجزيرتين خطط

أو أحياء خاصة يتزلونها، وأختلطوا بأهلهما وأصهروا إِلَيهم كما رأينا في البلاد المفتوحة الأُخرى.

عرفت صقلية مجموعة من العلماء والأدباء واللغويين، مثل ابن مكي الصقلي صاحب كتاب "تثقيب اللِسان" الذي سجل فيه الأخطاء التي سمعها من أفواه أهل صقلية وعلمائها، وابن القطاع (ت ٥١٥هـ)، من مصنفاته "تهذيب كتاب الأفعال" لابن القوطية وكتاب "أبنية أسماء"، وكتاب ثالث عن شعراء صقلية باسم "الدرة الخَطيرة في المختار من شعراء الجزيرة" نقل عنه العماد الأصبهاني في الخريدة قسم صقلية، من علماء الجزيرة أيضا الحسن بن يحيى المعروف بابن الخزار صاحب كتاب تاريخ صقلية، والشريف الإدريسي (ت ٥٦٢هـ) الجغرافي المشهور، ومن أشهر شعراء الجزيرة ابن حمديس الصقلي، ومن شعره الذي يذكر فيه صقليه بعد سقوطها:

ذكرتُ صقلية والأسـى يهيج للنفس تَذكارها

فإن كنتُ أُخْرِجتُ مِن جنةٍ فإني أُحدثُ أَخْبارها

سقطت بعض أجزاء من صقلية في أيدي النورمان[1]، الذين كانوا في جنوب فرنسا وإيطاليا، بقيادة أحد ملوكهم المسمى بروجار الأول في عام ٤٦٤هـ /١٠٧٢م، وظل أهل الجزيرة يقاومون هذا الغزو ما يقرب من عشرين عاما حتى استطاع النورمان الاستيلاء على الجزيرة جميعها عام ٤٨٤هـ/١٠٩٢، ثم استولوا على جزيرة مالطة عام ٤٨٥هـ /١٠٩٢، وظل روجار الأول ملكًا على جزيرة صقلية حتى عام ٤٩٤ هـ/ ١٩٠٢م، وخلفه ابنه روجار الثاني، الذي حكم الجزيرة أكثر من خمسين عاما ٤٩٤هـ - ٤٥٨هـ : ١١٠٢ هـ - ١١٥٤م، ثم جاء بعده ابنه غليوم الأول الذي حكم حتى ٥٦١هـ/ ١١٦٦م، ثم حفيده غليوم الثاني الذي حكم الجزيرة حتى عام ٥٨٤هـ /١١٨٩م.

رأي النورمان المظاهر المختلفة الحضارة العرب والمسلمون في هذه الجزيرة، وإذا القول المأثور في تاريخ

---

(١) جاء النورمانيون أول أمرهم من شمال أوروبا وغربها إلى الشمال الغربي من فرنسا، واضطر ملكها أن يقطعهم هذا الإقليم المشتق من اسمهم نورماندى؛ فقاتلوا فيه وانتهى عدوانهم، واعتنقوا المسيحية فى القرن العاشر، واتجهت جماعة منهم إلى جنوب إيطاليا، واستولوا على الأجزاء الجنوبية منها، مما ساعدهم على غزو صقلية ومالطة.

اوروبا يرى أن روما التي فتحت أثينا حربيا، فإن أثينا فتحتها حضاريا بفلسفتها وأدبها، فإنه ينطبق على النورمان الذين فتحوا صقلية الإسلامية حربيا وفتحتهم صقلية الإسلامية حضاريا، فقد كان النورمان شعبا بلا حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرتهم الحضارة الإسلامية، واضطر النورمان لابقاء المسلمين للانتفاع بهم في تنظيم شئون الدولة التي لا يعرفون عنها شيئًا، إلى جانب نواحى الحياة الأُخرى، وبالرغم من ذلك فقد فرض عليهم روجار الأول الفاتح الجزيرة دون انتشار على عكس ما كان يفعل المسلمون.

لقد كان لتسامح هؤلاء مع المسلمين ضرورة حضارية، وشعور الرومان بحاجتهم إلى حضارة الإسلام وأبنائها الذين قاموا على نهضة هذه الجزيرة وعمرانها[١]، يصف لنا ابن جبير الأندلسي ت ٦١٤هـ ما شاهده في هذه الجزيرة التي زارها عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أي بعد قرن كامل من سقوطها في أيدي النورمان كما يلي: "وللمسلمين

[١] بالرغم من ذلك لم تكن حرية المسلمين محمولة فى إقامة الشعائر الدينية، ولم يكن لهم حقوق المسيحيين حتى أننا نجد من يزوج ابنته لأحد الحجاج المبارين بالجزيرة، حتى لا تتعرض للظلم والاضطهاد، كما يقول ابن جبير فى رحلته. انظر : الرحلة ص ٣٣٧.

هذه المدينة رسم باق من الإيمان ، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بآذان مسموع، ولهم أرض (أحياء) قد انفردوا فيها بسكانهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسيين ولهم بها قاضٍ يرتفعون إِلَيه في أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويختلفون في وقيده في هذه الشهر المبارك وأما المساجد فكثيرة لا تُحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن، وبالجملة فهم غرباء تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريتهم ولا أبنائهم فلا تلاقاهم الله بصنع جميل بمنه"[١].

لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها على ملوك الرومان، يصور لنا ابن جبير ذلك قائلاً: "وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة، واستعمال المسلمين وهو كثير الثقة بهم، وساكن إِلَيهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى أن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود

---

[١] رحلة ابن جبير: ص ٢٣٠.

المسلمين، عليهم قائد منهم، ووزراؤه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته، والمرشحون بخاصته، وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة، والمراكب الفارهة،.. وليس في ملوك النصارى من هو أنعم ولا أرفه منه، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه، ووضع أساليبه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهة الملك، وإظهار زينته بملوك المسلمين"[١] ، ويبدو أن ابن جبير قابل أحد هؤلاء الملوك فهو يقول: "فخرج إلينا يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله، فأبصرنا شيخًا طويل السبلة أبيضها ذا أبهة، فسألنا عن مقصدنا وعن بلادنا بكلام عربيّ مبين..-[٢] ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته، على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به "الحمد لله حق حمده"، وكانت علامة أبيه "الحمد لله شكرا لأنْعمِهِ"، وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن"[٣].

---

[١] المصدر نفسه ص ٢٢٩.

[٢] المصدر نفسه ص ٢٣١.

[٣] المصدر نفسه ص ٢٢٥.

لم يكن هذا حال الملوك الرومان في تأثرهم بتقاليد المسلمين، بل نجد أهل الجزيرة متأثرون بتقاليد المسلمين، فيقول ابن جبير: "ونرى النصرانيات في هذه المدينة في زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، وملتحفات منتقبات، يتنقبن بالنُقُبِ الملونة، حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر"، كما يقول: "إنهن فصيحات الألسن بالعربية الشريفة"[١].

ومما حكاه ابن جبير في يومياته حينما نزل بالرمة عاصمة صقلية، يصور لنا أن الملك روجار الثاني الذي كان في نحو الثلاثين من عمره كان يتشبه بملوك المسلمين في نظام الحكم، وأنه يكتب ويتكلم العربية، ويتخذ شعارا يضعه على رسائله هو "الحمد لله حق حمده" وكان شعار أبيه روجار الأول: "الحمد لله شكرا لأنْعمِهِ"، لقد كان البلاط النورماني يلتزم بالقاليد العربية، وكانت المراسيم والرسائل التي تصدر عن الديوان الملكي تصدر بالعربية، ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود تُضرب بالعربية،

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٦.

وعليها شارتا الإسلام والمسيحية، واستمر حكام الجزيرة الذين خلفوا النورمانيين على ضرب تعودهم بالعربية زمنًا.

لقد ظلت العربية اللغة الرسمية في الجزيرة بفضل هذه السياسة التي اتبعها ملوك النورمانديين، ونستنتج من كلام ابن جبير أن العربية كانت لغة الحياة اليومية بين أهل الجزيرة من المسيحيين، ولغة المسلمين الذي طاب لهم العيش في الجزيرة، تحت الحكام النورمانديين.

ونجد هؤلاء الملوك يحرصون على تعلم العربية، والوقوف على علوم العرب المسلمين، وتخبرنا المصادر التاريخية أن روجار الأول أمر أحد مستشاريه المصلحين وهو قسطنطين الذي ولد بقرطاجنة ـ وكان يتقن العربية، ورحل إلى صقلية ـ بترجمة المؤلفات العربية في الطب والرياضيات، فجمع له كل ما كتب عن الطب وغيره من العلوم وأسس له ديرا بجبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو جنوب إيطاليا، وتولى رئاسته وأغرى رهبانه بتعلم العربية؛ للتعرف على علوم العرب المسلمين، ونقلها إلى اللاتينية وكانت هذه الكتب المترجمة تدرس في كلية سالرنو، ومنها نقلت إلى الجامعات الأوربية. وقد نرى تأثير ذلك على

النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، وقد أنشئت في بالُرمة أول مدرسة للطب، وأنشئت بعدها بأعوام مدارس الطب في أوروبا.

نجد هؤلاء الملوك يقربون إليهم رجال الفكر والعلماء فيستدعي روجار الثاني الشريف الإدريسب (ت ١١٦٦/٥٦٢م) إلى بالُرمة عاصمته، ويطلب منه أن يؤلف له كتابا في الجغرافيا، فألف له (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي يعتبر أكمل كتاب جغرافي ألفة العرب، وظل عند الأوربيين أهم مرجع في الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وترجم إلى لغات العالم، كما طلب منه عمل خريطة للعالم، فنقش على كرة من الفضة، ورسم عليها جميع الأقاليم التي كانت معروفة في عصره، وهما عملان باهران، من أعمال العبقرية العربية المسلمة.

وما زال هؤلاء الملوك يحسنون العربية ويطربون لشِعرها، ويهتمون بعلومها، ويتمثلون مظاهر حضارتها إلى أن انتهى حكمهم في الجزيرة بعد ما يقرب من قرنين من الزمان، جاء حكم أباطرة الألمان ففر من فر من المسلمين إلى إفريقية التونسية، واضطر من بقى إلى التنصر، وعرف

أولادهم بعدهم باسم مرانة Marani وهي كلمة عربية أخذها الإيطاليون من الإسبانية وكانوا يلقبون بها المسلمين الذين دانوا بالنصرانية في الأندلس، وعلى الرغم من هذه الإبادة للعرب ولغتهم فقد ظلت آثار العرب والعربية باقية في الجزيرة على نحو ما نرى في إسبانيا اليوم، فما زال كثير من الأماكن تحمل أسماء عربية مثل: قلنا أي قلعة، ومنها "قلعة النساء"، و"قلعة فيمي" وكلمة مرسى، وكلمة مرسى منها "مرسى علم"، "مرسى المنيا"، وكلمة منزل منها: "منزل الأمير"، و"منزل يوسف"، وكلمة رأس، منها: "رأس القاب"، و"رأس القرن"، والقصر من أعظم شوارع بالُرمة، ويوجد بها الآن قصران جميلان من مباني العرب: أحدهما يسمى بـ "القُبة" والآخر يسمى بـ "قعلة العزيزة". وتفيدنا الشواهد التي وجدت من المقابر وغيرها على أن العربية بقيت في الجزيرة إلى أواخر القرن التاسع الهجري، فمن هذه الشواهد مشاهد باسم القائد الأجل أبي النصر بن القائد أبي السرور يعود لعام ٨٧٣هـ، وشاهد آخر باسم القسنطيني القاضي يعود لعام ٨٩٤، ومن هذه الشواهد شاهد غريب لامرأة نصرانية كُتِب بالعربية بعد خروج العرب من الجزيرة بستين

عام مؤرخ بالتاريخ الهجري كما يلي: "تُوفيت أَنة أم القسيس إكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القديسة البهية المعتزة بالله المرزوقة بقدرته المنصورة بقوته، مالكة ينطالية، والنكبردة وقلورية وصقلية وإفريقية معزة إمام رومية الناصر للملة النصرانية صرمد الله مملكتها يوم الجمعة والعشر العشرين من أوسة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفنتْ بالجامع الأعظم ثم نقلها ولدها بالمسجد إلى هذه الكنيسة صنت مخايلة يوم الجمعة أول ساعة العشاء العشرين مائة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وبنى على قبرها هذه الكنيسة وسماها صنت أَنة على اسم أمه مريم.. ودعا لها بالرحمة آمين آمين.

يدل هذا على أن العربية فرضت وجودها في الجزيرة، وأن النصارى استخدموها كلغة للتخاطُب بعد خروج العرب بمدة طويلة، وأرخوا أحداثهم بالتاريخ الهجري.

العربية في مالطة: سبق أن عرفنا أن العرب المسلمون فتحوا جزيرة مالطة[١] عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨ في عهد الأمير الأغلبي أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن يحيى الأغلبي (ت

---

[١] سماها اليونانيون مليتة وسماها المسلمون مالطة.

٢٦١هـ)، وظلوا يحكمونها حتى سنة ٤٨٥هـ /١٠٩٢ عندما انتزعها الملك النورماندي روجار الأول، وظل المسلمون بها تحت لواء النورمانديين نحو مائة وستين عاما، إلى أن أجبرهم على مغادرتها فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا عام ٦٤٧هـ/ ١٢٦٦م لعهد المستنصر الحفصي، ومنذ ذلك الوقت تحولت مالطة من جزيرة مسلمة الديانة عربية اللِسان إلى جزيرة مسيحية الديانة عربية اللِسان، فظلت العربية لغة لأهل هذه الجزيرة، وهي لهجة تونسية حرفت عبر الزمن.

وحاولت الدول التي استولت عليها مثل انجلترا التي احتلتها عام ١٨٠٠م أن يترك أهل الجزيرة لغتهم كما تركوا الإسلام، ويتخذوا الإنجليزية أو الإيطالية كلغة بديلة، ولكن باءت كل هذه المحاولات بالفشل طوال هذه القرون منذ خروج العرب المسلمين منها مما يدل على تمكن العربية في نفوسهم، مهما دخل عليها من التصحيف والتحريف، وكما يقول بعض الدارسين: "إن بقاء هذه اللهجة في مالطة ظاهرة عجيبة بل حجة قوية ومعجزة بالغة في حيوية اللغة العربية، ورسوخها العميق في قرارة نفوس من يتكلم بها من الأجيال،

ألا ترى هذه الجزيرة مسيحية النحلة، قد تعاقبت عليها منذ ثمانية قرون أمم ودول متعددة، آخرهم الإنجليز الذين ودوا لو يحملون أهلها على التخاطب بلغتهم، فلم يتهيأ لهم ذلك، وبقي المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفًا عن السلف، وإن في ذلك لذكرى لأولي الألباب"[1]. ويؤكد ذلك أحمد فارس الشدياق الذي زار مالطة في أوائل القرن الماضي قائلاً: إن بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة، مع عدم تقييدها في الكتب، دليل على ما لها من القوة والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم وبقوا محافظين على ما عندهم فهم خلف بعد سلف"[2].

وقف الشدياق على اللغة العربية في مالطة سماعا ومشافهة، وسجل ذلك في كتاب بعنوان "الواسطة في أحوال مالطة" فيقول: "لا شك في كون اللغة المالطية عربية، ولكني لست أدري أصل هذا الفرع أشامي هو أم مغربي؟ فإن فيها

---

[1] حسن حسني عبد الله: نقلاً عن د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ٩:٢٠٦.

[2] أحمد فارس: شدياق الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ص ٦٦ ط٢، الجوائب قسطنطينية ١٢٩٩هـ.

عبارات من كلتا الجهتين، والغالب عليها الثانية"[1]، ويستطرد قائلاً" : "إن أهل مالطة يظنون فساد لغتهم وانطماسها عن أصلها العربيّ، يقاس على الإيطالية التي تفرعت عن اللاتينية، واستقلت بصيغ دون الأصل، ويعترض الشدياق على ذلك بأن العربية لم تنقرض كما انقرضت اللاتينية"[2].

لاحظ الشدياق وجود ألفاظ أجنبية مختلفة وهذا أمر تعرفه كل لغة، إما لحاجتها لهذه الألفاظ، أو لتقارب أهل اللغتين واختلاطها كالعرب والفرس والرومان واليونان، ويعطي الشدياق مثالاً في تحية المالطيين "بون جورنو عليك" وهي تحريف للتحية العربية السلام عليكم[3]؛ فنجد كلمات تتألف من أصلين أحدهما عربيّ والآخر أوربي، مثال ذلك الفعل ليبرانا Liberana أي يخلص أو ينجي، فالفعل مؤلف من الفرنسي Liberer بمعنى يحرر أو يخلص والضمير نا na وكلمة المنجا تعني الأكل مشتقة من الفعل الفرنسي monger بمعنى يأكل ، ونجد هذه الكلمة في بيتين من الشعر:

---

(١) الواسطة فى أحوال مالطة ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٧.

وكنت المنجا عينك صاحية

نجيب الحوت من كعر البرمة

وكنت الشغل عينك ساهية

تمشي تطبيش كيف للعمى

ويذكر الشدياق أن كثيرا من الكلام العربي الذي بقي في أهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز، إما بذكر اللازم وإرادة الملزوم، وإما بتخصيص العام وتعميم الخاص، كقولهم مثلاً وحلت للوقوع في الأمر الصعب، وأصله الوقوع في الوحل خاصة، والطلاب للمتكفف وهو اسم مفعول من غلب. ومما استعملوه من الألفاظ تجوز كلمة المنبر التي تعني محل الخُطبة وعندهم كرسي الولادة[1] ، كما يذكر أن أهل مالطة ينطقون العين إذا كانت متطرفة أصلاً، فيقولون: "تلا: طلع، وسما: سمع، قلا: قلع[2].

العربية في جنوب فرنسا: نجحت جيوش الدولة الإسلامية في فتح بلاد فارس والعراق والشام ومصر وبلاد

---

[1] المصدر نفسة.

[2] المصدر نفسه ص ٦٠.

المغرب والأندلس، ولم يمض القرن الأول الهجري حتى بدأت تقوم في هذه الأمصار مجتمعات جديدة دينها الإسلام ولغتها العربية، وقد حاولت جيوش هذه الدولة العبور إلى أوروبا عن طريق القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية مرتين، الأولى في عهد معاوية ٤٩هـ / ٦٦٩م، والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك ٧١١هـ / ٧١٧م ولكنها لم تنجح في فتح أسوار بيزنطة، وأخفقت في العبور إلى أوروبا من ناحية الشرق، ولكنها كادت تنجح في ذلك من ناحية الغرب بعد فتح الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ٩٨هـ/ ٧١٧م، ولولا استدعاء الخليفة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ) للقائدين موسى وطارق[١] للمثول أمامه بدمشق لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه ويحقق أمله في اختراق أوروبا من الغرب إلى

---

[١] كما سبق أن عرفنا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك ت ٩٦هـ استدعى القائدين موسى وطارق إلى دمشق، وحنق عليه سليمان بن عبد الملك ت ٩٩هـ عندما طلب منه أن يتريث بغنائم وهدايا فتح الأندلس ريثما يموت الوليد الذي كان على فراش المرض، فلم يسمع له فعاقبه على ذلك وتنكر لدوره العظيم وبطولته، فعزله عن قيادة الجيوش واتهمة باختلاس الغنائم، وألقاه فى السجن فتوفي وقد جاوز الثمانين، أما طارق فلم يعرف مصيره. انظر هامش ٢، ٢، ٣، ٢ من الدراسة.

الشرق والوصول إلى دار الخلافة عن طريق القسطنطينية، ويسود الإسلام وتنتشر العربية شمال البحر المتوسط، كما ساد الإسلام وانتشرت العربية في جنوبه[1].

عين موسى بن نصير قبل عودته إلى المشرق ابنه عبد العزيز واليا على الأندلس، وابنه الآخر عبد الله واليا على إفريقية واستطاع عبد العزيز أن ينظم أمور ولاية الأندلس ويشجع الزواج بين العرب والإسبان، وتزوج هو بالملكة إيجلونا أرملة ملك القوط، ثم يقتل عبد العزيز عام ٩٧هـ / ٧١٦م ويرسل برأسه إلى سليمان بن عبد الملك الذي يعزل أخاه عبد الله عن ولاية إفريقية، ويتولى ابن أخت موسى بن نصير أيوب بن حبيب اللخمي ولاية الأندلس، ثم يقيله محمد بن يزيد الذي خاف عبد الله بن موسى في ولاية إفريقية، ويعين الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي يعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩: ١٠١هـ لاضطراب نظام الحكم أثناء ولايته، ويعين السمح بن مالك الخولاني ويجعل

---

[1] استطاع المسلمون بقيادة موسى بن نصير أن يجتاحوا فرنسا لأول مرة، فعبروا جبال البرنية واستولوا على سبتمانيا.

الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية، وتابعة للخلافة مباشرة[1]، [2].

قدم السمح إلى الأندلس مزودا بتعاليم الخليفة العادل في أن يقيم العدل وكلمة الحق في أمور الولاية، وقد كان فوق كفاءته الإدارية جنديا جريئًا وقائدا عظيما، فلما انتهى من مهمة تنظيم أمور الولاية استعد لتأمين حدود الدولة الشمالية ضد هجمات الفرنج[3]، فزحف في جيش ضخم في أواخر ١٠٠هـ / ٧١٩م لفتح غاليس (فرنسا)، فاخترق جبال البرنية إلى تولوز وسبتمانيا، وأقام بها حكومة إسلامية وفرض الجزية على المسيحية وترك لهم حرية ممارسة الشعائر الدينية، ثم استكمل فتوحاته وزحف غربا والتقَى

---

[1] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٧٠ – ٧٣.

[2] يقال إن عمر بن عبد العزيز فكر فى إجلاء الأندلس وإجلاء المسلمين عنها لعزلتهم فيما وراء البحر عن باقى الأقطار الإسلامية؛ فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا فعدل عن مشروعه.

[3] الفرنج أو الفرنك: شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس الميلادي فى إقليم ألمانيا بعد أن عبرت نهر الراين، وكما قامت بغزو القسم الشمالي من فرنسا الذي كان يحكمه الرومان، أما القسم الجنوبي فقد كان يحكمه القوط، وقضت على سلطان أوربا، وأقاموا فى غاليس (فرنسا) وهيأوا الأسباب لنشأة الأمة الفرنسية، كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال والعصور الوسطى، وقامت بدور الحامي للمسيحية على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق.

بجيوش الفرنج واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى سبتمانيا، وسقط السمح شهيدا في يونية ١٠٣هـ / ٧٢١م، لم يقر الخليفة يزيد بن عبد الملك التعديل الذي وضعه عمر بن عبد العزيز، وأعاد تبعية الأندلس في إدارتها إلى إفريقية وعين عنبسة بن سحيم الكلبي واليا عليها، والذي قام باستئناف الغزوات التي بدأها السمح؛ فاستعاد ما خسره المسلمون في غزوتهم الأولى، ثم يستشهد بدوره في ديسمبر ١٠٧هـ / ٧٢٥م.

يتوالى على الأندلس في خلافة هشام بن عبد الله خلال خمسة أعوام ستة ولاة، لم يكن لأحدهم دور يذكر، حتى تولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ولاية الأندلس عام ١١٣هـ /٧٣١م، الذي كان جنديا عظيما مثل السمح وظهرت مواهبه[١] الحربية في الغزوات التي قام بها، كما كان أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم، وكان يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وعنبسة، فبدأ يعد العدة لاجتياح مملكة الفرنج كلها، فسار إلى غاليس في أوائل عام ١١٤ هـ / ٧٣٢م التي دخلها في ربيع ٧٣٢هـ، وزحف إلى مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ثم

---

[١] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٨١ – ٨٢.

عبر نهر الجارون، وواصلت جيوشه السير حتى صائص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط، ونجح في فتح النصف الجنوبي كله من فرنسا من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط، ويعلق على ذلك المؤرخ الإنجليزي جيبون Gibbon قائلاً: .. وامتد خط الظفر مدى ألف ميل، من جبل طارق إلى ضفاف اللوار، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى استكتلندا، فليس نهر الراين بأمنع من نهري النيل والفرات، ولعل أسطولاً عربيا كان يصل إلى مصب التميز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد محمد بصدق الوحي والرسالة.."[1].

يقرر المؤرخون الأوربيون أن المسلمين استولوا على نصف فرنسا الحالية، فقد كان زحفهم جارفًا، وأفزع الأوربيين الذين قرروا الاتحاد فيما بينهم لوقف هذا الزحف، فكانت معركة بلاط الشهداء[2] ١١٤هـ- /٧٣٢م التي لم يكتب

---

[1] نقلاً عن محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٩٠.

[2] التقى عبد الرحمن الغافقي بخصمه شارل مارتل أى شارل المطرقة فى هذه الموقعه الشهيرة، التي سميت ببلاط الشهداء، لكثرة شهداء المسلمين ومنهم عبد الرحمن الغافقي نفسه الذي سقط قتيلاً مع جواده وقد أُثخن طعناً، وكانت هذه المعركة

فيها النصر للمسلمين، ولكنهم أخذوا يعيدون الكرة واضطر حاكم مراسيليا لتسليم مقاطعة البروفانس إليهم عام ١١٩هـ / ٧٣٧م ثم دخلوا مقاطعة سان تولوز عام ٨٨٩هـ ودامت لهم إقامتهم بمقاطعة البروفاس، كما سبق أن استولوا على إقليم سبتمانيا في الجنوب الغربي من فرنسا على ساحل البحر المتوسط، وجعلوا مدينة ناربون قاعدة لأعمالهم البحرية، وهكذا أصبح المسلمون قابضين على زمام الأمور في جنوبي فرنسا من جبال البرينات إلى جبال الألب[١] ، وترك المسلمون أثرا عميقًا في الحضارة الأوربية من خلال وجودهم في جنوب فرنسا، ترى هذا واضحا في وجوه كثير من الأوربيين الذين أخذوا عن العرب المسلمين أشياء كثيرة منها طريقة كتابة الأرقام وأدوات الموسيقى، وشِعر الغزل في المرأة، إلى جانب الإنجازات العلمية التي حققها المسلمون في علوم الطب والرياضيات والكيمياء وغيرها.

فى أوائل شهر رمضان ١١٤هـ: أكتوبر ٧٣٢م، وقد استمر القتال فيها ما يقرب من عشرة أيام كاد النصر أن يكون حليفاً للمسلمين، وقد كانت هذه المعركة فاصلة وحاسمة، أوقفت فتوحات العرب فى أوربا.

[١] د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٢:١٢٨.

انتشرت العربية في جنوب فرنسا كما انتشرت في جزر البحر المتوسط حتى أصبح بحرا عربيا كما كان البحر الأحمر وخليج فارس، ولو نجح المسلمون في فتح القسطنطينية لكانت العربية قد انتشرت في جنوب أوروبا الشرقي، كما انتشرت في جنوبها الغربي، ونتيجة لانتشار العربية في جنوب فرنسا استعارت اللغتان الفرنسية والإسبانية كثيرا من الألفاظ العربية التي سجلها هذا المعجمان:

Englelmann: Clossaire des mosts espanyols et portugais.

Lammens: Remaques sur les mosts Francais derives de L'arabe.

الفصل السادس
العربية في الأندلس

الفصل السادس
العربية في الأندلس

فتح الأندلس: كانت إسبانيا[١] في الوقت الذي امتد فيه نفوذ المسلمين إلى شواطئ البحر المتوسط الجنوبية وجزره القريبة منها خاضعة لحكم القوط[٢] الذي بدأ في القرن الخامس الميلادي واستمر قرنين من الزمان حتى الفتح الإسلامي، لم يمتزج القوط بسكان جزيرة الأندلس ذلك

---

[١] كانت الأندلس تسمى Iberia نسبة إلى الأيبريين الذين كانوا من أقدم سكانها، أو نسبة لوادي إبره، وغزاها القرطاجنيون فى القرن الثالث ق.م. وكان أسلافهم الفينيقيون قد أنشأوا بها قبل ذلك بعدة قرون مراكز تجاريه أهمها قادس، استطاع الرومان طرد القرطاجينيين وبقيت إسبانيا تحكم بالحكم الروماني إلى أن غزاها الوندالVandais فاضطرت روما لطلب معونة القوط الغربيينVisigoths الذين تمكنوا من طرد الوندال.

وعندما استولى عليها الرومان فى القرن الثاني الميلادي أطلقوا عليها اسم إسبانيا، أى شاطئ الأرانب، وقيل أن التسمية نسبة لملك الرومان إشبان Espan وباسمه سميت إشبانية كما سماها العرب الأندلس نسبة لقبائل الوندال التي سكنوها وقيل إن اللفظ مشتق من كلمة فاندالوسيا Vandalusia أى : بلاد الوندال.

انظر : محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٢٧، ٥١.

[٢] عندما ضعف حكم الرومان فى الأندلس غرها قبائل بربرية جرمانية فى أوائل القرن الخامس الميلادي واقتسمت أملاك روما الغربية، واستولت على فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التي كانت من نصيب القوط ،وهم إحدى هذه القبائل البربرية النازحة من شمال أوربا.

الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب والحاكم والمحكوم أمة واحدة، وإنما حكموا أهل الجزيرة بوصفهم عبيد وأرقاء، ولقوا على أيديهم ضروبا من الظلم والعسف والسخرة، ولم ينج اليهود الذين كانوا يسكنون الجزيرة من اضطهادهم وفرض التنصر عليهم.

هكذا كان حال إسبانيا عندما فتح المسلمون بلاد المغرب مقتربين من شواطئ الأندلس، وإذا كان عقبة بن نافع الذي امتطى جواده وخاض به في مياه المحيط لم ير إلا بحرا هائلاً، وظن أنه ليس هناك خلف البحر عالم آخر[١] فإن موسى بن نصير اتجه إلى الشمال ورأى أوروبا، وعزم أن يعبر المضيق لينشر دين التسامح والعدل، فقد كانت الأندلس في متناول أيدي المسلمين بعد أن تم لهم فتح شمال إفريقية، وهما يؤلفان عالما واحدا لا يفصلهما إلا الخليج، الذي يعرف اليوم بمضيق جبل طارق.

استشار موسى بن نصير الوليد بن عبد الملك ٨٦ – ٩٦هـ في فتح الأندلس[٢] فنصحه بالتمهل وإرسال حملة

---

[١] انظر ص ٢٠١ من الدراسة.

[٢] يفسر بعض المؤرخين السرعة التي تم بها فتح الأندلس إلى ما آل إليه القوط من ضعف وانحلال، ولكن حقيقة الأمر عكس ذلك، فقد كان القوط مثل الرومان والفرس

استكشافية، فجهز حملة صغيرة قوامها خمسمائة مقاتل من البربر، وبقيادة بربري يدعى طريف بن مالك، فعبروا البحر من مدينة سبتة بأربعة سفن قدمها جوليان حاكم المدينة الذي تحالف مع المسلمين[١]، ورست السفن في البقعة المقابلة لها والتى سميت باسم القائد البربري "طريف" وتعرف الآن باسم Traifa ومنها أخذت كلمة "تعريفة" المعروفة في الضرائب.

وكان ذلك في رمضان ٩١هـ/ يولية ٧١٠م، عادت الحملة ظافرة بالغنائم، وكان هذا تمهيدا للفتح الكبير الذي عهد به موسى بن نصير إلى طارق بن زياد الليثي البربري الذي ولاه على طنجة، فعبر سبتة بجيش من العرب والبربر، قوامه سبعة آلاف مقاتل في الخامس من رجب ٩٢هـ /

فى قوتهم ومقاومتهم للمسلمين، وقد كانت معجزة عبور جيوش المسلمين لجزيرة الأندلس معجزة من معجزات التاريخ، ولم يكن فقط ثمرة عمل عسكري حقق به المسلمون النصر، بل كان وراء هذا الفتح رسالة سامية، وحضارة جديدة تحملها جيوش المسلمين إلى الشعوب المقهورة.

[١] تشير المصادر التاريخية إلى دور جوليان حاكم سبتة القبطي فى مساعدة المسلمين فى فتح إسبانيا الذي عقد تحالفًا مع موسى بن نصير، لمساعدته ضد خصومة القوط بعد أن جاءته رسالة منه، يعرض فيها تسليم سبته للعرب، وتقديم سفنه لنقل المسلمين للأندلس.

إبريل ٧١١م ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم جبل طارق .Gibltor

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى خُطبة طارق المشهورة التي خاطب بها جندة قائلاً: "أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.."[1] كما تشير بعض الروايات إلى أنه ما كان يعبر بجيشه الشاطئ الأندلسي حتى أمر بإحراق السفن التي عبروا بها لكي يدفع جنده إلى الاستبسال.

التقَى طارق بن زياد بجيش أُذريق ملك القوط في معركة فاصلة في الثامن والعشرين من شهر رمضان، استمرت سبعة أيام انتهت بهزيمة القوط، وواصل سيره شمالاً يتتبع فلول القوط.

---

[1] جاءت خُطبة طارق وخبر إحراق السفن فى كتاب "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق "للأدريسي الجغرافي ت ٥٦٠ هـ، وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن هذه الخُطبة لم يذكرها المؤرخون المسلمون، ويستبعد أن ينشئها بربري تعرب مثل طارق بن زياد.

انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٤٦ – ٤٩،

د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٨:١٨.

وتذكُر المصادر التاريخية أن موسى بن نصير أصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح، وكتب إِليه ألا يواصل التقدم حتى يلحق به ويتوعده بالعقاب إذا توغل في ربوع الأندلس بغير إذنه، ويحال البعض ذلك بحقد أو غيره موسى بن نصير مما حققه طارق من انتصارات، ورأى أن يكون له شرف الاشتراك في هذا الحدث العظيم، فعبر البحر إلى إسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر في رمضان عام ٩٣ هـ/ يونية ٧١٢ فحاصر إشبيلية أعظم قواعد الأندلس لمدة شهر انتهت بسقوطها والتقَى بطارق في طُلَيطِلَة واتهمه بالعصيان والخروج على طاعته وأودعه السجن، ثم ما لبث أن عفا عنه وأعاده إلى منصبه ووضع الاثنان خُطة لفتح ما بقِي من الأندلس، فسار طارق نحو الشمال الغربي وسار موسى نحو الشمال الشرقي، وتوالت انتصارات القائدين واستطاعا فتح الأندلس بأكملها.

وفكر القائد الجريء موسى بن نصير أن يخترق بجيشة جنوب أوروبا فاتحا روما، ويتابع سيرة فيخترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية، ثم يعبر آسيا الصغرى قاصدا دمشق عاصمة الخلافة؛ فيصل بذلك أملاك

الدولة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال كما اتصلت من طريق الجنوب في بلاد المغرب، ولم يتحقق لموسى بن نصير ما فكر فيه لقيام الوليد بن عبد الملك باستدعاء القائدين[١]، [٢].

الأندلس في عصر الولاة: ٩٥ – ١٣٨هـ/ ٧١٤- ٧٥٥م

اتخذ موسى بن نصير أهبته للعودة إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة، فنظم حكومة الأندلس قبل رحيلة عام ٩٥هـ، وجعل حاضرتها إشبيلية التي كانت حاضرتها في عهد الرومان، واختار لولاياتها ابنه عبد العزيز فكان أول ولاتها من المسلمين، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك، كما استخلف على إفريقية (تونس) عبد الله أكبر أولاده، وأقر سليمان بن عبد الملك هذا الاختيار، وقضى عبد العزيز في ولايته ما يقرب من سنتين، أبدى فيهما الاهتمام

---

[١] يرى المؤرخون المسلمون أن سبب الاستدعاء يعود لما نما للوليد من خلاف موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي الخلاف بتفرق كلمة المسلمين، أو خوف الوليد من طمع موسى ودهائه فى الاستقلال بالأندلس، ومهما كانت الأسباب فقد كان هذا الاستدعاء قراراخطيرا على مستقبل الإسلام والمسلمين فى الأندلس، انظر هامش ٢ ص ٢٠٢ من الدراسة.

[٢] انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٥٠ – ٥٥.

بتنظيم إدارات الولايات الجديدة، وشجع الزواج بين العرب ونساء الأندلس، وتزوج هو بأرملةٍ لذريق ملك القوط، واتبع ما فعله المسلمون في بلاد المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين مع جيش المسلمين، بتعليم أهل الأندلس القرآن وفرائض الإسلام، كما أقام المساجد في المدن المفتوحة، وضرب للولاية عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك يكون أول حاكم عربيّ مسلم يحكم إقليما أوروبيا.

ثم يقتل عبد العزيز عام ٩٧هـ بإيعاز من سليمان بن عبد الملك، ويتولى أيوب بن حبيب اللخمي أبن أخت موسى بن نصير الولاية ثم يعزل بعد بضعة أشهر، ويتولى الحر بن عبد الرحمن الثقفي ولاية الأندلس، ثم يعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز لاضطراب النظام في عهده، ويعين السمح بن مالك الخولاني الذي يستشهد عام ١٠٢هـ في جنوب فرنسا، ويأتي بعده عنبسة الكلبي، الذي يواصل الجهاد ويستشهد بدوره عام ١٠٧هـ ويواصل بعدهما عبد الرحمن الغافقي انتصارات سابقيه، ويستطيع أن يصل إلى حدود باريس بعد

معارك عنيفة يستشهد خلالها[1]. ويتولى بعده ولاية الأندلس عقبة ابن الحجاج عام ١١٦هـ الذي كان جنديا عظيما من طراز عبد الرحمن الغافقي الذي عزم على انتقامٍ لأسلافه الشهداء وأن يوطد سلطان الإسلام في شمال إسبانيا وفي غاليس (فرنسا) ، ويستشهد هذا القائد عام ١٢٠هـ وباستشهاده يتوقف المد العربي الإسلامي في فرنسا والذي استمر أكثر من عشرين سنة.

تتابع الولاة العرب على ولاية الأندلس خلال ستة وأربعين عاما، كان الخليفة أو والي إفريقية هو الذي يعينهم، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري من سلالة عقبة بن نافع آخر هؤلاء الولاة، واستمرت ولايته عشر سنوات، إلى أن جاء الشاب الأموي عبد الرحن بن معاوية بن هشام في عهد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل أو صقر قُريش – كما سماه أبو جعفر المنصور – ليؤسس ملكًا له ولذريته.

الأندلس في عصر الأمويين: آلت دولة الأمويين التي تواصلت الفتوح الإسلامية في عهدها شرقًا إلى السند وغربا إلى إسبانيا إلى الانحلال، وانتهى سلطانُها بسقوطها على يد

---

[1] انظر ص ٢٣٢ من الدراسة.

العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٥٦م، ويفر عبد الرحمن من بطش العباسيين، وكان في التاسعة عشرة من عمرة إلى إفريقية[١].

واجتاز الصحراء الكبرى إلى الأندلس التي دخلها في العاشر من ذى الحجة عام ١٣٨ هـ بعد أن نجح في تكوين جيشٍ موالٍ للأمويين من العرب اليمنيين، وصلى بالناس، وخطب في الجند معلنًا ميلاد الدولة الأُموية في الأندلس وعاصمتها قرطبة، وشيد فيها المسجد الجامع وعين فيه ابنه هشام إماما للمسجد.

تُوفي عبد الرحمن عام ١٧٢هـ وهو في التاسعة والخمسين من عمره، بعد أن حكم ٣٢ سنة أرسى فيها قواعد الدولة الجديدة، وعمل على أن يكون الحكم وراثيا في أبنائه وأحفادة، ليحمي الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية بين العرب اليمنيين والقِبط، وبين العرب والبربر، وتجنب أن تنقسم الأندلس إلى أندلسيات متعدده، كما حدث في القرن الخامس الهجري في عهد ملوك الطوائف.

---

(١) قدم بعد فترة تالية إلى بلاد المغرب هارب آخر هو أدريس بن عبد الله، وهم من أحفاد الحسن، واستطاع ابنه إدريس الثاني (١٩٢هـ: ٨٠٨م) أن يزيد فى امتداد مدينة فاس التي أسسها والده عام ١٧٣ هـ : ٧٨٩، وأعدها لتكون عاصمة مملكته.

استخاف عبد الرحمن ابنه هشام الذي واصل سياسة أبيه، وفي عصره ذاع مذهب مالك ١٧٩هـ، ورحل إلى المشرق عدة فقهاء من الأندلس نقلوا كتاب الموطأ عنه، وذاع المذهب المالكي على أيديهم، بعد أن كان الأندلسيون يعملون بمذهب الأوزاعي إمام أهل الشام، كما جعلت الدولة في عهد هاشم اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود، وكان لهذا الإجراء أثر عميقٌ في التقريب بين الأديان المختلفة وبثّ روح التفاهم بينها لا سيما بين المسلمين والنصارى، وكان من آثاره اعتناق كثير من المسيحين الإسلام بعد أن وقفوا على تعاليمه[1] .

يتوفى هشام عام ١٨٠هـ ويخلفه ولده الحكم وهو في السادسة والعشرين من عمرة الذي كان على عكس أبيه شغوفًا باللهو والشراب، حتى ثار عليه الفقهاء، كما أنه كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس، وأول من أنشأ بها بلاطًا إسلاميا ملوكيا ورتب نظمه ورسومه، وأقام له بطانة ملوكية فخمة واستكثر من الموالي وأنشأ له حرسا خاصا من

---

[1] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٢٢٩، ص ٢٤٨ من الدراسة.

الصقالبة من الرقيق والخصيان وبلغ عددهم زهاء خمسة آلاف[1].

تُوفي الحكم وخلفه عام ٢٠٦هـ ابنه عبد الرحمن الأوسط والثاني، وسمى بذلك لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل الأول وحفيده عبد الرحمن الناصر الثالث، وكان مثل أبيه يعشق مظاهر البذخ والفخامة، واصطفاء الموالي والصقالبة والجواري الحسان[2]،[3] ولكن إلى جانب ذلك كان أديبا وكاتبا بليغًا، شغوفًا بجمع الكتب ودراسة الفلك والتنجيم، عمل على تنظيم الحكم؛ فكون مجلسا للوزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، واختص كل وزير بشأن من شؤون الدولة؛ فوزير للمال يسمى الخازن، ووزير للمظالم، ووزير للثغور أو الحرب، وبلغ عدد وزرائه ستة عشر وزيرا، وكان له مستشارون، وهكذا أصبح الحكم يحكم من خلال مجلس

---

(١) المصدر نفسه ١:٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه ١:٢٧٨.

(٣) كَلُفَ عبد الرحمن الأوسط بالجواري كلفاً شديداً، واشتهر بعضهن لديه مثل طروب أم ولده عبد الله، ومؤمرة أم ولادة المنذر، وشفاء أم ولده المطرف وغيرهن، تذكر المصادر القديمة أنه أنجب عدداً كبيراً من الذرية، خمسين من الذكور وخمسين من الإناث كما يقول ابن حزم في جمهرة أسباب العرب ص ٩٠.

وزراء ومستشارين من القضاة ورجال الدين، وبنَى بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، ووصفت أيامه بأيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء[1] .

ويتوفى عبد الرحمن بن الحكم الثاني في عام ٢٣٨هـ في الثانية والستين من عمره بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاما، وخلفه ابنه محمد، وكان قد جاوز الثلاثين بقليل، وأمه أم ولد تُدعى "بهير" وأخذتْ له البيعة دون أخوته التسعة والأربعين[2]. كان مثل أبيه محبا للعلم والعلماء، وزاد عدد الوزراء في عهده إلى ثلاثة وعشرين وزيرا، كان يعشق الجهاد والكفاح ويقود الجيوش بنفسه، وكان ولده المنذر ساعِده الأيمن في ذلك، كان مثل أبيه ينحو في سياسة التسامح نحو النصارى، وترك من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات[3].

تُوفي محمد بن عبد الرحمن عام ٢٧٣هـ وبويع ابنه المنذر الذي كان في الرابعه والأربعين من عمره ملكًا على الأندلس، ويخلفه أخوه عبد الله بن محمد عند وفاته عام

---

(١) د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٨:٣٠.

(٢) محمد عبد الله عثمان: دولة الإسلام فى الأندلس ١:٢٩٠.

(٣) البيان: المغرب ٢:٩٦ نقلاً عن دولة الإسلام ١:٣١٦.

٢٧٥هـ ، وأمه أم ولد تُدعى بهار، تولى الملك في السادسة والأربعين من عمره، كان عهد عبد الله بن محمد تَعمه الفِتَن والاضطرابات، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية من الأندلس قدر انكماشه في تلك الفترة التي امتدت إلى خمسة وعشرين عاما، كان سلسلة من الفتن والغزوات التي مزقت أوصال المملكة ويتوفى عبد الله بن محمد عام ٣٠٠هـ.

وخلال حكم محمد وابنَيه المنذر وعبد الله اتسع النفوذ المسيحي، واستطاع ألفونس الثالث ملك ليون أن يوسع رقعة مملكته، بغزو عدة مدن إسلامية، أعد الأمير عبد الله حفيدا له صنعه على يديه هو عبد الرحمن الناصر الذي كان في الثانية والعشرين من عمره عندما تولى الحكم واستطاع أن يحقق الأمن للأندلس وأن يشتهر صيته في أوربا، ووفدت إِلَيه السفارات محملة بالهدايا من إمبراطور بيزنطه وبابا روما، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين في أواخر ٣١٦هـ ، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر، وبذلك فصل دولة الأندلس عن دويلات العالم الإسلامي التي كانت خاضعة لسلطان

الخلافة العباسية الروحي، وامتدت مدة حكمه إلى خمسين عاما وتوفي عام ٣٥٠هـ [١].

يتولى بعده ابنه الحكم المستنصر الذي عِني أبوه بتثقيفه على أيدي أدباء المغرب والمشرق، ومنهم أبو علي القالي، كان محبا للعلوم، مكرما للعلماء، ويقع الحكم في خطأ بأن أوصى بالحكم لابنه هشام الذي كان لا يزال طفلاً في الثانية عشرة من عمره حتى وفاته عام ٣٦٦هـ ، وكان ابن السيدة صبح إحدى محظياته، ومنذ ذلك الوقت بدأت الدولة الأموية الثانية تعرف طريقها إلى الانهيار وانفراط عقدها، فانتهت عام ٤٢٢ هـ .

أمراء الطوائف وسقوط الأندلس: تقوض الصرح الشامخ الذي شيده بالأندلس ملوك البيت الأموي، وبدأت المدن الكبرى تشهد قيام نظام أمراء أو ملوك الطوائف الذي أخذ في الظهور في أواخر حكم الأمويين ٣٩٩ – ٤٢٢هـ ، وتكونت دويلات صغيرة تكونت من العرب والبربر والصقالبة، كان بنو عباد أعظم هؤلاء الملوك في إشبيلية، وبنو الأحمر في غرناطة، وبنو جهور في قرطبة، وبنو ذى

---

[١] د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٨:٣٢.

النون في طُليطِلة، وبنو هود في سرقطة ، وبنو الأفطس في بطلموس، كان بين هذه الدويلات تنافس سياسي أدى إلى قيام الحروب والمنازعات، وتنافس علمي أدى إلى نهضة علمية، إلا أن التبرعات القائمة بين هذه الدويلات شجعت الغزو المسيحي الذي انقض على الأندلس عن الشمال أو فيما عرف باسم حركة الاسترداد المسيحية.

يمثل القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادي حدا فاصلاً في تاريخ الأندلس حين قامت حركة الاسترداد بإذلال ملوك الطوائف بسياسة القهر وطلب الجزية منهم، وصارت دولهم أشبه بالمحميات، واستطاع ألفونس السادس ملك قشتالة الذي اشتط في طلب الجزية المفروضة على ملوك الطوائف أن يستولي على طُليطِلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥م، وكان خبر سقوط هذه المدينة نذير شؤم لأمراء الطوائف، ولم يكن أمامهم إلا الاستعانة بالصحراويين القادمين من موريتانيا وأميرهم يوسف بن تاشفين ويعرفون بالمرابطين الذي نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام في الصحراء الكبرى والسنغال.

عبر ابن تاشفين بقوته إلى الأندلس واتجه إلى بني عباد في إشبيلية لإنقاذهم من ألفونس، وتقابل معه في موقعة الزلاقة في رجب ٤٧٩هـ /١٠٨٦م، أي بعد عام من سقوط طُليطِلة، ثم يعود ابن تاشفين مرة ثانية إلى الأندلس فاتحا لا حليفًا ٤٨١ هـ ، واستولى على إشبيلية وعبرها وسير المعتمد أسيرا للمغرب، ثم عاد في المرة الثالثة عام ٤٨٤هـ /١٠٩٠ ليخلص الأندلس من حكم ملوك الطوائف الذين أضعفوهم، وضم الأندلس إلى دولته.

تُوفي ابن تاشفين عام ٥٣٧هـ وخلفه ابنه، ولم تعمر دولة المرابطين طويلاً وظهرت في عهده حركة دينية إصلاحية هي حركة الواحدين التي عجلت بسقوط دولة المرابطين على يد مؤسس الدولة ابن تومرت وهو مصلح ديني مغربي زار المشرق، وعاد لينظم ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهاء المالكية، وسمي أتباعه بالموحدين، وقد واجه المرابطين عام ٥٢٤هـ، ثم خلفه عبد المؤمن الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة، وقد تم لهم السيطرة على الأندلس منذ عام ٥٤٠هـ وانتهى حكمهم عام ٦٦٤هـ، بعد أبو يوسف يعقوب بن منصور أشهر حكام الموحدين الذي أتم

برج المسجد الجامع في إشبيليه، وبنى مئذنة تجاوز ارتفاعها مئذنة قرطبة، وسميت ببرج الخير الدا، وقد استطاع أن يحقق انتصارا باهرا على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة وألفونسو السابع ملك أرجون في شعبان ٥٩١هـ / يوليو ١١٩٥م، في معركة الأرك، وكان هذا آخر انتصار حققه المسلمون، وبعد سبعة عشر عاما ثار المسيحيون لهزيمتهم في موقعة العقاب ٦٠٩ هـ/١٢١٢م، وكان هذا إيذانًا بسقوط قرطبة عاصمة إسبانيا في عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦م ثم سقطت بعدها إشبيلية عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م، وانحسرت دولة الإسلام في غرناطة التي كان يحكمها بنو الأحمر.

استطاعت مملكة غرناطة أن تبقى نحو قرنين من الزمان، بفضل دهاء ملوكها وحنكتهم السياسية، تنتمي هذه الأسرة الحاكمة إلى حفيد الصحابي سعد بن عبادة سيد الخرزج، وهو محمد بن يوسف بن مضر المعروف بابن الأحمر الملقب بالغالب بالله، استطاع أن يستولي على غرناطه عام ٦٣٥هـ ويتخذها عاصمة لملكة، واستولى على إشبيلية وتوسع سلطانه حتى شمل جبل طارق، ويخلفه ابنه عام ٦٧١هـ ، ويتوفى عام ٧٠١هـ ، ويتولى ابنه محمد

المخلوع عام ٧٠٨هـ ، واستولى القشتاليون على جبل طارق عام ٩٦٧ هـ مما عجل بنهاية الإمارة.

تزوج فرنادو ملك أرجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، وتعاونا معا في حصار غرناطة، آخر معقل للإسلام في الأندلس لمدة سبعة شهور، واضطر عبد الله آخر سلالة بني الأحمر إلى تسليم المدينة بشروط مهينة، في الثاني من يناير عام ١٤٩٢م/ ٨٨٧ هـ، ولا يعني ذلك أن الحضارة الإسلامية قد اختفت من الأندلس، إنما هي قائمة حتى طُرد الموريسكيون نهائيا من الأندلس عام ١٦٠٩م / ١٠١٤هـ.

وهكذا غربت شمس الإسلام التي ظلت ساطعة فوق الأندلس قرابة ثمانية قرون.

المجتمع الأندلسي: تكون المجتمع الأندلسي من العرب والبربر والمسيحيين أهل البلاد واليهود والصقالبة.

يمثل العرب الذين دخلوا الأندلس مع الفتح أو بعده مباشرة الطبقة الاجتماعية الحاكمة في الأندلس، دخل هؤلاء الأندلس يحملون عصبيتهم القديمة التي اشتعلت في المشرق في العصر الأموي بين قيس المضرية وكلاب اليمنية، وكان العرب القحطانيون الذين يعرفون باليمنيين أكثر عددا من

العرب العدنانيين الذين يعرفون بالمضريين والملك فيهم أرسخ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية، فإن القُرشية قدمتهم على الفريقين اليمنية والمضرية، وقد حمل هؤلاء العرب الذين انحدروا من سلالات الجنود الذين دخلوا الأندلس اسم البلديين في مقابل العرب الداخلين الذين هاجروا بعد قيام الدولة الأموية إلى الأندلس، وكان معظم هؤلاء من الشام لهذا أطلق عليهم اسم "الشاميون" أيضا، وكون هؤلاء طبقة اجتماعية ذات أصول عربية خالصة تعيش على إقطاعاتها التي منحتها الدولة لهم، يقوم على فلاحتها السكان الأصليون ممن ظل على مسيحيته أو ممن اعتنق الإسلام.

يمثل البربر الطبقة الثانية بعد العرب، فقد كانوا أسبق العناصر التي دخلت الأندلس معهم، وكما سبق أن عرفنا أن العرب المسلمين الذين فتحوا المغرب عملوا على نشر العدل والمساواة بينهم وبين البربر الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من المدافعين عنه والناشرين له، كما عملوا على ضم جماعات كبيرة منهم إلى جيوش المسلمين وإشراكهم في الحكم منذ فتح عبد الله بن أبي السرح لتونس (ت : ٢٧ هـ)، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (ت ٨٥ هـ)،

حتى نجد في جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثني عشر ألفًا[1] ، ثم نرى موسى بن نصير يعين طارق بن زياد البربرى حاكما لطنجة، ويعينه قائدا أعلى للجيش الذي تكون من العرب والبربر، وفُتح الأندلس، وكانت هجراتهم تتوالى عليها وينزلون في المناطق الجبلية لشبهها ببلادهم في المغرب.

ساهم البربر بدور كبير لتعضد به الدولة الإسلامية في بداية الفتح وبعده، رأينا دورهم في عهد الملوك الطوائف، فقد كان منهم أمراء حكم بعض المدن الأندلسية الجنوبية مثل بني زيري وبني الأحمر في غرناطة، ودولة الموحدين التي دافعت عن الإسلام ضد الهجمات المسيحية وحكمت الأندلس.

بقي أهل الذمة من المسيحيين واليهود على دينهم، وتسامح معهم المسلمون وتركوا لهم حرية العبادة، ورفعوا عنهم الظلم والقهر، وثقل الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم القوط، كان هذا سببا في اعتناق الكثير منهم الإسلام اقتناعا بالدين، أو رغبة في التمتع بحقوق العربي المسلم، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للمسحيين واليهود، وكان على من يسلم أن يعلن إسلامه أمام قاضٍ من قضاة المسلمين في

---

[1] انظر الدراسة صفحتي ٢١٤، ٢١٥.

المدن الإسلامية، وأن يسجل إعلانه في وثيقة يشهد عليه شاهدان، ويقر فيها أنه اعتنق الإسلام طائعا آمنًا غير فارٍ من شيء ولا مكْره ، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرا لنعمته على هدايته له"(١) .

كان أهل الذمة الذين بقوا على دينهم آمنين على أنفسهم وأموالهم، لا يتعرض لهم أحد بسوء ولا يكرهون في الدين، ولهم رئيس يلقب بالقومس، ونرى شاهدا على هذا التسامح فيما كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير للقومس تدمير بن عبدوش كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش، أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم" (٢).

---

(١) ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات: ص ٤٠٥ ط مدريد
نقلاً عن أستاذنا د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٨:١٢٨.

(٢) الحميدي: صفة جزيرة الأندلس: نقلاً عن د. لطفي عبد البديع: الإسلام فى أسبانيا ص ٢٢.

عرف المسيحيون من أهل الذمة الذين ظلوا على مسيحيتهم بالأندلس بالمستعربين Los mozarabes واللفظ مشتق من الفعل استعرب الرجل أي تكلم العربية ومارس عادات العرب وتقاليدهم واختلط بهم، كان السواد الأعظم منهم يعيش في طُليطِلة التي كانت عاصمة القوط، والحاضرة الدينية للأندلس قبل الفتح، إلى جانب مدينتي قرطبة وإشبيلية، كما كانت لهم أحياء خاصة بهم في هذه المدن، وقاضٍ خاص بهم يعرف بقاضي النصارى إلى جانب القومس ليفصل فيما يكون بينهم من منازعات"[١] ، أما من اعتنق الإسلام من المسيحيين فقد عرفوا باسم المسالمة.

عرف المجتمع الأندلسي طبقة المولدين الذين كانوا نتاج الزواج المختلط الذي امتزجت فيه دماء العرب الفاتحين بالدماء الإسبانية، وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات مسيحيات، وسبق أن عرفنا أن عبد العزيز بن موسى بن نصير قد تزوج أَيلَة أرملة لذريق آخر ملوك القوط وتعرفها المصادر العربية باسم أم عاصم، كما تخبرنا هذه المصارد أن عبد الرحمن الناصر كانت جدته إنيجة أميرة مسيحية

---

[١] المصدر نفسه، ص ٢٧، انظر ص ٢٥٧ من الدراسة.

واسمها درّ، وقد كثر هؤلاء المولدون في البيت الأموي وبين أفراد الجيوش العربية الفاتحة وادعى كلٌ منهم نسبا عربِيا يرى فيه تعظيما لشأنه كما نجد بعضهم يدفع نسبه إلى القوط كالمؤرخ ابن القوطية الذي ينتسب إلى سارة القوطية.

يمثل اليهود جماعة دينية في المجتمع الأندلسي، قد رأوا في الفتح الإسلامي تحريرا لهم مما أصابهم من ظلم وتعسف وإجبار على التنصر من الحكم القوطي، فظاهروا المسلمين منذ اللحظة الأولى وكانوا عونًا لهم في حركة الفتح، فتمتعوا بحرية العقيدة والتسامح فتحسنت حالتهم المادية وعظم شأنهم في عهد الأمويين، وتذكر المصادر التاريخية العربية والإسبانية أن بعضهم قد تقرب من القصر الملكي مثل حسداي بن شبروط (ت ٩٧١م) الذي كان طبيبا وتخصص في خدمة الخليفتين عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، واستعمل نفوذه لتحسين حالة اليهود في الأندلس.

استطاع اليهود تأسيس مدرسة يهودية في قرطبة، وعندما تكاثر عددهم عمروا مدينة لوسنيه Lucene بالقرب من غرناطة، واشتغلوا بالتجارة والآداب والديبلوماسية وقادوا

العرب في لباسهم وعادتهم وتكلموا لغتهم[1] ، ولم يكن لليهود ثقافة خاصة بهم مثل المسيحيين القوط، وكان نتاجهم العلمي ثمرة من ثمرات الثقافة العربية الإسلامية التي نهلوا منها ، يقول المستشرق الإسباني بالنثيا: "نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة..-[2] وعندما غاض نبع هذه الثقافة نضبت قرائحهم.

يمثل الصقالبة العنصر الأوروبي في المجتمع الأندلسي، أطلق هذا الاسم على هؤلاء الذين ينتمون إلى بلاد السلاف شرق أوربا، أو ما يعرف الآن بروسيا، حيث كانت الشعوب الجرمانية تُغير على تلك النواحي وتسترق الرجال والنساء والأطفال ويجلبون إلى الأندلس رقيقًا، وكانوا ينخرطون في سلك الجندية، أو يقومون بالخدمة في قصور الخلفاء والأمراء ، وقد ازداد عددهم زيادة كبيرة حتى بلغوا

---

[1] انظر: هنري بيرس: اللغة العربية وسكان الأندلس فى القرون الوسطى. مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق ص ٤٠٣، مج ١٩ عام ١٩٤٤.

[2] بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٨٨، ترجمة د. حسين مؤنس، انظر ص ٢٥٨ من الدراسة.

في عهد عبد الرحمن الناصر بقراطبة ثلاثة عشر ألفًا، واستكثر منهم عبد الرحمن المستنصر أيضا[1] .

اعتنق كثير منهم الإسلام، واشتدت شوكتهم وسمت منزلتهم، وتقلدوا المناصب المهمة وقيادة الجيش، وتحولوا إلى سادة يتخذون العبيد، وحملوا لقب الموالي وأصبحوا طبقة ذات امتيازات، واستطاعوا في عهد ملوك الطوائف أن يستقلوا بشرق الأندلس، وأنشأوا مملكة في دانية وجزيرتي ميورقة ومنورقة، وحاول بعضهم أن ينشئ دويلة في بلنسية غير أنه لم يلبث أن تغلب عليهم بنو هود في سرقسطة.

نبغت طائفة منهم في العلم والأدب، فكان منهم الشعراء والكُتاب وكثر عددهم حتى ألف واحد منهم اسمه حبيب الصقلي، عاش في خلافة الناصر كتابا جمع فيه أشعارهم ومآثرهم ليبرهن على أن للصقالبة استعدادا طبيعيا كسائر العرب في نظم الشعر والنثر وعنوانه: "كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة"[2].

---

[1] انظر ص ٢٤١ من الدراسة.

[2] انظر: هنري بيرس اللغة العربية وسكان الأندلس، مجلة المجتمع العلمي بدمشق ص ٣٩٩.

المدجنون: هم المسلمون الذين أقاموا في الأندلس بعد سقوطها في يد المسيحين وبقوا على دينهم، ولم يتنصروا وعاشوا في ظل الدولة المسيحية، مثل المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية، ويعرفون باسم المستعربين مع الفرق بين موقف الدولتين في التسامح.

كان يسمى هؤلاء بالمعاهدين، أو المداخِلَة، إلا أن الاسم الذي شاع واستخدم للدلالة عليهم هو لفظ الدجن والجمع مدجنون Los mudejares وهو مشتق من قولك دجن بالمكان يدجن دجنًا ودجونًا، أي أقام بالمكان فهو داجن، أي ألف المكان واستأنس به ، ونقله المقري في نفح الطيب قائلاً: "وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون". ويقول في موضع آخر: "يسير المسلم آمنا في بلاد النصارى ولا يجعل له علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن"[(١)] .

ظل هؤلاء نحو ثلاثمائة عام في المجتمع المسيحي بعد سقوط الأندلس، وظهر تأثيرهم في الحياة العامة، وكان من

د. لطفي عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦، ٣٧، طبع مكتبة النهضة المغربية ١٩٥٨.

[(١)] نفح الطيب ٢:١١، ٨١٢، نقلاً عن د. لطفي عبد البديع ص ٦٥، الإسلام فى إسبانيا.

مظاهر هذا التأثير انتشار الفن المعماري الذي قام به المدجنون، وكان الملوك المسيحيون يعرفون مدى براعة الصناع والبنائين المدجنين ويستخدمونهم في بناء قصورهم وكنائسهم، وتقديرا لدورهم هذا أصدر ألفونسو الحكيم رسالة عام ١٢٨٠، يتعهد لهم فيها بألا يتعرض لهم أحد بأذى، وقد ظلت صناعات النسيج والصناعات اليدوية والفخارية والزراعية وغيرها مزدهرة على أيديهم إلى منتصف القرن السابع عشر[١].

الموريسكيون: إذا كان المدجنون يمثلون الإسلام الذي حافظ على كيانه في نطاق المجتمع المسيحي، فإن الموريسكيون Los moriscos هم الذين تنصر بعضهم وحافظ بعضهم الآخر على دينة مظهرا النصرانية ومبطنًا الإسلام، وذهبوا مذهب التقية، أخذًا بقوله تعالى: مَن كَفَرَ بِالله مِن بعدِ إِيمانِهِ إِلا من أُكْرِه وقَلْبه مطْمس بِالإِيمانِ ولكِن من شَرح بِالكُفْر صدرا فَعلَيهم غَضب مِن الله ولَهم عذَاب أَلِيم النمل /١٠٦، وكان هؤلاء يعدون جزءا من أسبانيا

[١] لطفي عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص ١٦٦.

وامتدادا لشعبها، وورثوا عن المدجنين البراعة في الصناعة والزراعة[1].

لقد كان تاريخ الموريسكيين صراعا بين الدولة المسيحية الغالبة، وفلول العنصر المسلم المغلوب بعد سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام، فقد أكره المدجنون على المنتصر وإلا تعرضوا للتعذيب أو النفي، وارتفعت أصواتهم تستنكر التعسف وإجراءات محاكم التفتيش، وظهرت مشكتلهم التي شغلت ملوك إسبانيا نحو قرن من الزمان واهتز لها كيان المجتمع الإسباني الذي لم يندمجوا فيه اندماجا تكاملاً[2].

تذكر المصادر العربية والإسبانية قيام هؤلاء بأول حركة تمرد تمثلت في ثورة البيازين عام ١٥٠٠هـ حتى اضطر الملك فرناندو إلى التدخل وأصدر في الحادي والعشرين من عام ١٥٠٢ أمرا يقضي على المسلمين بأن يخرجوا من أسبانيا، ويتركوا دينهم مما أفضى بكثير منهم إلى إظهار النصرانية وتعرض هؤلاء في فترات مختلفة

---

(١) د. لطفي عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص ١٧٤.

(٢) د. لطفي عبد البديع: الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٤.

لأوامر وقوانين تحد من حركاتهم وممارستهم للشعائر الدينية فقد حرّم عليهم عام ١٥٢٥ الخروج من الأحياء التي يقيمون فيها، والعمل في أيام الأعياد المسيحية، والأذان للصلاة وفرض عليهم أن يحملوا علامات تدل عليهم[١].

كان دور الدولة الأموية في الأندلس مزدوجا يقوم على توطيد الملك للأمويين، وتحقيق الاستقلال السياسي ومنافسة المشرق ويتجلى ذلك في اتخاذ المذهب المالكي مذهبا رسميا للدولة والذي حررهم من الوصاية الدينية للدولة العباسية التي اتخذت المذهب الحنفي السائد في العراق، وكان أمراء بني أمية لا يولون للقضاء إلا من كان مالكيا، كما عرفت الأندلس على يد داود الأصفهاني (ت ٢٧٠ هـ) بالعراق ثم دخل الأندلس، وكان ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) الذي كان شافعي المذهب من أشد أنصاره، عرفت الأندلس بعض الشخصيات المشرقية التي ساهمت بدور ثقافي هام في المجتمع الأندلسي، من هذه الشخصيات زرياب المغني دخل الأندلس عام ٢٠٦ هـ ، وأبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ) الذي قدم في خلافة عبد الرحمن الناصر حاملاً إلى الأندلس تراث المشارقة

[١] المصدر نفسه ص ١٧٦.

وتولى تربية الحكم الثاني، وتخرج على يديه كثير من الأندلسين ، كما اهتم الأندلسيون بمعارضة المشارقة في مؤلفاتهم، فيؤلف ابن عبد ربه كتاب "العقد الفريد" الذي يعارض فيه كتاب "عيون الأخبار" ويؤلف أبو عمرو الجياني كتاب "الحدائق" يعارض به كتاب "الزهرة" لأبي بكر بن داود، ويؤلف ابن بسام كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ليثبت تفوق شُعراء الأندلس ويعارض به كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي، كما يهتم الأندلسيون بشرح الآثار المشرقية المشهورة، فيشرح البطليوسي كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة، ويشرح الشريشي مقامات الحريري ويشرح ابن هشام اللخمي فصيح ثعلب ومقصورة ابن دريد.

اهتم حكام الأندلس بتعليم من دخل الإسلام من الإسبان وأبنائهم العربية والقرآن الكريم، وقام على ذلك طائفة من المعلمين الذين كانوا يعدون بالعشرات في كُتب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومن أوائل هؤلاء الغازي بن قيس المعلم بقرطبة حين دخلها عبد الرحمن الداخل، وله رحلة إلى المشرق لقي فيها الأصمعي، وأخذ عنه ومثله معاصره أبو موسى الهواري ومعاصرهما جودي بن عثمان

الذي تتلمذ على الكسائي، من هؤلاء أيضا ثابت بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين سماعا عن أبي العباس بن ولاّد المصري.

وقد اهتم الأندلسيون بالمحافظة على اللغة العربية ويتجلى هذا في دور اللغويين والنحاة في داخل الأندلس وخارجها، وتعرف الأندلس نمو حركة لغوية بقدوم أبي علي القالي كما سبق أن ذكرنا الذي أملى على طلابه مؤلفاته "الأمالي في النثر والشعر" وأتبعه بذيل الأمالي والنوادر ومؤلفات أُخرى مثل المقصور والممدود، وشروحه لدواوين شُعراء إسلاميين وجاهليين ومعجمه البارع الذي لم يكمله، ومن اللغويين الذين عرفتهم الأندلس ابن القوطية الذي صنف كتاب الأفعال، والزبيدي الذي اختصر معجم العين، وصنف كتاب "لحن العامة في الأندلس" وهو لا يقصد بالعوام هنا الآحاد العاديين، وإنما يقصد المثقفين وما يجري على ألسنتهم من أخطاء، وكلاهما تتلمذ على أبي علي القالي، ومن هؤلاء اللغويين السرقسطي تلميذ ابن القوطية روي عنه كتاب الأفعال، ورأى أن يبسطه – نشره مجمع اللغة العربية في أربعة مجلدات – وابن الإفليلي من تلاميذ الزبيدي، روى عن

أستاذه أمالي القالي، وله شرح جيد لديوان المتنبي، وابن سيده الذي صنف معجمين الأول المحكم سار فيه على نهج الخليل في معجم العين، والثاني المخصص رتب الألفاظ وفقًا للموضوعات وغير هؤلاء ممن عرفتهم الأندلس ونجد تراجمهم في كتب الطبقات.

اهتم الأندلسيون بالنحو، وانتهت إِلَيهم أهم كتبه التي ألفها المشارقة وعلى رأسها كتاب سيبويه، كان جودي بن عثمان العبسي (ت ١٩٨ هـ) أول من رحل إلى المشرق من نحاة الأندلس وتتلمذ على الكسائي كما سبق أن ذكرنا، وتعرف الأندلس كتاب سيبويه عندما يرحل الأقشتين محمد بن موسى (ت ٣٠٧هـ) إلى مصر، ويأخذ الكتاب عن أبي جعفر الدينوري، ويدرس الكتاب بعده الرباحي محمد بن يحيى (ت ٣٥٨هـ) ، ويأخذه عن أبي جعفي النحاس بمصر ويدرسه بالأندلس كما يقول تليمذة الزبيدي في ترجمته، وبفضل نسخة الرباحي لكتاب سيبويه اشتهر الأندلسيون بشرح الكتاب شهرة واسعة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة المكرمة لقراءة الكتاب على

نحوي أندلسي كان مجاورا بها هو عبد الله بن طلحة (ت ٥١٨هـ).

عرفت الأندلس كثيرا من النحاة مثل الجزولي (ت ٦٠٧هـ) صاحب الجزولية وابن مضاء (ت ٥٩٢هـ) الذي شغل منصب قاضي القضاة في دولة الموحدين وصاحب كتاب "الرد على النحاة" الذي هاجم فيه نظرية العامل وابن عصفور (ت ٦٦٣ هـ) ، الذي صنف المقرب في النحو والممتع في الصرف، وشرح الجمل للزجاجي، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) الذي رحل إلى المشرق وأقام بدمشق وصنف الألفية التي أتى فيها على قواعد العربية كلها في ألف بيت من الشعر، ومن مصنفاته في النحو "التسهيل وشروحه"، و"شرح الجزولية"، و"شرح مشكلة صحيح البخاري" وغير ذلك، أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) الذي رحل إلى القاهرة، وشرح كتابيّ ابن عصفور وألفية بن مالك والتسهيل، وله كتاب "ارتشاف الضرب في النحو"، و"البحر المحيط في التفسير".

واهتم الأندلسيون بعلم القراءات وبرعوا فيه، وقد بدأ هذا الإهتمام به قبل دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس، وقد سبق أن عرفنا أن الغازي بن قيس الذي كان يعلّم الناشئة

ورحل إلى المشرق أخذ عن نافع مقرئ المدينة أحد القراء السبعة، وهو أول من أدخل قراءته للأندلس، وكان يعاصره أبو عبد الله محمد بن علي الذي رحل إلى المشرق بدوره، وأخذ عن ورش: عثمان بن سعيد القبطي المصري الأصل تلميذ نافع قراءته التي أخذت تشيع في الأندلس والمغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش.

وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسين يأخذون القراءات السبع عن المشارقة ويؤلفون فيها، ومن هؤلاء أبو عمرو الطلمنكي (ت ٤٢٩هـ) رحل للمشرق وأخذ القراءات عن أئمة مصر والشام، وله كتاب الروضة في القراءات ، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) تلميذ الطلمنكي وله مؤلفات كثيرة في القراءات منها كتاب الرعاية، وأبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ) ، رحل إلى مصر وله مؤلفات كثيرة في القراءات منها: "التيسير في القراءات السبع"، "المحكم في نقط المصاحف"، و"المقنع في القراءات".

والشاطبي (ت ٥٩٠هـ) الذي رحل إلى القاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبي واستوطن الإسكندرية وله قصيدة

"حرز الأماني ووجه التهاني" في القراءات في أكثر من ألف بيت، يقول عنها ابن خلدون: "استوعب الشاطبي ما دونه الداني في القراءات بقصيدته وعِني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس"[١]

وقد اهتم الأندلسيون بعلم التفسير أيضا، ومن المفسرين الذين تذكرهم المصادر بقي بن مخلد (ت ٢٧٦هـ) الذي يقول ابن حزم: "إن تفسيره يفوق تفسير الطبري" ، وابن عطية (ت ٥٤٢ هـ) الذي يعتبر تفسيره "المحرر الوجيز" أكبر تفسير أنتجته الأندلس، ويقول عنه ابن خلدون: "إنه لخص فيه التفاسير المأثورة كلها"[٢]

ومن أشهر التفاسير، تفسير جامع أحكام القرآن في عشرين مجلدا للقرطبي (ت ٦٧١ هـ) الذي نزل مصر وأقام بالمنيا وسار في تفسيره على نهج ابن عطية، ويختم أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) نشاط الأندلسين في تفسير القرآن بتفسيره البحر المحيط الذي سبق أن أشرنا إليه.

---

[١] انظر: ابن خلدون: المقدمة ٣:١٠٣٠، ص ٧٩ من الدراسة.

[٢] المقدمة ٢:١٠٣٢.

العربية الفصحى في الأندلس:

لم تكن العربية الفصحى على ما يبدو لغة الثقافة والعلم فقط وإنما لغة القبائل العربية التي دخلت الأندلس، الذين أسلموا وعرفوا بالمسالمة وعرف أبناؤهم بالمولدين[١] ، وأقبلوا على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء الشعائر الدينية وقراءة القرآن التي تُعد جزءا لا يتجزأ من اعتناقهم، وهذا يعني أن عددا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعربا كاملاً دينًا ولغةً وأصبحت العربية الفصحى لهم لغة الدين والعلم والثقافة.

ولم تقتصر العربية الفصحى على العرب المسلمين المسالمة من أهل الأندلس الذين اعتنقوا الإسلام، وإنما تعرب مثلهم المسيحيون واليهود، واتخذوا العربية الفصحى أداة للدراسة والتعليم والإبداع، وأقبلوا على مؤلفات العربية في الآداب والفلسفة، ويؤكد ذلك ما ذكره الكاتب الإسباني ألفاروا القرطبي Alvaro الذي عاش في القرن الثاني للهجرة في كتابه الذي كتبه باللاتينية بعنوان : "الدليل اللامع" Indiculus Luminosus ويصرخ فيه بأعلى صوته شاكيا

---

[١] انظر ص ٢٤٨ من الدراسة.

شبان النصارى المستعربين في الأندلس الذين شغفوا باللغة العربية وآدابها شغفًا شديدا، حتى أنهم نسوا لغتهم اللاتينية فيقول: "إن أُخواني في الدين يولعون بمطالعة القصائد والروايات العربية، ويدرسون مؤلفات الفقهاء والفلاسفة المسلمين، لا لشأن الرد عليهم، بل ليضطلعوا بالنطق العربي الفصيح وبالكتابة البليغة، وأين نجد اليوم مسيحيا كفئًا بقراءة نفائس الكتب المقدسة؟ ومن يدرس الأناجيل وكتب الأنبياء والحواريين سوى رجال الدين؟ يا للأسف! إن الموهوبين من شباب المسيحيين لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها، يؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويعلنون في كل مكان أن هذه الآداب جديرة بالإعجاب، فإن حدثتهم عن الكتب المسيحية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها إهتمامهم، يا للألم...! لقد أهمل المسيحيون لغتهم حتى نسوها تماما، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يحرر إلى صاحب له كتابا على ما تقتضيه قواعد النحو، وبالعكس إذا فتشت عن من يكتب بالعربية وجدت فيهم عددا عظيما يعبر

بهذه اللغة بأسلوب رشيق، ورأيت منهم من ينظم من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب من حيث الصناعة"[(١)].

لقد كان إقبال المسيحيين المستعربين على العربية وآدابها – كما يقول المستشرق الفرنسي هنري بيرس – بعد طول احتكاكهم بالعرب، ولما رأوا في المسلمين من التسامح وعلو الهمة، وقد بلغوا إلى درجة أنهم يتكلمون بل يفكرون بالعربية ويعرضون عن اللاتينية التي صارت غير مألوفة لهم[(٢)].

كان اليهود كالمسيحيين، تمتعوا منذ الفتح العربي بحرية العقيدة، وبفضل هذا التسامح تحسن وضعهم الاجتماعي والثقافي، وتعربوا مثل المسيحيين، وأصبحت الثقافة اليهودية مدينة للثقافة العربية في الأندلس، وتشهد بذلك مصنفاتهم، فهذا ابن جناح النحوي المؤسس الحقيقي للنحو العبري بكتابه الرئيسي التنقيح مكتوب بالعربية[(٣)] وابن جبرون الذي يسميه العرب: أبو أيوب سلمان بن يحيى يؤلف

[(١)] راجع النص هنري، بيرس: اللغة العربية وسكان الأندلس، مجلة المجتمع العلمي العربي دمشق، ص ٤٠١.

[(٢)] المصدر نفسه ص ٤٠١، ص ٢٤٨ من الدراسة.

[(٣)] المصدر نفسه ص ٤٠٣.

كتابا في النحو يتأسف فيه – كما تأسف قبله ألفارو القرطبي على إهمال إخوانه من اليهود اللغة العبرية، ويصف يهود سرقسطة "بالجماعة العمياء" ويؤنبهم لأنهم يتكلمون بالأعجمية الأندلسية، وبعضهم لا يستعمل إلا اللغة العربية، ومن مؤلفات ابن جبرون العربية في الفلسفة كتابه المسمى "بعين الحياة" الذي تأثر فيه بالفيلسوف القرطبي ابن مسرة (ت ٣١٩هـ)[(١)].

ومن هؤلاء اليهود الذين تعربوا ابن ميمون الذي عاش في القرن السادس الهجري وكتب عدة رسائل بالعربية منها: "التبيين" "التعزية"، "القوانين"، وكتاب "مرشد الضالين" الذي يعد موسوعة فلسفية وفقهية للديانة اليهودية[(٢)].

ومن الأدباء والشعراء اليهود الذين كتبوا بالعربية موسى بن عزري الغرناطي عرض في كتابه "المحاورات والمذكرات" لصناعتي الشعر والنثر، وعقد مقارنة بين الشعر اليهودي والعربيّ وكتابه "قلادة الجوهر" الذي عرض فيه لشعر الغزل والحب، ويكتب يهودا النطاسي الطُليطلي

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٤.

بالعربية مؤلف "كتاب الخُزري" وهو عبارة عن قصة فلسفية موضوعها اعتناق ملك الخُزر للدين اليهودي في القرن السابع الميلادي.

وإلى جانب هؤلاء اليهود الذين بقوا على دينهم نجد اليهود الذين أسلموا واتخذوا العربية لِسانًا لهم، ومن أشهر هؤلاء إسماعيل بن يوسف بن النغريلة الذي كان وزيرا لملوك غرناطة وشاعرا وكاتبا عبقريا ملما بدقائق العربية، كما كان ابنه يوسف كأبيه، ومعاصرهما حسداي بن يوسف بن حسداي كاتب بني هود بسرقسطة الذي أسلم وحسن إسلامه وكان أديبا مجيدا للشعر والنثر، وكان أبوه قبله كاتبا عند بني هود، وجده حسداي لدى عبد الرحمن الناصر وابن سداري المكنى بأبي بكر وزير الملك السهلة، ذكره صاحب نفح الصليب قائلاً: "كان له شعرا أرق من نسيم السحر، وأندى من الطل على الزهر"، ومن هؤلاء أيضا ابن سهل الإسرائيلي شاعر الموشحات المشهور[١].

ومما يدل على اتساع التعريب بين يهود الأندلس أنه حين أخذ الإسبان الغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى

---

[١] المصدر نفسه ص ٤٠٥.

الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم في ذلك دور ضخم سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة في لغتهم العبرية حتى يقول المستشرق الإسباني "بالنثيا": "نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة"[١].

يقول المستشرق الفرنسي هنري بيريس: "بديهي أن المسلمين يتكلمون العربية ويكتبون ويعبرون بها أدبا عما يخالج أنفسهم نظما ونثرا، أما ما يخص الأندلسيين غير المسلمين من المسيحيين واليهود فغريب استعمالهم للعربية، ولا يمكننا إلا أن نتساءل عن السبب الذي يحملهم على دراسة العربية وتفضيلها على لغتهم اللاتينية والعبرية؟ هل هي الفائدة أو المصلحة الشخصية؟ فلا شك أن المصلحة الشخصية من أهم الأسباب النفسية التي تدعو الإنسان إلى الحركة والعمل، وأن الوظائف المهمة والمناصب العالية لا تعهد إلا لمن يضطلع بالعربية، ويجيد تحرير الرسائل، وارتجال الأبيات الشعرية في المناسبات المختلفة، وهنا يسأل سائل: لماذا النصارى واليهود لا يصرون على استعمال لغتهم الأدبية الخاصة ودراستها، ولهم الحرية في إقامة

---

[١] بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٨٨، ترجمة د. حسين مؤنس.

شعائر دينهم بلغتهم، ولهم الإذن من قبل الخليفة أو الملك في انعقاد مؤتمرات دينية يناظرون فيها باللغة اللاتينية، أو العبرية، مسائل تتعلق بشئونهم الشخصية؟ إذن المصحلة ليست وحدها سبب اهتمامهم باللغة العربية واستعمالهم إياها في تناول مواضيع نظرية معنوية كانت أو فلسفية"[(١)].

ويستطرد قائلاً :"يجب علينا أن نلتمس سببا آخر لا يمت إلى المصلحة بصلة، وهو أن اللغة العربية في القرن الخامس الهجري تظهر لجميع سكان الأندلس، إنها اللغة الوحيدة التي تشفي غلة الشاعر أو الفيلسوف أو الأديب بثروتها ومرونتها، نعم اللغة الوحيدة التي تقدر باتساع نطاق مفرداتها، وتفنن مفرداتها وتراكيبها النحوية، وجزالة ألفاظها من أصيلة ودخيلة على أن تعبر عن أدق العواطف واسمى الأفكار، وذلك لأن لغة العرب قد بلغت في القرن الخامس إلى كمالٍ لا تتجاوزه فيما بعد[(٢)] .

العامية الأندلسية: نشأت في الأندلس عامية عربية مثل العاميات العربية التي عرفتها الأمصار المفتوحة، وهي لغة

[(١)] هنري بيرس: اللغة العربية وسكان الأندلس ص ٤٠٦.

[(٢)] المصدر نفسه ص ٤٠٦.

تُهمل الإعراب، وتحرف عن النطق الصحيح للأصوات والأبنية الصرفية ويتخللها بعض الألفاظ الأجنبية التي تسقط إليها من لغة الإقليم المفتوح.

كانت هذه اللغة متداولة في التخاطب اليومي بين الآحاد العاديين من المسلمين والمسالمة، والمستعربين واليهود في داخل المنازل وخارجها، وفي الأسواق، وجرت أيضا على ألسنة المثقفين الذين تحدثوا الفصحى وأبدعوا بها شعرا ونثرا.

ظهر فن الزجل في الأندلس منظوما بهذه اللغة العامية، وكان ينظم في كثير من الأحيان على أوزان الشِعر العربِيّ. وظهر طائفة كبيرة من الزجالين الأندلسيين. وجاء ذكرهم في كتاب "العاطل الحالي والمرخص الغالي" للأديب البغدادي صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) ، الذي يقول : عن أبي عبد الله أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغَليس، وهو من شعراء القرن السادس الهجري، أنه قرأ في ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية في أوزان الشّعر

العربيّ، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية"[١].

وربما كان مدغليس أول من ابتكر صياغة القصائد باللغة العامية وكان ديوانه يروى بالمشرق، وحصل عليه صفي الدين الحلي، كما حصل على ديـوان ابن قزمـان (ت ٥٥٥ هـ) إمام الزجالين في الأندلس الذي يمكن أن نعطي مثال لبعض أزجاله التي جاءت في العاطل الحالي كما يلي.

قالوا عني بأني فيـك عاشـق		إيــش تقــل يصــدقوا
يا حبيبي لقيت كثير من الناس		بالصـــواب ينطقـــوا
هذا شيء والنبي يا نور عيني		مـــا تحـــدثت بيـــه
ولـ بالله خطـر علـى بـالي		لا ولا خضـــت فيـــه

لقد رأي النحاة واللغويون في هذه العاميـات انحرافًـا عن الفصحى أو ما سموه باللحن[٢]. فتتبعوا هذا اللحن علـى السنة العامة والخاصة وصنفوا مؤلفات رصدوا فيها الأخطاء

---

[١] انظر: كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي.

تحقيق أستاذنا د. حسين نصار، نشر الهيئة المصرية للكتاب.

[٢] انظر: جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣، ص ٢٥٦ من الدراسة.

الصوتية والصرفية والدلالية التـي تجـري علـى ألسـنة المتكلمين ، فمن هذه المؤلفات في المشـرق لحـن العامـة للكسائي ت ١٨٩ هـ، تقويم اللسان لابن الجوزي (ت٥٩٧) تثقيف اللسان لأبي بكر الصـقلي (ت ٥٠١ هـ ـ)، ونجـد الزبيدي القرطبي (ت ٣٧٩ هـ) يؤلف كتابا في لحن العامي في الأندلس يضمنه ما أفسدته العامة والخاصة، كما يكتـب ابن هشام اللخمي(ت ٥٧٧ هـ) كتابا آخر علـى منوالـه بعنوان : المدخل إلى تقويم اللسان يرد فيه على ما خطأ فيـه الزبيدي والصقلي العامة في الأندلس وصقلية.

العامية اللاتينية:

عرف المجتمع الأندلسي العامية اللاتينية أو الرومانسية وسماها المؤرخون العرب العجمية أو اللاطينية التي كانـت شائعة بين أهل الأندلس بحيث تعجب ابن حزم من أن قبيلـة بلي وحدها في الأندلس دون القبائل الأخرى لم تكن تحسـن الكلام بها قائلاً " وهم إلى اليوم (في القرن الخامس) علـى أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاطينية لكن بالعربيـة فقـط:

نساؤهم ورجالهم[1]، ويتضح من هذا النص أن معظم القبائل العربية كانت تعرف هذه اللغة بوصفها لغة تخاطب يـومي، ولم يأنف العرب من استخدام العامية واللاتينية في تخـاطبهم مع أهل البلاد، ويدل على ذلك ما يرويه الخشني في كتابـه قضاة قرطبة عن بعض هؤلاء القضاة الذين كانوا يعرفـون هذه اللغة، ومن ذلك قوله أن شخصا صـاح علـى أحـدهم بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه؟ قولوا له بالعجمية: إن القاضي قـد أدركتـه الملالـة والسآمة[2] ، ويظهر من كلام القاضي أنه فهـم مـا يريـده الرجل من صياحه، كما يذكر الخشني أن رجلاً من شـهود أحد هؤلاء القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلـة هزيلـة، تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد؛ فتقدمت امـرأة إلى هذا القاضي في مجلسه بالمسجد وقالت له بالعجمية: يـا قاضي انظر لشقيـتـك هذه "تقصـد نفسـها"، فقـال لهـا بالعجمية كما يقول الخشني: "لست أنتِ شقيتي، إنما شـقيتي

---

(1) أنظر:جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، ص ٢٥٦ من الدراسة.

(2) الخشني: قضاة قرطبة ص ٩٦، نقلاً عن أستاذنا د. شوقي ضيف.

بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسـجد طـوال النهار"[١].

ويذكر الخشني أنه كان من بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أَعجِميّ اللِسان مقبول الشهادة عندهم[٢] ، وهذه الأخبار كلها تدل على انتشار العامية اللاتينية لغة للتخاطب في المجتمع الأندلسي.

يرى بعض الباحثين أن العامية اللاتينية قد أثرت في العامية الأندلسية التي كان يتحدث بها أهل الأندلس، ومن مظاهر هذا التأثير: إضافة اللاحقة ون u n في آخر أسماء الأعلام للتعظيم كقولهم لخالد، خالدون، وعبد : عبدون، حفص: حفصون[٣] ، وإضافة اللاحقتين ero, ella في أواخر أسماء الفاعلين والنسبة والتصغير، فمن يتولى إدارة الفندق يسمى فندقير Fundakero بدلاً من فندقي، وتصغير حارة

---

[١] الخشني: قضاة قرطبة ص ٩٦، نقلاً عن أستاذنا د. شوقي ضيف.

[٢] تاريخ الأدب العربي ٨:١٣٠

[٣] ليفي بروفنسال: الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٢٦ ، ترجمة د. الطاهر مكي، ط دار المعارف ١٩٨٥.

Haella : Hara بدلاً من حويرة ، وكلمة حارة كانت تعني في عامية أهل الأندلس الحي أو المحلة(١).

تأثير العربية في الإسبانية:

لم تكن دولة الإسلام في الأندلس مجرد حقبة تاريخية انحسرت وانتهت، ولم يستطع ميسحيو الشمال الذين استردوا الأندلس أن يطمسوا آثار ثمانية قرون من الوجود العربي والإسلامي الذي تمثل في نواحٍ كثيرة أهمها اللغة العربية التي ظلت شاهدة على هذا الوجود وتأثيرها في اللغة الإسبانية(٢).

نجد أول مظاهر هذا التأثير الألفاظ التي تظهر الوجه العربي للأندلسي، ويتمثل ذلك في أسماء الأماكن والأنهار المحلة Almeala المدينة Al Medina ، الجزيرة Alcira الدويرة Al dovera ، المعصرة Al masera ، الوادي الكبير Guadal quiver الوادي الأبيض Guadaviar .

---

(١) المصدر السابق ص ١١١.

(٢) انظر هذا التأثير، ليفي بروفنسال، الحضارة العربية فى الأندلس ص ١١٣-١١٦، ترجمة د. الطاهر مكي.

إلى جانب الألفاظ التي تتصل بمجالات دلالية مختلفة، منها مجال الزراعة مثل السد Al zud، الساقية Al ceauia، ومن هذا القبيل الياسمين Jozmin والريحان Arrayan والخزامي Al hucaema القطن Al baricoque والألفاظ الدالة على البناء: الباني Al bani ، الطوب Al doba ، والزليج Aulejos أي الإيشاني الذي تزين به الحوائط ولا يزال اللفظ مستعملاً في بلاد المغرب.

ومن الألفاظ الدالة على البيع والشراء: البازار Bazar ، السوق Azoque القيسرية Alcaiceria المخزن Almacen القنطار Quintale الدرهم Adarme القيراط Quilate. .

ومن الألفاظ الدالة على الملابس: الجبة Alauba الدراعة ِAdorra البرنس Alboranos، ومن هذا القبيل المرفقة Almarfeqa .

ومن الألفاظ الدالة على أدوات الموسيقى: الدف Adufe ، الطبل Atabale العود، Aadue القيثارة Guitarra الطنبور Tambore، البوق .Alboaues .

إلى جانب هذه الألفاظ، ما زالت الإسبانية تعرف عبارات التحية والمجاملة ذات الطابع العربي الإسلامي، مثل قولهم: Dios Quiere بمعنى "إن شاء الله"، ونجد صورة أُخرى لهذه العبارة في الإسبانية هي ajala، ولفظ الجلالة الذي يستعمله الإسباني إظهارا للإعجاب بالشئ الجميل الذي يراه Ole. Ole بمعنى الله الله، ولا يزال أهل الريف كلما ودع أحدهم الآخر يقول: Al poz de Dois وهي تكون ترجمة للتحية الإسلامية السلام عليكم، ومن هذا القبيل أنهم يتوخون البركة في تعاملهم Aboroaue [١].

وكما يقول بعض الباحثين، ومن عبارات الدعاء التي يذكر فيها اسم الله مما كان يدعو به المستعربون في القرن الثاني عشر الميلادي قولهم حرسك الله وحفظك، ولم يكن هذا قاصرا على المستعربين في البيئة الإسلامية، بل تجاوزهم إلى غيرهم من الإسبان، وكان الأندلسيون يحيون بعضهم بعضا، بمثل هذا الدعاء، كما نجد الرسائل الإسبانية تتضمن صيغًا عربية كان يختم بها الكاتب رسالته إلى أبيه أو من هو أكبر منه، مثل "أُقبلُ أيديكم الكريمة" فقد كانت تلك العادة

---

(١) ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في الأندلس ص ٩٥، ٩٦.

الشائعة بين أبناء الريف في إسبانيا، أكثر من شيوعها في مدريد، فالابن يقبل يد أبيه، والصغير يقبل يد الكبير، وفي كثير من النصوص الإسبانية ما يدل على انتشار هذه العادة بين الإسبان في القرن السادس عشر الميلادي، وهكذا نجد التأثير الثقافي العربي الإسلامي في الأندلس[١].

---

[١] المصدر السابق الصفحة نفسها.

أولا : المصادر

ابـــــن الأثيــــــر:	أبو السعادات، مجد الدين بن المبـارك، النهايـة فـي غريب الحديث:
الـــــــــــبلاذري:	أبو الحسن، أحمد بن يحيى أنساب الأشراف: تحقيـق محمد حميد الله، ط دار المعارف فتوح البلدان: ط ليدن
الثعــــــــــــالبى:	أبو منصور ، عبد الملك محمد بن إسماعيل فقه اللغة: تحقيق مصطفى السقا، ط مصطفى الحلبي
الجــــــــــــاحظ:	أبو عبد الله، محمد بن بحر، البيان والتبين: تحقيق عبد السلام هارون ، ط الخانجي
ابـــــن جبيـــــر:	ابو الحسن، محمد بن أحمد، رحلة ابن جبيـر: ط دار التحرير للطباعة والنشر
ابــــن الجــــزري:	أبو الخير، محمد بن محمـد الدمشـقي، النشـر فـي القراءات العشر: تصحيح ومراجعة على محمد الضباع، ط دار الفكـر بيروت
ابـــــن جنــــــي:	أبو الفتح، عثمان بن جنى الأزدى، الخصائص: تحقيق محمد على النجار، ط بيروت
ابـــــن حــــــزم:	أبو على، محمد بن على، جمهـرة أنسـاب العـرب: تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف

أبـــــو حيــــــان:	أبو عبد الله، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحـيط: ط الرياض
ابــــــن خلــــــدون:	أبو بكر، عبد الرحمن بن محمد المقدمة، تحقيق علـى عبد الواحد وافي، ط دار الشعب
الزمخشــــــــــــري:	أبو القاسم، جار الله محمود بن عمرن الكشـاف عـن حقائق التنزيل: ط الحلبي
ابــــــن ســــــعد:	أبو عبد الله، محمد بن سعد الزهرى، الطبقات الكبرى: ط دار صادر بيروت
الســــــــــــيوطي:	أبو بكر ، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد، المزهر في علوم اللغة وأنواعها: تحقيق أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ط الحلبي
الطبــــــــــــري:	أبو جعفر، محمد بن جرير، جمع البيان في تأويل أي القرآن، ط بولاق، تاريخ المرسل والملوك: ط بيروت
ابــــــن فــــــارس:	أبو الحسن، أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة: تحقيق السيد أحمد صقر، ط الحلبي
ابــــــن قتيبــــــة:	أبو محمد، عبد الله بن مسلم، الشّعر والشّعراء: تحقيق أحمد محمد شاكر، ط الحلبي
القرطبــــــــــــى:	أبو عبد الله، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ط دار الكتب
القلقشــــــــــــندي:	أبو العباس، أحمد بن على ، صبح الأعشـى: ط دار

	الكتب المصرية
المقريـــــــــــــــزي:	أبو عمر، تقي الدين أحمد بن على، الخطط: المـوعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط بولاق
النـــــــــــــــــــديم:	أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست": ط طهران
يـــــــــــــــــــاقوت:	أبو عبد الله، شهاب الدين محمد بـن أحمـد، معجـم الأدباء: معجم البلدان: ط بيروت

ثانيا: المراجع

د.الأسد،ناصر الدين	مصادر الشّعر الجاهلى	ط دار المعارف
د. أنيس إبراهيم	فى اللهجات العربيّة	د الانجلو المصرية
د. الجبورى، سهيلة	أصل الخط العربي وتطوره	ط جامعة بغداد
	الخط العبى وتطوره في العصر العباسي	ط بغداد
أبو حديد، محمد فريد	فتح العرب لمصر (ترجمة)	ط لجنة التأليف والترجمة
د. حسان، تمام	الأصول: دارسة ايستمولوجية للفكر اللغوي	ط. بغداد
د. الحمد غانم قدورى	رسم المصحف دراسه لغوية تاريخية	ط. بغداد
د. حميد الله، محمد	مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة	ط. بيروت
د. خليف، يوسف	حياة الشّعر في الكوفة	ط دار الكتب العربيّ
د. الراجحى، عبده	فقه اللغة في الكتب العربيّة	ط بيروت
د. زكى، أحمد كمال	الحياة الأدبية في البصرة	ط دار المعارف
د. السامرائى، إبراهيم	دراسات في اللغة	ط دار الفكر دمشق
د. شاهين، عبد الصبور	العربيّة لغة العلوم	ط دار الإعتصام
	تاريخ القرآن	ط دار الإعتصام
	عربية القرآن	ط دار الإعتصام
الشدياق، أحمد فارس	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	ط الجوائب ١٢٩٩هـ
د. شلبى أحمد	موسوعة التاريخ الإسلامى	ط مكتبة النهضة المصرية

د. الصيادي، محمد المنجي	التعريب وتنسيقه في الوطن العربيّ	ط مركز دراسات الوحدة العربيّة بيروت
د. ضيف، شوقي	المدارس النحوية	ط دار المعارف
	تاريخ الأدب العربي الأجزاء ١: ٨	ط دار المعارف
د. عبد البديع، لطفي	الإسلام في إسبانيا	ط مكتبة النهضة المصرية
د. عبد التواب، رمضان	فصول في فقة اللغة	ط الخانجي
	اللغات السامية (ترجمة)	ط الخانجي
د. عبد العزيز، حسن	العربيّة الفصحى الحديثة (ترجمة)	ط دار الفكر العربيّ
د. علي، جواد	المفصل في تاريخ العرب فبل الإسلام	ط دار الفكر دمشق
د. عمر، أحمد مختار	تاريخ اللغة العربيّة في مصر	ط دار الكاتب العربي
د. عنان، محمد عبد الله	دولة الإسلام في الأندلس	ط لجنة التأليف والترجمة
فك، يوهان	العربيّة: ترجمة د. عبد الحليم النجار	ط الخانجى
الكيلانى، إبراهيم	تاريخ الأدب العربي (ترجمة)	ط دار الفكر دمشق
د. مكرم ، عبد العال	المدرسة النحوية في مصر والشام	ط دار الشروق بيروت
د. مكى، الطاهر	الحضارة العربيّة في إسبانيا(ترجمة)	
د. نامى، خليل	دراسات في اللغة العربيّة	
	العرب قبل الإسلام	
د. وافى على عبد الواحد	فقه اللغة	ط دار نهضة مصر
	علم اللغة	د دار نهضة مصر
د. ولفنسون، إسرائيل	تاريخ اللغات السامية	ط دار القلم بيروت

ثالثًا : **الدوريات والمجلات**

- مجلة جامعة الملك سعود – الرياض ١٤١٤ – ١٩٩٣
- مجلة العصور م ٦ج ١ يناير ١٩٩١ الرياض.
- مجلة كلية الآداب – جامعة القـاهرة – العـدد الأول م٣ ١٩٩٣.
- مجلة المجمع العلمـى العربـي بدمشـق ٢١/١٢ عـام ١٩٤٦.
- مجلة المجمع العلمى العربي بدمشـق ج ٨/م ١٩ عـام ١٩٤٤.
- مجلة المؤرخ العربـي – العـدد ٩ – المجلـد الأول – مارس ٢٠٠١ القاهرة.
- مجلة الهلال المصرية – عدد أكتوبر ١٩١٧.